

التراث العربي الإسلامي

دراسة تاريخية ومقارنة

دكتور

حسين محمد سليمان





ثقافة وعلوم انسانية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة دار

الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

دكتور حسين أبو الخير

مدير عام التحرير

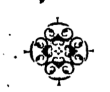
أنور زعلوك

سكرتير عام التحرير

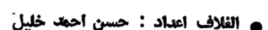
ثروت الشعراوى

الإدارة : ٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة
ت :- ٣٥٥١٨١٠/٣٥٥١٨١٨/٣٥٤٢٨٠٠/٣٥٥١٥٩٩
تلكس دولي : ٢٠٥٧٤





ستظل القاهرة .. دائماً قلب العروبة والإسلام
النابض .. تتبوأ مكانتها التاريخية والحضارية ..
في عالم الفكر والثقافة والنشر !!



● الغلاف اعداد : حسن احمد خليل

☐ رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/٣٦١٤

☐ الترقيم الدولى ١ - ٠٠٣١ - ٠٩ - ٩٧٧

دكتور حسين محمد سليمان

التراث العربي الإسلامي

دراسة تاريخية ومقارنة

١٤٠٧ ـ ١٩٨٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين • وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين » •

سورة النمل آية ١٥ – ١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

شـــكر .. ودعـــاء

« رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ..
وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

أشكرك يا الهى ... يا صـاحب القـــدرة والعظمة والجلال والاكرام .

أشـكرك يا الهى ... يا مقـــدر الأمور .. ورحمن رحيم بى وبعبـادك .

أشـكرك يا الهى ... يا صاحب الشـــفاء ، وموهب العافية .

أدعوك يا الهى ... بما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« اللهم انى أسألك المعافاة فى الدنيا والآخرة »

عبـدك
حسين محمد سليمان

مقدمة

التراث العربى الاسلامى ، تعبير صادق عن أثر التوجيه الاسلامى ودوره فى بناء الفكر الاسلامى والحضارة الاسلامية • بل هو الدافع الرئيسى لنهضة الفكر والحضارة الانسانية بصفة عامة ، فضلا عن دوره الكبير المؤثر فى قيام الحضارة الحديثة •

ويستطيع الباحث المنصف أن يتعلم من خلاله تاريخ العلوم الحقيقى ، والدور الكبير للعلوم عند المسلمين فى تطور هذا التاريخ • ويرد على المشتغلين بهذا المجال المنكرين لهذا الدور •

والنظرة العامة للتراث حديثا تتمثل فيما تركه السلف لنا من مخطوطات ، أى من الكتب ، هذه الكتب التى لا تعتبر قلب المعرفة والعلم العربى الاسلامى وأوعيته فحسب ، بل المعرفة والعلم الانسانى كافة •

والتراث العربى الاسلامى بروافده المختلفة من العلوم النقلية والعقلية ، وما صححه وطوره مما اقتبسه من سوابقه ، وما ابتكره نتيجة جهد أبنائه المسلمين المشتغلين فيه ، ومما أضافه نتيجة المواقف الاجتماعية والانسانية والحضارية ، هو مجال واسع رحب عميق متنوع للدراسات وسيظل أرضا بكراً للابحاث مدة طويلة قد تطول الى قرون •

وهذه الدراسة تقدير للمفكرين الذين خدموا التراث من المحققين ، ورد على الذين يرون فى تفسير التراث ونشره غير عصرى •

وهذا الكتاب يمثل بحثا مجتهدا فى التراث العربى الاسلامى ، ويتناول ستة فصول ، قد يطول واحدا منها أو يقصر ، حسب ما يتناول من زاوية من زوايا البحث •

والفصل الأول ، يتناول آراء حول تعريف تكوينات « التراث العربى الاسلامى » وما انتهى اليه الرأى . ولكن يعرض لقضية هامة سبق أن طرحها ابن خلدون وهى اختصاص العجم بالعلم والرد عليه من واقع المصادر التاريخية التى اثبتت أن ما يطلق عليه ابن خلدون عجم ، ثبت أنهم عرب فى الدم والنسب والمشيخة ، وتسمياتهم راجعة الى السكنى فقط .

والفصل الثانى ، يعرض لأهمية دراسة التراث العربى الاسلامى ، ودوره فى بناء الانسان المسلم فى العصر الحديث ، وواجب المسلمين عامة والعلماء والحكومات الاسلامية خاصة نحو الاهتمام به .

والفصل الثالث : يسهم فى توضيح منهج التراث العربى الاسلامى ومصادره التى تعتمد على النهج الاسلامى فى التفكير والدراسة ، والعربى بثرائه وتكوينه فى اللغة . ثم يحتوى على بعض الامثلة التى تؤكد أن نهضة هذا المنهج وتطوره مرجعها التوجيهات الاسلامية نحو البحث والتأمل وخدمة العالم الانسانى .

وفى الفصل الرابع توضيح لعلم « الفهرست » العربى ، وهو مصدر علم البيبليوجرافيا الحديث ، ويحتوى الفصل على تبويب نموذجين من نماذج علم « الفهرست » لدى كل من ابن النديم ، والخوارزمى ، هذا العلم الذى تطور وصار يطلق على كتبه لفظ « الطبقات » ويتخصص لكل علم من العلوم أو مذهب من المذاهب أو غيرهم .

وما يتناوله الفصل الخامس هو توضيح عراقة فن التحقيق للكتب القديمة لتتوفر أمام الباحثين الحديثين أن السابقين فى هذا المجال هم العلماء العربى بعد أن توفر لديهم عناصر هذا الفن ـ ومدى أهمية سبق العرب بعد أن توفر لديهم عناصر هذا الفن ـ ومدى أهمية سبق من كتب أو مخطوطات تراثنا العربى الاسلامى .

والفصل السادس والأخير وهو أكبر الأبواب دراسة وحجما بما يدرسه من كيفية تكوين التراث العربى الاسلامى • فيعرض لمراحل تكوينه من المهد ، ويشير الى بعض الجذور التى حصل عليها من التراث العربى قبل الاسلام • حتى تأتى مرحلة النضوج والغزارة • وكان ابرز عوامل هذه التطورات هو ظهور الوسائل التى أسهمت فى أهدافه مثل الورق ، والوراقين بكل نشاطاتهم • وكذا المهن التى برزت لاشباع حاجة الغزارة مثل النساخة والتجليد • ثم مرحلة رفاهية الكتب والمخطوطات التى تمثلت فى التجليد الفاخر والتذهيب الداخلى والخارجى للخطوط •

وأخيرا ، فأمل من الله العلى القدير أن يكون قد وفقنى فى هذه الدراسة ، وأن ينتفع بها بعض الباحثين ، وأن ينال تقدير المطلعين عليه من أساتذتى واخوانى وأبنائى • وأن ينال رضا من شجعونى على الاستمرار فى دراسة هذه الزاوية من التراث ، ووقفوا بجانبى يدفعوننى الى انتاجه •

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

د• حسين سليمان

البَابُ الأَوَّلُ

التعريف
بالتراث العربى الاســلامى

- التراث
- التراث العــربى
- التراث العربى الاســلامى

التراث بمعناه الواسع ، هو ما خلفه السلف للخلف من ماديات ومعنويات أيا كان نوعها ، أو بمعنى آخر ؛ هو كل ما ورثته الأمة وتركته من انتاج فكرى وحضارى ، سواء فيما يتعلق بالانتاج العلمى ، بالآداب ، بالصور الحضارية التى ترسم واقع الأمر ومستقبلها . وهذا يعود الى بدء المعرفة الانسانية للكتابة بأشكالها ، وأساليب التعبير بأنواعها ، سواء فى المخلفات الأثرية أو فيما سجل فى وثائق الكتابة .

والذى يعنينا فى هذا البحث هو التراث الفكرى المتمثل فى الآثار المكتوبة سواء كانت أثرية حجرية أو مثلها ، أو كانت على شكل كتب أو ملفات وما شابهها ، وهى التى حفظها لنا التاريخ كاملة أو مبتورة ، أو بمعنى آخر ما يتعلق بتراث الأمة من المخطوطات ومن اللوائح الفنية التى تبرز حضارة الأمة ، وتدل على تراثها الماضى ، وتحديد التراث أو مفهوم التراث بهذا المعنى ينحصر فى المخطوطات وما يدور حولها مما كتبه الأقدمون ، وهو ما تعارف عليه البعض بالمعنى الخاص للتراث ، ويبحث عنه العلماء والباحثون فى عصرنا الحاضر .

ومما سبق فان المشتغلين بالتراث العربى الآن ، يرون أن التراث هو المخطوطات العربية من نتاج فكرى ، وان كان المعنى يتسع أصلا لكل النتاج الحضارى .

وبحثنا هذا يختص بموقف التراث العربى الاسلامى من التراث الفكرى الحضارى المكتوب والثرى ورثته الانسانية جمعاء ، ودوره فى تطوير هذا التراث والاضافة اليه ، خاصة فى التطور الحضارى الحديث الذى بدأ مع فجر العصر التاريخى الحديث ، هذا العصر الذى أصبح الآن أيضا تراثا للمعاصرين .

ونحن نرى أن العلوم الحديثة التى خرجت من التراث الحديث ، قد استندت — تأكيدا على الدراسات والأبحاث — على التراث العربى الاسلامى وعلومه ، بل لا نكون مبالغين اذا رأينا أن كافة العلوم الحديثة والمعاصرة — بلا استثناء — قد استقت أصولها وجذورها من هذا التراث مثل الذرة ، والحسابات الالكترونية ، والصعود الى القمر ، فضلا عن العلوم العملية التى تخدم الانسان مباشرة كالطب والهندسة وغيرها .

ونضرب مثلا : بأسلوب البحث العلمى الحديث ، فالبحث العلمى يقوم أساسا على استنادات سابقة ، ومن الأمانة العلمية أن يعيد الباحث ما حصل عليه من آراء الى صاحبها صراحة ، أى الاشارة الى المصدر أو المرجع الذى رجع اليه الباحث فى نقطة من نقاط الدراسة . واذا رجعنا الى تراثنا العربى الاسلامى ، الا نرى أن هذا راجعا الى رواية الحديث أولا ، ثم الى كتب التراث الأخرى التى كانت تبدل بعبارة (قال فلان) أو (وذكر فلان) أو (يعتبر فلان) .

* * *

وبعد أن انتهينا من التعريف الخاص بالتراث ، فيجب أن ننتقل الى موضوعنا الأساسى وهو (التراث العربى الاسلامى) .

وحتى تكون الرؤية واضحة أمامنا فمن الأهمية الضرورية معرفة معانى الكلمات المكونة لهذه التسمية ، وتطورها ، والأسس اللغوية التى استندت عليها ، وما تشتمل عليه من أهداف ومعانى .

التراث

وكلمة التراث جاءت فى المعاجم تحت مادة « ورث » وهو فعل ثلاثى ، وتدور معانيها حول حصول المتأخر (الخلف) على نصيب مادى أو معنوى ممن سبقه (السلف) : سواء كان السلف والد أو قريب أو موص أو نحو ذلك[١] .

وأهم وأبرز وأقدم الكتب التى وردت فيها الكلمة هو القرآن الكريم ، كتاب الله الكريم فقد جاء فى محكم التنزيل .

١ ـ « وورث سليمان داود[٢] » والمقصود والتفسير لهذه الآية هى وراثة العلم ، وداود أوتى الملك مع النبوة والعلم ، ولكن الملك لا يذكر فى صدد الحديث التى يذكره القرآن ، ولم يقصد به المال أيضا ، لأن وراثة المال تكون لجميع أولاد سليمان وليس لابن واحد خاصة وأن له تسعة عشر ولدا . والعلم هو القيمة العليا التى تستأهل الذكر[٢] ، وهكذا أخذ داود وهو الخلف من سليمان وهو السلف ، العلم ، أى أخذ داود تراث سليمان من العلم والحكمة .

---

(١) عبد السلام هارون : التراث الاسلامى ، ص ٣ .

(٢) الآية رقم ١٦ من سورة النمل ، والتفسير لسيد قطب : فى ظلال القرآن ، جـ ٥ .

٢ – « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب (١) » . والخلف بفتح اللام من يخلف غيره بالخير ، والخلف بسكون اللام من يخلف غيره فى الشر . ومنــه قوله تعالى : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » ، وهذه الآية (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب) . والمعنى بصفة عامة خلف من بعد ذلك الجيل – الذى فيهم الصالح والطالح – خلف آخر لا خير فيهم ورثوا الكتاب وهو التوراة عن آبائهم ، ولكنهم لم يتكيفوا عليه ، ولم تتأثر قلوبهم ولا سلوكهم . بل حولوه الى ثقافة وعلم يحفظ ودراسة خاصة ، وبذلك نحــو بعقيدتهم نحوا آخرا بعيدا عن الحق ، فكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيدة ، يدرسونه ليتأولوا ، ويحتالوا ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، وهــل آفة هؤلاء القوم الا الذين يدرسونه دراسة دون أن يأخذوه عقيــدة ، ولا يتقــون الله ولا يرهبونه .

وهكذا ورث بنو اسرائيل الكتاب (التوراة) والعقيدة ، ولكنهم لم يستفيدوا بما جاء فيها وحولوه الى أمر آخر ، أى أننا نستنتج من هذا معنى التراث ، وأن هذا التراث الذى كان لبنى اسرائيل تراث عقائدى ، فانصرفوا عنه فضلوا ضــلالا كبــيرا .

٣ – « ان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شــك منه مريب (٢) » . والآية تحدد هؤلاء بأهل الكتاب من اليهود والنصــارى ، وهؤلاء ممن عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه الأجيال التى ورثت الكتاب والذين تفرقوا وفرقوا من اتباع كل نبى ، فقد تلقوا عقيدتهم وكتابهم بغير يقين جازم ، اذ كانت الخلافات مثارا لعدم الجزم بشىء ، وللشك والغموض والحيرة بين شتى مذاهبهم واختلافاتهم ، فوقع لهم أشد الحيرة والريبة من أمر دينهم وكتابهم ، وصاروا مقلدين لآبائهم وأســلافهم الذين تفرقوا بعد أن قامت عليهم الحجج والبراهين من النبى المرسل اليهم بظلمهم وتعديهم وجسادهم وعنادهم .

وعلى ذلك فهذا الجيل ورثوا وتوارثوا وورثوا فكر آبائهم المنحرف ، رغم أنهم ورثوا الكتاب اليقين ، أى أن تراثهم تراث ضلال وانحراف وعناد ، وبعد عن اليقين ، وما جاء بالكتب المنزلة عليهم .

---

(١) الآية ١٦٩ من سورة الاعراف .

(٢) سورة الشــورى آية ١٤ .

٤ ـ « وتأكلون التراث أكلا لما (١) » ، أى وتأكلون الميراث أكلا شديدا . وكان العرب فى الجاهلية يأكلون ميراث النساء والأولاد الصغار أكلا شرها جشعا ، أي يأخذ نصيبه ونصيب غيره ممن لا حول لهم ولا قوة ، ولا يسألون عن ما اذا كان حلالا أو حراما . ويعتقدون أو يزعمون أن المال ـ وحتى وان كان موروثا ـ لا يستحقه الا من يقاتل .

والتراث هنا تراث مادى ، فضـلا عن العادة تراث العادات ، أى عادة أكل الميراث عادة توارثها الجاهليون أبنا عن أب .

واذا انتقلنا الى المعانى فى اللغة ، وما شاع استخدامه منها ، فيقال مثلا فلان ورث العلم عن أبيه ، أى أدركه عن طريق أبيه الذى كان عالما أيضا .

فاذا تصفحنا أدب العرب القدامي ، خاصة فى العهد الاسلامى ، **نجده أنه** يشتمل على التاث الفكرى والمادى ، فهذا سعد بن ناشب ، وهو شاعر اسلامى ، كان بلال بن أبي بردة قدم داره لأنه أصاب دما فى قوم ، فأنشد يقول :

فان تهدموا بالغـدر دارى فانها   تراث كريم لا يبال العواقبا (٢)

الخلاصة ، أن اللغويين والقواميس أجمعوا على أن التراث ما يخلفه الرجل لورثته وأن تاءه أصلها الواو : أي (الوراث) ، وساقوا أمثلة عديدة عن مثل هذا الأمر وهو تحول الواو الى تاء فى كلمات من اللغة العربية .

وفى العصر الحديث عادت الكلمة الى معناها (الوراثة) ، ولكن اقتصرت على الجوانب الفكرية والحضارية ، فقد جاء فى (معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب) أن التراث **Legacy** ماخلفه السلف من آثار علمية وأدبية مما يعتبر نفيسا بالنسبة لتقاليد العصر الحاضر وروحه ، مثال ذلك الكتب المحققة وما تحتويه المتاحف والمكتبات من آثار وكتب تعتبر جزءا من حضارة الانسان . وكانت آثاره واشعاعاته فى الفكر المعاصر ، ووضح فى نتاجهم .

وعلى ذلك فما جاء فى المعجم الأدبى هو أن التراث يتكون من :

---

(١) سورة الفجـر . آلة ١٩ .

(٢) محيط المحيط : مادة حدث .

١ ــ ما تراكم خلال الأزمنة من تقاليد وعادات وتجارب وخبرات وفنون وعلوم في شعب من الشعوب ، وهو جزء أساسي من قوامه الاجتماعي والانساني والسياسي والتاريخي والخلقي ، ويوثق علائقه بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث واغنائه .

٢ ــ فنيا : يبرز فعل التراث في آثار الأدباء والفنانين ، فتصبح هذه الآثار محصلا لانصهار معطيات التراث وموحيات الشخصية الفردية .

وحينما يقال (تحقيق التراث) يراد من كلمة التراث في هذه العبارة الكتب المخطوطة التي ورثها السلف للخلف .

وامتدت معاني الكلمة فيما بعد ، فصارت تشمل أي تراث كان ، دون تحديد حدود معينة لتاريخ ، فكل ما خلفه مؤلف من انتاج فكري بعد حياته طالت تلك الحياة أو قصرت يعد تراثا فكريا . وعلى ذلك أصبح شعر البارودي وشوقي وحافظ ابراهيم ، وحديث عيسى بن هشام ، وآثار المنفلوطي والمازني والعقاد ــ تراثا له حرمته التاريخية ، وله قدره ووزنه الأثري .

التراث العربي

فاذا انتقلنا الى التراث العربي ، فهو ما كتب باللغة العربية ، وانتزع من روحها وتيارها قدرا . واذا كان المقصود التراث العربي قبل الاسلام يمكننا القول أنه كان هناك تراثا عربيا بلغة قريش أو غيرها قبل الاسلام ، وهذا التراث الذي اشترك فيه أهل الحجاز بزعامة ولغة قريش ، فضلا عن ممالك اليمن ، وكذا ممالك الشمال في الشام وتخوم العراق وهم الغساسنة والمناذرة .

لقد أحب العرب الكلمة الطيبة ذات المعنى الفياض ، وكانت تسحرهم البلاغة والفصاحة ، فلما نزل القرآن أعجزهم بلاغته ، فأحبوه واحترموه من قبل اسلامهم ، بل كانوا يتجسسون ليلا لسماعه على لسان الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

والتراث العربي المكتوب والمسموع والمحفوظ قبل الاســلام يعتبر مدخلا للتراث الاسلامي ، فليس هناك أمر يولد من فراغ ، اشترك في تدوينه كل من يتخذ العربية لغة تعبير وثقافة وكتابة بل لا نكون مبالغين اذا قلنا اتخذها علما أيضا ، ويتعامل بها كجزء من شخصيته وشخصية مجتمعه .

حقيقة أن الغموض يسدل أستاره على بداية التدوين والتســجيل ، وكذا المدونات قبل الاسلام ، ولكن يتتبع الأخبار والحقائق التي ناقشت تدوين تاريخ

الجاهلية وأشعاره نجد أن أقدم أخبار ومدونات هذه الفترة كتابة لا يتجاوز القرن السابق لمبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، الا أنها ــ للأسف ــ لم تذكر أسماء الكتب المتداولة فى هذا العصر ، وكثيرا ما نجد فى المصادر المدونة بعد الاسلام ، أن شاعرا ما من شعراء الجاهلية كان ممن يقرأ الكتب القديسة أو مجمعها ، ومن أمثلة ذلك أمية بن أبى الصلت الثقفى من أهل الطائف المجاورة لمكة ، والتى كانت بينهما علاقات خاصة قوية ، ولأمية هذا شعر عرفه أهل الحجاز ، ولا يستبعد أنه سجل يقول فيه (١) :

أنت الذى من فضل ومن رحمه بعثت موسى رسولا مناديا

فقلت اذهب وهارون فادعوا الى الله فرعون الذى كان طاغيا

وأنت بفضل منك نجيت يونسا وقد بات فى اضعاف حوت لياليا

وأمية هذا الذى أدخل كلمات والفاظا جديدة الى اللغة العربية ، استعملها العرب من بعده ، وعلى سبيل المثال (باسمك اللهم ، وساهور ، وسلطيط) (٢) .

وتعنى الكلمات الكتابة ، أما الألفاظ يمكن أن يطلق عليها الشفاهة والتلفظ .

وسوف نناقش أمر الكتابة والقراءة فيما بعد فى موضعها بشىء من التفصيل يؤكد وجود وثائق ومدونات بل وبعض السجلات (ولو انها بها مبالغة) فى الفترة السابقة للاسلام (٣) .

فمثلا فى اليمن ، لا يعنى وفرة السجلات المنقوشة على الحجر وغيره أنه لم تكن هناك سجلات أخرى منسوخة على مادة أيسر كالبردى أو الرق أو سعف النخيل . فقد روى الدينورى فى كتابه الأخبار الطوال أنه فى أواخر عهد الدولة الأموية كتب رجل يدعى الكرمانى الى حفيد من حفدة أبرهة بن الصباح آخر ملوك حمير ــ وكان مستوطنا فى الكوفة ــ يسأله أن يوجه اليه بنسخة حلف اليمن وربيعة فى الجاهلية ليجدده ، فأرسلها هذا اليه ، فقرأها الكرمانى على

---

(١) ابن هشام ، سيرة النبى ، قسم ١ ، ص ٢٢٨ .
(٢) ابن هشام : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .
(ساهور : غلاف القمر يدخل فيه اذا كشف ــ سلطيط : القاهرة) .
(٣) حسين سليمان المدخل الى دراسة علم التاريخ ص ١٣٠ .

أشراف اليمن وعظماء ربيعة ، وكانت النسخة المكتوبة بالشعر المنثور ، وأشارت الى عبارات مختلفة فى المعاهدة . وكانت تبدأ بهذا الدعاء « باسم الله العلى الأعظم، الماجد المنعم » وشهد « الله الأجل ، الذى ماشاء فعل عقله من عقل ، وجهله من جهل » وقد كتب الحلف عند ملك اسمه : نبع بن ملكيكرب (١) فى الشهر الأضم ، وهذا يمنى ومقرى .

وقرأ فى زبر حمير وكتبها .

أما فى شمال الجزيرة . فالغساسنة فى الشام كتبوا كتبا مكتوبة بالعربية المشوبة ببعض الآرامية ممن سبقهم ، ومن الشعراء والعرب الذين يزوروتهم وتشمل هذه الكتب على ثقافة أدبية عالية ، بل ومما لاشك فيه أنهم أضافوا اليها.

وعثر على كتب مدونة فى الحيرة التى يحكمها المناذرة ، وهذا لا مراء فيه (٢).

فليس من المعقول أن تكون هناك مدونات فى الشمال والجنوب للجزيرة ، والرحلات تجوب منها ، فضلا عن الرحلات الرئيسية الأساسية التى تقوم من الوسط عامة والحجاز خاصة ، ولا يكون هناك مدونات فى الحجاز . ونذكر على سبيل المثال المعلقات السبع من الشعر التى علقت على أستار الكعبة ، والتى واجهت كثير من التشكيك . ولكن هناك مثال أقوى وأكثر ثقة . وكانت خلال السنوات الاولى من الاسلام فى مكة ، وهو وثيقة جماعية لغالبية القبائل والبطون المكية وحلفاؤهم ، فكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، الا ينكحوا اليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم(٣) . وسواء كان التعليق داخل جوف الكعبة أو خارجها فهذا دليل على وجود الكتابة فى الحجاز .

ولا يعقل أن تكتب القبائل مثل هذه الصحيفة أو تقوم بهذا العمل من فراغ وانما كانت هناك سوابق لصحف أخرى أو مدونات أخرى كتب عليها الشعر والمعاهدات التجارية وبعض الوصفات الطبية التى كان يستخدمها الحارث بن كلده بعد أن ينقلها من بلاد أخرى .

---

(١) الدينورى : الاخبار الطوال ، ص ٣٣٦ – ٣٣٧

(٢) جب : دراسات فى حضارة الاسلام ، مقال خواطر فى الادب العربى ، ص ٣٩٢ ، ٢٩٧ .

(٣) ابن هشام : السيرة : قسم ٢ ، ص ٣٥٠ .

الخلاصة أن للعرب قبل الاسلام تراثا على شكل مدونات مكتوبة ، وأنها كانت محفوظة فى أماكن غير كثيرة ، بل وبعض منها كان فى الصحراء حيث يحتفظون بها ليرووها حسب لهجاتهم . ولكن رغم قلة هذه المدونات وخاصة ما تدون الأشعار الجاهلية ، فان الغالبية منه ، قد محيت أو مزقت خوفا من الله ، وتنفيذا لتعليمات الرسول التى نهى عن كتابة شىء سوى القرآن .

التراث العربى الاسلامى

أما عن التراث العربى الاسلامى ، فهو التراث الذى يسجل بالعربية ، ويتخذ من الاسلام منهجا ، ويبنى دراساته على التعليمات الاسلامية ، يتأمل فيما جاء فى القرآن ويتبع أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويفكر بما فيه خير للمسلمين خاصة والانسانية عامة ، ويسجلها فى كتب هى التراث المكتوب .

ولقد تعرض تعريف التراث العربى الاسلامى لمناقشات كثيرة ، أثارها أعداؤه بفعل التعصب ، أو ابناؤه المتأثرين بأفكار أعدائه ، أو المهتمين به بهدف فلسفته والوصول به الى نتيجة فلسفية .

وقد عرض أحد الباحثين [1] قضية التعريف بايجاز مبتدأ عرضه بسؤال يشترك فيه جميع من أشرنا اليهم وان اختلفت أغراضهم وأهواؤهم ، وهو : هل التراث عربى أم اسلامى فاذا كان الرد متسرعا بالقول أنه عربى ، فتح ذلك لبعض المناقشين الرد بتحقيق هدفه ، فيستنكرون ذلك ، وحجتهم أنه اشترك فى صنعه هنود وفرس وأتراك وبربر ، حتى الروس عدوا الامام البخارى روسيا . ثم استطردوا فى بناء النظريات المختلفة لهدم قيام العرب بالحضارة وانتاجهم للتراث ، فيقول هؤلاء : أن جميع المشتركين فى صنع حضارتنا من هؤلاء العجم ، بل ادع آخرون أنهم صانعوا الحضارة كلها . فلما واجهناهم بسؤال أكثر حجة ، وهو لماذا لم يصنعوا لأنفسهم حضارة ترفعهم الى مستوى انسانى ؟ قرعتهم الحجة وسكتوا على مضض .

والمقصود بعربى هو عروبة اللغة لا العرق ، فجميع من ذكر شاركوا ودرسوا بالعربية ، ولذلك كتبوا بها ، ولم ينظروا الى جنس أو مذهب ، فالاسلام جب هذا التقسيم ، وقطعه فى جميع الشعوب القديمة التى حررها ، وفى نفس الوقت أشاع

(١) أحمد سعيدان : مقال « التراث العربى ، لماذا نحققه وكيف ؟ » ــ مجلة مجمع اللغة العربية الاردنى ، العدد المزدوج ٢٣ ــ ٢٤ ، السنة السابعة ، سنة ١٩٨٤ .

الاسلام اللغة العربية التى لونت تلك الشعوب بلون فكرى واحد بعد أن اعتنقوا عقيدة واحدة ، هى عقيدة التوحيد ، وصار هذا الفكر منهاجا واحدا مهما تعددت نشاطاته ، ألا وهو الفكر العربى الاسلامى (١) . والذى انبثق منه الحضارة العربية الاسلامية ، والحضارات لا تتميز بتميز اللغات ، لأن اللغة/لم تكن فى يوم من الأيام هوية الفكر ولا العلم ، والا لانتفت عالمية التراث أيا كان وصار اقليميا . واللغة العربية صارت عالمية بعد أن انتشرت فى عالم شتات متعدد اللغــات ، فاندحرت أمامها اللغات الاقليمية فى فارس والشام ومصر والمغرب والاندلس ، واستخدمها المفكرون فى كل هذا العالم بعد أن اعتنقوا الاسلام الذى نزل كتابه المقدس باللغة العربية ، فالذى وضع اللغة فى مكانها العالمى المميز هو الاسلام .

وعرض رأى آخر من آراء التعرض لتعريف التراث العربى الاســلامى أنه تراث اسلامى ، ولكن هذا الرأى تعرض لانتقادات أيضا ، هو أنه هنــاك من غير المسلمين من خدم الفكر الاسلامى فى أوائل عهده وذلك بنقل الكتب الغير عربية الى اللغــة العربية ، ومنهم فيما بعد قاموا بالعكس وذلك بنقــل الفكر العربى الاسلامى الى الفــكر الغربى أو اللغات الأخرى . ولــكن التفكير والرأى بهذا الأسلوب يعتبر قاصر غير علمى أو حيادى حيادية العلم .

ويرى رأى آخر من الآراء المنتقدة أن انتساب الحضارة الى الاسلام يخرج غير المسلمين أن يكون لهم اسهام فيها ، كما أن التسمية العربية تخرج ظاهرا من كتب التراث حال كتب بلغات أخرى غير العربية مثل الفارسية والأردية ، والتركية وغيرها من اللغات التى اعتنق أصحابها الاسلام وكتبوا مؤلفاتهم بلغاتهم .

وعلى ذلك فان التراث العربى الاسلامى هو أكبر التعريفات شمولا وتخصصا شمولا من حيث جماعيته للعربية والاسلام ، وتخصصا لأنه يخص فكر حضارة معينة محدد مقوماتها ومناهج دراستها وتفكيرها . وفى ذلك قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) . « العرب مادة الاسلام » ولعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصاب الأمر فى مبدئه ، وكان تعبيره أدق فى تحديد الحضارة العربية الاسلامية ومن ثم التراث العربى الاسلامى .

---

(١) عبد الســلام هارون : التراث العــربى ص ٧ .

والتراث العربى الاسلامى ينتسب الى العربية لغة وتعبيرا ، فكرا ومكانا جغرافيا ، فى وقت كان العرب وعاداتهم هم العالم المضىء والمشع حضارة ، كما ينتسب الى الاسلام عقيدة وفكر ، مستخدما المنهج الذى وضعه له ، والتعليمات التى جاء بها فى معايشة أهل الكتاب جميعا ، ومفاضلة الأتقياء أيا كان أجناسهم أو مكاناتهم الاجتماعية دون تمايز ، أى من يعيش على العالم الاسلامى الذى يقع تحت راية الاسلام مهما بعدت الشقة أو قربت ، ومهما اختلفت جغرافيا .

نصل بذلك الى أن التراث العربى الاسلامى مفهوما واسعا وتعريفا واضحا ، فهو كل نتاج الحضارة العربية الاسلامية من علم ومن فكر وفن .

وعلى ضوء ما سبق نجد أن التراث العربى الاسلامى يجرى فى أبعاد زمانية : ومكانية ، ولغوية . وهى أبعاد مترابطة أشد الارتباط ان لم تكن ممتزجة (١) .

فمن الناحية الزمنية يضم التراث نتاج القرون التى شهدت النشاط العقلى للأمة العربية الاسلامية من بدأ التسجيل ، سواء من قبيل الهجرة أو من بعدها ، وحتى يصل الى الوقت الذى تنتهى اليه الآراء بتوقف انتاج التراث وهى قضية تستحق الطرح من المختصين ، وان رأى البعض انه حتى القرن العاشر الهجرى ، أو من نهاية العصور الوسطى (٢) .

وعلى الناحيتين اللغوية والمكانية فيمكن أن يشمل التراث كل ما أنتجه سكان الدولة أو العالم الاسلامى فى أقصى اتساع لهم ، وقد كانوا أجناسا ولغات وديانات متعددة . وهنا يمتزج البعد المكانى بالبعد اللغوى فبعض المسلمين ــ كما سبق الاشارة ــ ألف أو كتب بلغات أخرى غير العربية كالفارسية والأردية والتركية ، كما أن بعض النصارى واليهود من القاطنين فى بلاد الدولة الاسلامية كتبوا مؤلفاتهم بالعربية فى علوم مثل : الطب والفلسفة والكيمياء والفلك وغيرها ، وكانت اللغة العربية اللغة العلمية والأدبيــة التى نشرها الباحثون العرب ، لغة التعبير والتدوين والكتابة بصرف النظر عن الأصول العرقية أو الاعتناق الدينى لسكان الدولة الاسلامية ، فكتب بها المسلم والنصرانى ، وكتب بها العربى والفارسى والتركى والهندى وغيرهم . وظل الحال كذلك حتى ظهرت من جديد

(١) عبد الوهاب أبو النور : قضية التراث ، مجلة الدائرة ، العدد ٢ سنة ١٩٨٣ ، ص ١٨١
(٢) د. عماد الدين خليل : موقف ازاء التراث ، ص ٨ .

العصبيات القديمة ، لغوية كانت أم عرقية ، وبدأت تطفو من جديد النزعة الاقليمية بعد أن كان سكان الدولة منصهرين . فظهرت مؤلفات لعلماء مسلمين بلغات أخرى ، وأنتج فى هذه الأقاليم انتاج يعد فرعيا للانتاج باللغة العربية أو مترجما عنها ، وناقلا عن علمائها . لكن يمكننا القول أن الانتاج الفكرى العربى الاسلامى هو التراث الأصيل والأساسى ، والمصدر الرئيسى للجميع ، خاصة فى الموضوعات العربية والاسلامية أما الباقى فانه قليل وناقل ، ويعتبر أحد شعيراته الدموية .

وحسما لهذه القضية أن يكون التراث عربيا اسلاميا ؛ أى التراث العربى الاسلامى ، وان كل من العربى والاسلامى فى هذا التركيب يجب الآخر . وفى هذا وضح مقالة عمر بن الخطاب حين قال : « العرب مادة الاسلام » . وبمعنى أدق فكلاهما صنوان لأن من يريد أن يعرف أسرار التراث ومفهوماته ويتزود بما جاء فيه عليه قراءة اللغة العربية ووعيها والتزود أساسا بقراءة القرآن الكريم ليعرف تعليماته فى أمر المنهج الاسلامى .

ومناقشة هذه القضية جاءت أصلا من حملات المستشرقين العدائية المنظمة فى أى شكل كان ــ سواء جمعيات أو مؤتمرات أو مقالات ، أو أبحاث .. أو ... الخ ــ فهم يهدفون من وراء ذلك انتقاص حق العرب فى التأليف والمشاركة فى رصيد ثروة التراث ، ويستندون بذلك الى أن الذين الفوا تسموا بأسماء بلداتهم .

قضية التراث

ولكن هناك من العلماء المسلمين تصدوا الى هذه المفتريات الاستشراقية ، وعلى سبيل المثال كتب محمد عزة دروزة كتاب « عروبة مصر قبل الاسلام وبعده[1] » . وكتب الدكتور ناجى معروف ــ رحمه الله ــ مجموعة من الكتب عن « عروبة العلماء المنسوبين الى البلدان الأعجمية » وأختص بالجناح الشرقى من الدولة الاسلامية مثل خراسان[2] ، وأيضا آخرين تصدوا لمثل ذلك فى الجناح الغربى (والمغرب الاسلامى) ، وقد حدد الدكتور ناجى فى كتابه :

أولا ــ أن العلماء المنسوبين الى البلاد الأعجمية فى المشرق الاسلامى مثل فارس وخراسان وأذربيجان وما وراء النهر وخوارزم وبلاد الجزيرة ــ كثيرا منهم

(1) الطبعة الثانية ، ١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٣ م ، عن المكتبة العصرية ، بيروت .

(2) المجموعة باسم « عروبة العلماء والمنسوبين الى البلاد العجمية » نشر وزارة الاعلام العراقية / بغداد / وذلك ابتداء من ١٩٧٦ .

يرجعون فى أصولهم الى أنساب عربية صريحة ومنهم من أنجب عددا كبيرا من العلمـــاء والأدباء الذين انتشروا فى أقطـــار المشرق الاســـلامى وبلدانه كالبيت السمعانى ، والدوحة الصاعدية ، وآل الجوينى ، والعلماء البكريين وغيرهم ممن ينتسبون الى المواطن الأعجمية .

ثانيا ــ أن كثيرا من علماء العرب ينحدرون من أصلاب الخلفـــاء والأمراء وغيرهم ممن عاشوا فى المشرق الاسلامى هم وذراريهم ، وانصرفوا الى العلم منذ أيام الخلافة الأموية وشطرا كبيرا من الخلافة العباسية ، وفى عهد الدول الاسلامية التى قامت ونشأت فى المشرق ، ونبغوا فى مختلف أنواع المعرفة بعد أن انقطعوا الى الدرس والتدريس ، والرحلة فى طلب العلم والاستزادة منه واهتموا بمجالس الاملاء والاستملاء فى المساجد ، وكـــذا فى التأليف والتصنيف ، وتثبيت قواعد الشريعة الاسلامية .

ثالثا ــ سيادة العرب فى البلاد المحررة ــ سواء فى المشرق الاســـلامى أو المغرب الاسلامى ــ وخاصة فترة الراشدين والخلافة الأموية وشطرا كبيرا من الخلافة العباسية . وكانت اللغة العربية هى الســـائدة فى سائر نشـــاطات العلم والحياة . ويضاف الى ذلك مجالس العلم فى المساجد وغيرها من دور العلم التى تستخدم اللغة العربية ، فضلا عما ساد البلاد من الخط العربى وما تطور عنه فيما وكانت سيادة العرب ناجمة عن أنهم قاموا بالفتوحات الاسلامية الأولى وما صحبهما وتبعها من هجرات عربية دائمة استمرت حتى العصر الحديث ، هـــذه الهجرات سجلها المؤرخون القدامى من صانعى التراث مثل تقى الدين أبو العباس المقريزى (ت ٨٤٥ هـ) الذى كتب كتابا بعنوان « البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب[١] » . كما شغل أمر الهجرات الباحثين والعلماء المسلمين المحدثين أمثال د. عبد الله خورشيد البرى الذى كتب كتابا باسم « القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاث الأول للهجرة[٢] » .

ويلاحظ الباحث أن كثيرا من المساجد التى شيدت فى المشرق الاســـلامى خاصة فى البلاد المحررة عامة ترجع الى أسماء عربية ، أو أسماء لقبائل العربية ،

---

(١) تحقيق ابراهيم عابدين ، نشر القاهرة ، ١٩٧١ م

(٢) نشر عن طريق دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٧ م .

وهى البلاد التى نشر العرب فيها الاسلام وسكنها . وتحدثوا بالعربية ، بل أن العرب أطلقوا على مواطنهم الجديدة أسماء مواطنهم التى كانوا يسكنونها فى الجزيرة العربية أو أسماء قبائلهم التى ينتمون اليها حتى غدت أسماء القبائل أسماءا لمدن مشهورة .

كل ذلك يثبت أن العرب سادوا فيما حلت قبائلهم فى عدة عصور وأن العربية غدت لغة الدين والسياسة والعلم والتدوين والمراسلات الى جانب كونها لغة التخاطب .

سقطات بعض العلماء

ومن المؤسف أن يقع فى هذه السقطة علماء قدامى ومحدثين مثل ابن خلدون، وحاجى خليفة ، ومن تابعهما . وبنظرة بسيطة الى أسماء هؤلاء العلماء المنسوبين الى البلاد الأعجمية الاسلامية ، يتضح أن جلة حملة العلم فى العصور الاسلامية من العرب لا من العجم ، ولا يعنى ذلك أننا نغمض حق العجم الذين أسلموا وحسن اسلامهم وأضافوا الى العلوم الاسلامية ، خاصة ، والحضارة الانسانية عامة . واننا لننفى تعميم سقطات الباحثين القدامى الذى أخذها المستشرقون من أن جلة حملة العلم كانوا من العجم .

ولكن ما الذى دفع الى أن يتعرض تراثنا العربى الاسلامى للهجمة الشرسة الخبيثة من المستشرقين ؛ سواء الذين يعيشون داخل الأديرة ، أو تقف وراءهم الكنيسة بمذاهبها المختلفة أو غيرهم ممن يتحاملون على العرب ، أو المتأثرين بأفكارهم فى الوطن العربى وغيرهم .

الواقع أن هؤلاء كانوا يخدمون الأهداف التالية :

أولا — عدائهم للدين الاسلامى التى درجت عليه الكنيسة منذ نهايات العصور الوسطى ، هذا العداء كان صراحة من واقع الافتراءات على النصوص التى تتحدث عن الاسلام . ومحاولة مناصرة أحد المذاهب الاسلامية على سائر المذاهب ، أو مناصرة مذاهب الشيعة على مذاهب السنة ، أو محاولة التعظيم فى مذهب أصبح شبه مندثرا كمذهب الخوارج ، وكل ذلك بأمل زرع العداء التعصبى بين المذاهب الاسلامية ورجالاتها ، وكذا ابراز الحركات الهدامة التى ظهرت خلال العصور الاسلامية بصورة ايجابية مطلقين عليها أوصاف من صنعهم أو وضعها تحت المذاهب السياسية الحديثة ، وتطويعها فكر هذه الحركات والمذاهب ليتفق فى أشكالها .

وأحيانا بل وكثيرا يتخذون العداء بشكل مستتر ، تحت وضع شروح مختلفة بزعم الدراســة العلمية التجريبية ، واعطــاء الفروع المتفرعة عن بعض المذاهب الاسلامية أهمية ودراستها أكثر من حقها ، ومن أهميتها ، والعمل على نشرها بأمل تفتيت وحدة العالم الاسلامى وبث النعرة التعصبية به ، بعد أن يكسبوا تلاميذ لهم فى الأقطار العربية ، درسوا على أيديهم ، ويكون هؤلاء التلاميذ مراكز وعمد للفكر الاستشراقى العدائى للاسلام والعرب .

ثانيا — العداء النابع من التاريخ الحديث ، وهو خدمة الاستعمار الذى كان فى فترة مسيطرا على أغلب العالم العربى والاسلامى .

وفى هذا الأمر يحاولون أن يفككوا وحدة العالم الاســلامى عامة والعربى خاصة ، وذلك بتغريب لغة السكان وتحويلها الى مجموعة اللغات اللاتينية بأمل وضع أساس للتفرقة بين وحدة سكان العالم العربى فضلا عن القضاء على الثقافة العربية الاسلامية ، الكبيرة العريقة ، ومن ثم الفكر العربى القائم على الأســاس الدينى والدنيوى .

ولقد اتخذ هؤلاء المستشرقون بعض ما قرأوه فى واحد من أعظم كتب تراثنا العربى ، واستندوا فى آرائهم على ما أورده المؤلف العربى الاسلامى الكبير الذى كتب هذا الكتاب ، هذا المؤلف الذى فرض نفسه على فكر العالم كله — سواء فى العصور الوسطى أو الحديثة — بمؤلفه وآرائه بما فيها من قيمة ثرية أفادت العلم الانسانى ، وخدمت الانسانية كلها ، فضلا عن أنه فى خلال موضوعات هذا الكتاب وضع أسس علوم جديدة استفاد منها العالم الانسانى عامة . فصــارت تقام له المؤتمرات ، ويجرى فى أجزائه بــل وجزئياته الدراسات والأبحــاث ، وأحنى له الغربيون رؤوسهم اعترافا بموسوعته ، الا وهــو العلامة الشــيخ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) (ت ٨٠٨ هـ) ، خاصة مقدمة موسوعته المعنونة باسم « العبر وديوان المبتدأ والخبر » والتى طبعت منها عدة طبعات فى أماكن متعددة ، وترجم منها ما ترجم الى لغات عديدة ، ومازالت الطبعات تخرج بصور وشروح جديدة ومختلفة حتى أصبح لا يخلو منه أى المكتبات العامة ، والخاصة بالمثقفين والدارسين والقارئين ، بل ومن يفتخرون بملكيتهم لأمهات الكتب النفيسة .

ومما يؤسف له أن بعض من العلماء العرب والدارسين نحى نحو ابن خلدون وفات هؤلاء جميعا ما سيتعرض له التراث من الهجمات استنادا الى آرائهم .

يقول ابن خلدون فى مقدمته « ان حملة العلم فى الملة الاسلامية أكثرهم من العجم ، لا من العلوم الشرعية ، ولا من العلوم العقلية ، الا فى القليل النادر وان كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربى » (١) واستطرديستعرض تأكيد نظريته الى أن وصل الى ما هــو أخطر بقوله « فلم يزل ذلك فى الأمصار ما دامت الحضــارة فى العجم وبلادهم من العراق وخراسان ، فلما غربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التى هى سر فى حصول العلم والصنائع ، وذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة ، واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة . ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وايوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع وبقى بعض الحضارة فيما وراء النهر (٢) .

الرد على ابن خلدون

أى أن القضية التى يعرضها ابن خلدون تشمل أكثر من موضوع :

١ ــ اقتصار العلم فى العجم .

٢ ــ اقتصار ذلك على أهل العراق وخراسان وما وراء النهر .

٣ ــ ارجاع الحضارة الى بعض الأقاليم دون سواها وكأنها بمعزل عن نهر الحضارة العربية الاسلامية .

والموضوع كما وضعه ابن خلدون أصبح شاقا ، فضلا عن أن تفنيده والرد عليه أصبح أشق فكلمة العرب هذه ولدت أغرب الالتباسات وانتجت أســوأ النتــائج ، ومــع ذلك فلقــد تصدى له أحــد الباحثين الشامخين من المحدثين وقبل أن يفند الموضوع درسه دراسة مستفيضة وعميقة ، رجع فيها الى مصادر تاريخية أساسية مؤكدة وغير مشكوك فيما أتت فيها من معلومات ، ثم راجع مصادر أخرى مراجعة الواعى لما تحمله ، ثم قرأ الكثير من العبارات التى وردت فى كل هذه المصادر ليعى ما وراءها ويوضحه ويفسره ، ليستند عليها فى رده ، وبعد ذلك خرج علينا ببحث كبير شيق عميق واعى ، رد فيه على قول ابن خلدون ومن شايع قوله من بعده أمثال حاجى خليفة (٣) الذى أورد فى كتابه حــول هذا

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥١٠ .

(٢) العــدد الســابق ، ص ٥١٢ .

(٣) كشف الظنون : جـ ١ ، المقــدمة الخاصة بالكتاب للمصنف .

الأمر العبارة : « وان كان منهم العربى فى نسبه ، فهو أعجمى فى لغته ، دون أن يذكر المربى والمشيخة » أى أن حاجى خليفة أراد أن يؤكد على ما جاء فى كتاب ابن خلدون ، بل ويزيد الأمر صعوبة ، لأنه أضاف عنصرا جديدا الى الموضـــوع الذى أصبح قضية تاريخية من الضرورى دراستها والحكم فيها حكما يستند على المصادر ، ويحفظ للتراث حقه ، وهذا العنصر من شقين :

١ ــ أعجمية لغة العلماء رغم نسبهم العربى .

٢ ــ غموض المربى والمشيخة للعلماء .

وقدم الدكتور ناجى معروف ــ رحمه الله ــ بحثه الذى رد وفند فيه قول ابن خلدون وحاجى خليفة ومن شايعهما بعــدهما ، فى سلسلة من الكتب (١) ، عرض فيها الرد والتفنيد باستفاضة كاملة ، واستعرض أســماء العلماء المسلمين الذين ينتسبون الى مدن مختلفة ــ سواء فى المشرق أو المغرب الاســلامى ــ وأعادهم الى نسبهم العربى رغم أعجمية واقليمية أسماءهم المشهورين بها لنا ، وأثبت بما لا يدع مجالا للشك أن العلم والحضارة من نتاج رواد عرب مسلمين ، وبفكر عربى مسلم ، وأن لغة الحضارة والفكر العربى الذى كون هــذا التراث عربى صريح ، وما كتب بالأعجمية ما هو الا ترجمات نقلت عن أصول عربية ، أو محاولة من العلماء الوصول الى العجم الذين كان منهم من لم يتعــلم أو يهضم العربية بعــد .

وبداية ذى بدء ، فنرد من واقع ما جاء بالبحث على ما جاء بأمر النسب ، فالملاحظ أن العرب هاجروا الى المشرق الاسلامى والمغرب الاســلامى بأسرهم وذراريهم ، ومنهم من تزوج بنساء من أهل هذه البلاد . ولكن هؤلاء العرب عامة والعلماء خاصة كانوا لا يكنون أنفسهم ــ على عادة العرب ــ حتى يولد لهــم مولود ، وبمرور الزمن بعد الاستقرار كانوا يكنون أنفسهم الى بلدان أعجمية ، لأسباب عديدة سنتناولها فيمابعد ، ولكنهم ينحدرون من أصــول عربية . ومن العلماء العرب من استقر فى هذه البلاد ، ومنهم من لم يمكث بها طويلا مثــل أحمد بن حنبل المروزى الشيبانى ، وأبو الفرج الاصبهانى الأموى ببغداد ، وآل المراغى بالحجاز ، وآل الشيرازى الحنابلة بدمشق ، وهذه الحركة الدائبة بين

(١) المرجــع الســابق .

المشرق والقلب والمغرب تدلل على الوحدة الفكرية والثقافية ووحدة اللغة التى تربطها جميعا وحدة الدين .

وبمرور الزمن وبعد انحسار سيادة العرب على كثير من بلدان المشرق تحرفت أسماء القبائل حتى ليظن القارىء أو السامع أنها مسميات أعجميــة ، فاليزيدية وغيرهم من سكان شمالى العراق يرجعون أسرهم ـ حتى اليوم ـ الى ثلاثة أصول عربية هى :

١ ـ أدانى : وهو تعبير عن « عدنانى » أى نسبة الى عدنان جد الرسول صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ شمسانى : وهو تعبير عن « أبناء عبد شمس » وهو جد الأمويين ، وأخو هاشم بن عبد مناف جد الرسول صلى الله عليه وسلم .

٣ ـ قانانى : وهو تعبير عن « قحطانى » أى نسبه الى قحطان جد العرب العاربة وفقا لما جاء فى كتب الانساب .

بالاضافة الى هذه التحريفات ، فان هنــاك كلمات فى النسب تحرفت عن مدلولاتها الأصلية ، وعلى سبيل المثال :

مضرى : وتحرفت هذه الكلمة فى شمال العراق الى « مزورى » .

قيس : وتحرفت هذه الكلمة فى أماكن أخرى من المشرق الاســلامى الى « كيشى » .

ذمار : وتحرف هذا الاسم الى تعبير فى النسب آخر وهو « زمار » .

وضرار : وكذا تحرفت الى كلمة « زرار » .

واستمرت التحريفات على مدى الزمن حتى صارت غريبة فى النسب وتدعوا الى الدهشة ، فكثيرا من الذين ينحدرون من ذرية الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، أكرادا ، أو أتراكا ، أو فرسا ، أو هنودا وما الى ذلك ، وينسون أصولهم الحقيقية فى العرب ، فى أغلب الأحيان (١).

على أن هناك ضوء هام على النسب ، وهذا الضوء الذى ظل عبر العصور الاسلامية ورغم ما مر بها من مؤثرات يحتفظ للنسب العربى الصريح عامة والنسب الشريف خاصة بنقائه ، فضلا عن عبارات اسلامية ، أو كلمات اسلامية فرضت نفسها على القبائل المهاجرة والمهاجر اليها من العرب وغير العرب .

(١) ناجى معروف : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٨٧ ـ ٨٩ .

فقد استعملت كلمة « الشريف » لكل من ينتسب الى قريش (١) من الأمويين والعباسيين والهاشميين ، والى من كان من ذرية على بن أبى طالب من أبناء الحسن والحسين وجعفر الطيار رضى الله عنهم الى من كان من ذرية أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، والى ذرية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعثمان بن عفان رضى الله عنه ، ونجد ذلك فى معظم كتب التراجم .

أما الكلمات التى ظلت مستعملة :

سيدى المولى : فى شمال افريقيا تعنى رئيس الجماعة .

الرسول : تعنى فى شرق أفريقيا المنتسب الى الرسول .

مير : ويقصد بها أمير فى بلاد الترك والفرس .

كما أن النقابات التى عرفت فى البيوتات العربية الكبيرة فى البلاد الاسلامية تكفى للدلالة على أن النقباء وذواتهم هم من العرب ، وقد كانت فى بلاد المشرق وفى الشام نقابات للطالبين وللبكريين ، وللعباسيين وغيرهم .

بل اننا نجد فى أنساب بعض العلماء أسماء عربية صرفة ، هى أصلا من أرض الجزيرة العربية ، ومن تسميات العرب أنفسهم ، وكان بعضها متداولا فى العصر الجاهلى مثل حوثرة ومجزأه ، ومجاشع ، وصخر ، ومرداس ، وعتبة ، وخزيمة ، وهذا يدلل على عروبة نسبهم وتمسكهم بها .

ومن فحص عبارات المصادر التاريخية وغيرها ، أى كتب التراث بصفة عامة ، وخاصة الكتب التى تعرضت للانساب من خلال الطبقات ، أو كتبت فى الانساب مباشرة مثل كتب : أبو سعد السمعانى ، وخليفة بن خياط ، والخطيب البغدادى ، وابن حجر العسقلانى ، وابن خلكان ، وابن الأثير ، وأبو الفدا ، وحمزة السهمى وغيرهم نجد دوما فى ترجمة الشخص ونسبه لفظ «الشريف » أو اذا لم يكن من العرب مثلا يتبع الترجمة « مولاهم » أو « مولى فلان » أو « مولى بنى فلان » وهذا معناه عربيا بالولاء ، واذا كان فارسيا يشيرون بل يذكرون ذلك صراحة (٢) ، واذا كان سبيا ووقع عليه الشراء والعتق قالوا : من سبى سمرقند

---

(١) التحبير فى المعجم الكبير . ترجمات ١١٠ ، ٣٧٨ ، ٧٢٣ .
ـ المنذرى : التكملة لوفيات العمله ، ج٤ ، ص ١٦٣ .
(٢) البغدادى : تاريخ بغداد ج ٨ ، ص ١٦٨ .

مثلا وقع لفلانة أو فلان ،ثم اشتراه فلان فأعتقه (١) .

وهذه المسميات كانت وفقا لما كان بين العرب فى صدر الاسلام ، والعصر الجاهلى . فمن صدر الاسلام كان ولاء زيد بن الحارث الكلبى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم « فذكر مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وكذا عمار بن ياسر من « موالى بنى مخزوم » وكان بشر بن وادع من بنى خليفة ، وابنه صالح ابن بشر مملوكا لامرأة من « مرة » ولاؤه لها . وكان سلم الخاسر عربيا من حمير صليبة ، سبى فى الردة هو وابنه عمه محمد بن عمرو فاعتقهم أبو بكر رضى الله عنه ، فهم مواليه . وكان ولاءهم له أحب عليهم من نسبهم فى حمير .

وعلى ضوء ذلك استندت كتب الطبقات ، فجاءت عباراتها فى النسب قياسا على نسب أو ، ولاء ، أو رق معتق أو غيره . وباستعراض العلماء التى وردت بها نجد أمثلة عديدة . فمثلا نجد البغدادى يكثر بعد ذكر النسبة الى القبيلة من قوله «من أنفسهم» : « العجلى من أنفسهم » أو «الوادعى من أنفسهم» و « أبوالحكم الليثى من أنفسهم » أى من بنى عجل ، ومن « وادعة » ، ومن « بنى الليث » . صليبة لاولاء دون الشك (٢) .

ويشير حمزة السهمى فى « تاريخ جرجان » دوما الى « الولاء » . كما يذكر النيسابورى دوما فى كتابه « تاريخ نيسابور » ، وأبو سعد السمعانى فى كتابه « التحبير » ، وياقوت فى « معجم البلدان » ، جميعهم ينصون صراحة على كلمة « مولى » أو « مولاهم » أو « مولى فلان » .

بل ان كتب طبقات المذاهب أيضا لم تتخل عن هذا الأمر ، فينص عبد القادر القرشى فى كتابه « الجواهــر المضية فى طبقات الحنفية » الى هــذا النسب أو الولاء .

وهؤلاء المصادر جميعا كانت تضع تراجم لعلمــاء عرب ، يكتبون بالعربية ويفكرون بفكر الاسلام ، ويجمعهم هدف واحد هو خدمة الاسلام باللغة التى نزل

---

(١) المصــدر الســـابق ، جـ ٩ ، ص ٤٣٥ .

(٢) المصــدر الســـابق ، جـ ٤ ، ص ٣٢ ، (نموذج رقم ٢ « تأمين ومعاشات ــ موظفين »)

بها القرآن وهى اللغة العربية ، والعلماء التى وردت تراجمهم أغلبهم ان لم يكن جلهم أيضا من العرب .

ولا يقتصر الأمر على كلمات النسب ، بل تأكد ذلك أيضا من خلال بعض الصيغ العربية . وردت فى كتب النسب أيضا لعلماء عرب مثلا :

(أ) ابن رزقوية ، (٣٢٥ — ٤١٢ هـ) ، له نسبا فى همدانى ، أى القبيلة العربية المشهورة فى اليمن .

(ب) ابن علوية ، محمد بن بكن بن محمد بن مسعود بن علوية أبو النضر القرشى .

(جـ) ابن شبويه الخزاعى .

(د) فضلويه : الفضل بن اسحق الهاشمى ، وابن فضلوية المركى النيسابورى .

(هـ) ابن فتحوية القرشى .

(و) كوهر ناز بنت مضر بن الياس التميمى البالكى . سمع منها عبد الرحيم السمعانى بهراة .

على أن هناك ردا على حاجى خليفة فى ادعائه السابق الاشارة اليه ، وهو أن بعض العلماء العرب كانوا أكثر اهتماما بذكر نسبهم ومشيختهم رغم أنهم كانوا يتيمون أيضا فى بلاد أعجمية وعلى سبيل المثال :

١ — فالقاضى أبى الفتح الهروى وضع نسبه العربى الصريح فى الاجازة التى منحها لأبى سعد السمعانى الذى ذكر أن القاضى دون نسبه فى الاجازة بنفسه ، فذكر النسب كما يلى :

القاضى أبو الفتح نصر بن سيار بن صاعد بن سيار بن يحيى بن محمد بن ادريس بن خلف بن حبيب بن رافع بن ليث بن نصر بن سيار بن رافع بن ربيعة بن جدير بن عامر بن هلال بن عوف بن جندع بن ليث بن بكر بن مناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الكنانى الهروى .

٢ — وكذا فى اجازة شهاب الاسلام والمسلمين الكرمانى الرارى الأنصارى كتب المجاز على ظهر الاجازة ما يلى :

« من عناية الله تعالى أن يسر لى الاستسعاد بادراك ملازمة سامى مجلس مولانا وشيخنا الامام حجة الله على بن الانام ، شيخ شيوخ الاسلام المختص بفتوحات الملك العلام ... شهاب الاسلام والمسلمين الكرمانى التميمى الدارى الانصارى ، قرأت عليه كتاب « عوارف المعارف » . كتاب يتلألأ بين الكتب كالقمر بين الشهب من مصنفات .. شهاب الملة أبى حفص عمر بن محمد السهروردى قدس الله روحه ونور ضريحه قراءة مقرونة بتحقيق معانيه ، وتصحيح ألفاظه فى احدى وأربعين مجلسا كما رقم بخطه الشريف واسمه الميمون نسخة قراءتى هذه ، نفعنى الله بها ورزقنى العمل بما فيها مجلسا مجلسا فاستجزت من جانبه . رواية هـذا الكتاب من مقروءاته ومسموعاته واستجازاته من كل ما يصح فيه طريق الرواية .. وحرره العبد الضعيف اسحق بن على المشتهر « بنظام كوهلوى » (كوليلوى ؟ . . فى الرابع من ذى الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة » (١) .

يضاف الى ذلك كله . أن كلمة العرب فى مقدمة ابن خلدون قد استخدمها فى نحو ٣٣٠ موضعا ، فى حين أنه لم يستعمل كلمة الاعراب — والاعراب بمعنى البدو — الا فى بضعة مواضع ولكن كلها أو معظمها « العرب » كانت تستخدم عند دراسة الحياة البدوية . وهذا دليل واضح أن ابن خلدون لم يعمل بقاعدة علماء اللغة فى وجوب تسمية — البدو بالاعراب ، لا بالعرب .

ومدلول كلمة العرب تطور تطورا كبيرا خلال أدوار التاريخ ، كما يلى :

أولا : كان مدلول كلمة العرب تختص بالبدو وحدهم .

ثانيا : صار يشمل المدلول من يسكن المدن والأمصار ، من غير أن يقطع صلته بالبادية .

ثالثا : تحول الى سكنة الأمصار ، يقطع صلاتهم بالبادية .

هذا فضلا عن أن ابن خلدون اسـتخدم العرب اللفظ فى الفصـول التى تناقش أمور البدو كلها . ولعله استعمل مدلول العرب الحقيقى وميز بينه وبين البدو فيما قاله « كان العرب لعهد الخلفاء الأولين من بنى أمية ، انما يسكنون

---

(١) ناجى معروف :المرجع السابق ، ص ٨٥ — ٨٦ .

بيوتهم التى كانت لهم خياما من الوبر والصوف . ولم تزل العرب لذلك العهد بادين الا الأقل منهم ، فكانت أسفارهم لغزواتهم بطعونهم وسائر حللهم وأحيائهم من الأهل والولد » .

وفى مثال آخر « أعلم أن عرف التخاطب فى الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القمة ، ولا بلغة أهل الجيل ، بل هى لغة قائمة بنفسها » .
على أن هناك ملاحظة هامة يجب أن نتنبه اليها وهى أن ابن خلدون نفسه كان من العرب أى العرب المتحضرين سواء منذ ولادته أو رجوعا الى نسبه فهو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى ، والمعروف عن الحضارمة من قديم الزمان أنهم من الشعوب التجاربة الحضارية ذو رحلات متعددة فى سائر العالم المعاصر وداخل الجزيرة العربية . هذه واحدة ..

أما الثانية التى تؤكد أن ابن خلدون لم يقصد العرب الحضاريين ، لنه عاصر زمانه وقريبا منه علماء عرب لهم جهدا كبير فى الحضارة العلمية كالحساب والطب والهندسة وغيرها فضلا عن دراساتهم الاسلامية الواسعة المستنيرة منهم :

نصير الدين الطوسى (ت ٦٧٢ هـ) ، وعلاء الدين أبو الحسن على بن الحزم القرشى الملقب بابن النفيس (ت ٦٨٦ هـ) وغياث الدين بن مسعود بن محمد الكاشى (ت ٨٣٩ هـ) . وأبو الحسن علاء الدين على بن ابراهيم بن محمد الأنصارى المعروف بابن الشاطر (ت ٧٧٧ هـ) . وغيرهم ممن عاصروه واحتكوا به وناقشوه ودرسوا معه لأن كثير منهم من أهل المغرب والأندلس .

أما الثالثة فمن المحتمل أن هناك خطاطا أى نساخا من البربر حرف اللفظ من كلمة عرب الى الأعراب . وهذه النسخة قد تكون موضع تغيير الآن .

بل ان الأستاذ ناجى معروف أنكر ذكر عن قول ابن خلدون فى كتابه السابق لرأى جهل علماء العرب وسيادة العجم عليهم . وعجميتهم فهو يقول :
وأن رأى ابن خلدون ــ ان صحت نسبته اليه ــ هو السبب فى رفع الحملة الظالمة التى رفع لواءها الأعاجم والشعوبيون[1] . واننا نستبعد ذلك على ابن خلدون المؤرخ العالم المسلم لأن حركة الشعوبية أسبق فى زمنها من الرأى المذكور :

---

(١) ناجى معروف : المرجع السابق ، ص ٣٩ .

وبعد هذا . واستكمالا لتفنيد قول ابن خلدون ، وحاجي خليفة ومن شايعهما من بعدهما ، وتفنيد أقوالهما بكلماتها نستطيع القول أنه بالبحث والتحرى والاستقصاء الوصول الى أن العلماء المسلمين فى المشرق والمغرب العربى لا تنطبق عليهم أوصاف قول ابن خلدون . وقول حاجى خليفة ، بل ان العلماء العرب توارثوا العلم ، وأخذ عنهم تلاميذهم العرب العلوم ، وقد بلغوا من الكثرة بحيث من العسير حصرهم واحصاؤهم . فاذا أضفنا اليهم العلماء العرب بالولاء ، زاد الأمر صعوبة فى الحصر والاحصاء . وكلا الطرفين كانت العربية لغتهم الأصلية الذين الفوا بها ، وأجازوا لطلبتهم دراساتهم بها أيضا .

فصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتابعيهم يعتبرون من حملة العلم لأن كثيرا منهم كان من القراء ، ونقلة الحديث ، حفظوا الحديث وصانوه وأوصلوه الى تابعيهم ، وجميعهم كانوا عربا فى لغتهم وكتاباتهم ، وكان عدد الصحابة فقط ١١٤ ألف (مائة وأربعة عشر ألف صحابى) تقريبا . وتلقف منهم الأمانة العلمية والتأليف فى التفسير والتراث وغيره العرب فى عصر الدولة الأموية .

واذا كانت الرئاسة قد ضاعت منهم شطرا من العصر العباسى الأول ، والعصر العباسى الثانى ، فقد كان الخلفاء العباسيون أنفسهم علماء وأدباء ، وانصرف العرب الى العلم ــ الذين أشعلوا نوره ــ وكذا التجارة والحرف المختلفة[1] .

واذا كان هذا شأن المشرق ، فلا يختلف عنه المغرب ، حيث شجع الأمراء الأمويين والخلفاء منهم فيما بعد العلم والعلماء بصورة كبيرة . ورغم أنهم شغلوا بالدفاع عن أرض الاسلام والحضارة العربية ، واستقرار الدولة ، الا أنهم ــ بعد الاستقرار ــ اشتغلوا بالعمل على ازدهار فكرى كبير وخاصة فى القرن الرابع الهجرى . فعنى عبد الرحمن الناصر بحماية العلوم والفنون والآداب ، وشجع الأندلسيين على دراسة الرياضيات والفلك والحديث بجانب العلوم الدينية ، وتكونت فى مكتبة القصر (قصر الخلافة) مكتبة كبرى كانت تعد خير دليل على المنزلة العظيمة التى بلغتها الثقافة والعلم فى الأندلس . وزاد هذا الأمر فى عصر ابنه الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠/٣٦٦ هـ) ، حيث بلغ العلم قدرا غير

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥١ ـ ٥٢ .

يسير من الرقى والازدهار لم تبلغه فى أى وقت مضى ، وعكف الخليفة نفسه على الكتب يقرأها بنهم وشغف ، ويعلق عليها بتدبر وكان محبا للعلوم مكرما لأهلها ، جماعة للكتب فى أنواعها وجمع مالم يجمعه أحد من الخلفاء والملوك من قبله(١) ، حتى صار فى طليعة العلماء . ولعلنا نلمس ذلك فيما بذله من الجهد والمال والوقت فى جمع أربعمائةألف كتاب فى مكتبته فى قرطبة. بلغ عددالفهارس التى حوت تسمية الكتب أربعة وأربعون فهرسة فى كل فهرسة عشرين ورقة ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين فأقام للعلماء والعلم سلطان نفقت فيها بضائعه من كل قطر ، ووفد عليه أبو على القالى صاحب الأمالى من بغداذ ، فأحسن اليه فاستفاد أهل الأندلس منه(٢) .

بل ان حكم ملوك الطوائف فى الأندلس نشر العلم فى سائر البلاد ، حيث استولى هؤلاء الملوك على بعض كتب مكتبة القصر ، ثم تنافسوا بعد ذلك على تشجيع العلم والفن ، وجمع الكتب وفتح المدارس . وكانوا على سنة أمرائهم وخلفائهم السابقين الذين كانوا يسيرون رجالا من التجار والسماسرة بالمال لشراء الكتب حتى جلب الى الأندلس مالم يعهده علمائها وأهلها . واشترى الحكم كتاب الأغانى من الأصبهانى أحد أحفاد بنى أمية بألف دينار ذهب ، والكتب أوفت حاجة ملوك الطوائف جميعا(٣) .

والأمراء والخلفاء وملوك الطوائف ممن شجعوا العلم العربى هم من أصول عربية ، وأغلب الذين ألفوا فى العلم والفن فى هذه النهضة من العرب أيضا ، بل ان الذين اقتنوا الكتب كانوا من العرب ، فضلا عن ذلك فان المؤلفات التى كانت تضمها مكتبة القصر . واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لاقليم من قبله ولا من بعده . ومن المؤسف أن نهبها البربر .

ومن الأمر المؤسف أن يرجع ابن خلدون وحاجى خليفة كل علماء الأصول الى الأعاجم وفات عليهما أن الامام الشافعى المطلبى عربى هاشمى ، وهو أول من

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ٢ ، ص ١٤٦ .
(٢) المصدر السابق والصفحة
(٣) المصدر السابق والصفحة .

أصل أصول الفقه ، بل وقد انعقــدت الامامة فى الفقه لأربعــة من الأئمة هم : الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى ، والامام أحمد بن حنبل الشيبانى ، والامام مالك بن أنس الأصبحى امام دار الهجرة . والامام محمــد بن أدريس الشافعى المطلبى . والثلاثة الأخيرون من العرب الخلص ، والأول عربى الأصل فى عدة روايات ، وفى رواية أنه من أهل العراق الساميين من نسل ابراهيم الخليل، وبذلك يكون عربى أيضا .

ومما لا شك فيه أن الانتساب الى المدن الأعجمية هو الذى طمس على كثير من عروبة العلماء ، وصار الناس يتوهمون أو يظنون أن العلماء العرب المنسوبين الى المدن الأعجمية انما هم من الأعاجم ، فصاروا يعدون الفخر الرازى ، والمرغينانى، والفيروز أبادى من العجم من بلاد الرى ، ومرغينان ، وكذا وفيروز أباد بينما هم عرب خلص من سلالة أبى بكر الصديق. وعد الوظواظ وهو رشيدالدين بن مردويه البلخى ، وأبو الفتــوح المروزى النيســابورى ، وأبو بكر الهروى ، والرضى الصاغانى من العجم والواقع أنهم عرب خلص من ذرية عمر بن الخطاب .

وعدوا عثمان المحمى النيسابورى ، والديباج الحرانى ، وأبا بكر المراغى ، والشيخ خالد النقشبندى من العجم ، بينمــا هم من العرب الصرحاء من ذرية عثمان بن عفان .

وعدوا ابن طباطبا الاصبهانى ، وأبا محمــد الصوفى الاســتراباذى ، وأبا العباس الفرغانى ، وأبا البركات الملقباذى من العجم وهم من العرب الصــحراء أيضا من ذرية على بن أبى طالب .

واعتبروا الحارث بن سريج الخراسانى ، وأبا فروة الرهاوى ، وابراهيم بن أدهم البلخى من العجم وهم من بنى تميم .

كما اعتبروا أبا أيوب المراغى ، وابن شاذان النيسابورى ، وابن زنجاويه النسائى من العجم بينما هم من الأزد .

وعدوا أيضا أبا حفص البلخى ، والخليل بن عمرو البغوى ، وحبيش الطوسى من العجم وهم من قبيل ثقيف التى خرجت من الطائف .

ومثل ذلك يقال عن ألوف من أعلام العرب الذين ينتسبون الى البلدان الأعجمية وهم من العرب من مختلف قبائلهم(١) .

عروبة المربى والمشيخة

أما عن المربى فهى البيئة التى وجد فيها هؤلاء العلماء كالمشرق الاسلامى وكذا المغرب الاسلامى ، وظل هذين الجناحين بيئة عربية طوال العصور الاسلامية، بل حتى بعد سقوط الدولة العباسية (٦٥٦ هـ) ، وخروج العرب من الأندلس سنة ٨٨٩ هـ . ولم يحول العرب فى الأندلس ولم يغير البيئة الا بعد الهجمة الشرسة النصرانية فى الغرب التى أجبرت من استقر وبقى فى الأندلس على التنصر . أما المشرق فلا تزال الدماء العربية يشار اليها بالتقديس والاحترام . ولا يزال حتى عصرنا هذا يعتز قسم كبير من العرب الفرس ، والعرب الترك ، والعرب الهنود ، والعرب الأفغان ، والعرب الأكراد وغيرهم يعتزون بنسبهم العربى ويفاخرون به ، ولا يزال كثير منهم يتكلمون العربية ويتقنونها ويؤلفون بها . بل أن بعض القبائل ذات الأصل الأوربى ، ترفض الانتساب الى أصولها وتصمم على الانتساب الى العرب ، ومن هؤلاء القبائل الرومية الأصل التى عرفت بـ « الحمراء » وقد اشتركت فى فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص ومنها « بنو ينه » و « بنو الأزرق » و « بنو رسل » وكان حامل لوائهم جميعا « ابن ينه » الذى كانت تنسب اليه سقيفة بالفسطاط . وقد ذكر ابن دقماق فى كتابه (واسطة الانتصار) أن تلك الجماعات أسلمت من قبل « اليرموك » . وسميت الخطط التى أقاموا بها فى الفسطاط « الحمراوات الثلاث » وكانت تمتد بين جامع عمرو وجبل يشكر، وكانت خطتان منهما وهما : « الحمراء العليا » و « الحمراء الوسطى » تقعان داخل حدود المدينة أما الثالثة وهى « الحمراء الدنيا » فكانت تقع وراء حدودها من الشمال . وذكر ابن عبد الحكم فى كتابه (فتوح مصر والمغرب وأخبارها) أن عمرو بن العاص ، قدم بأولئك الروم من الشام . ولا شك أن مصيرهم كان كمصير غيرهم من أبناء القبائل الأخرى التى اشتركت فى الفتح ، اذ تخلوا مع الأيام عن نظمهم القبلية ، وتقاليدهم البدوية ، وتحضروا ، وتحولت البيئة الى عربية ، وصار المربى عربيا كله . أى أن العرب بما نزلوا به من لغة ، وفيما استقروا فيه من أماكن صارت مربى عربيا لكل العرب ، والفكر العربى .

(١) الانساب ، جـ ٥ ، ص ١٨٠ .

والمربى تكون من :

(أ) القبائل العربية التى شاركت فى تحرير وفتح هذه البلاد واستوطنت فيها خلال العصور .

(ب) ان الدولة العربية والاسلامية التى نشأت فى الأقطار شجعت العربية والآداب العربية والعلوم العربية . بل واشتد التنافس فيما بينها على احتضان العلماء والأدباء والشعراء ، وعنيت بنتاجهم العربى حتى كان يقال على خراسان : انها بلاد العرب[1] .

وينتهى الأمر الى أنه اذا كان هناك بعض من العلماء من العجم فقد كان عجميتهم نسبا بحكم بلادهم ومولدهم فقط ولكنهم عرب مسلمون تعلموا على أيدى العرب الصرحاء نسبا والمستقرين فى هذه البلاد .

* * *

والنقطة الأخيرة التى أثارها ابن خلدون وشايعه حاجى خليفة هى « عروبة المشيخة » وهذا أمر لا يحتاج الى دليل كبير ، لأن المشايخ كانوا أصلا أما العرب الخلص الذين ينتسبون الى المدن الأعجمية أو الى المواطن العربية ، أو المهاجرين والأنصار ، أو القبائل العربية المختلفة ، أو من غير العرب الذين كانوا يحذقون العربية ويتخاطبون بها ، ويعتزون بها لأنها لغة القرآن والعلم والسياسة والحياة . وقد سبق الاشارة الى أمثلة عديدة حول هذه الأمور سواء فى اجازة التدريس ، أو فى بعض العلماء العرب الذين ينتسبون الى بلاد أعجمية ، وكانوا أيضا شيوخا لتلاميذهم ، بعد أن كانوا تلاميذ لشيوخهم من علماء العرب الصرحاء .

وابن خلدون يناقض نفسه فى المقدمة فى هذه النقطة فيقول « فكان صاحب النحو سيبويه والفارسى من بعده والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم فى أنسابهم وانما ربوا فى اللسان العربى فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفقا لمن بعدهم .

ان هؤلاء العلماء فى نسبتهم كانوا عربا فى لغتهم ، بدليل أن جميع مؤلفاتهم وضعوها باللغة العربية كما جاء فى تراجمهم التى حوتها كتب الطبقات والانساب ،

(1) الانساب ، جـ ٥ ، ص ١٨٠ .

وندر فيهم من ألف بغير العربية ، وقد طبع كثير من آثارهم العربية ، وما يزال أكثرها مخطوطا ، علاوة على ما فقد لمختلف الأسباب ، والعلمـاء الذين ينسبون الى العجم كانوا عربا فى لغتهم ، وتركوا لنا آثارهم من المؤلفات باللغة العربية ، ودليل ذلك نجده فى الألوف المؤلفة من المصنفات التى يحتويها كتاب « الفهرست» لابن النديم ، وكتاب « التحبير فى المعجم الكبير » لأبى سعد السمعانى ، بل فى كتاب « كشف الظنون » لحاجى خليفه نفسه . بل ان فهارس العالم حاليا التى تسجل المخطوطات تؤكد ذلك. ومن الغريب أن حاجى خليفة التركى نفسه سجل كتابه العظيم « كشف الظنون » باللغة العربية ، وما جاء بمؤلفه كله كانت مؤلفات عربية أو مكتوبة بالعربية ، ولم يذكر الا القليل جدا من المؤلفات باللغة التركية ، أو اللغة الفارسية ، واذا ذكرها يتبعها بقوله تركى أو فارسى فكيف يناقض نفسه بقوله « واذا كان العربى فى نسبه فهو أعجمى فى لغته » بل ان بعضا ان لم يكن كثيرا من الكتب كانت بالعربية أساسا وابتداءا ثم ترجمت الى الفارسية كما ذكر حاجى خليفة نفسه فى كل من الصفحات ٣٦ ، ٩٠ ، أو الى التركية كما ورد فى صفحات ٢٢٤ ، ٢٤٦ .

وسنورد مثلا على كتب عربية من مشيخة عربية ، وتلاميذ عجم وعرب فى علم التاريخ ، فقد بلغ عددها فى عهد حاجى خليفة (ت ١٠٦٧) حوالى ١٣٠٠ كتاب .

ونختتم كلامنا ودراساتنا فى هذا الأمر ، أو هذه القضية بسؤال استنكارى وهو . كيف يكون العربى أعجميا أو مستعجما اذا كان أصله عربيا ، وعلمه القرآن والدراسات الدينية الاسلامية والقرآن نزل عربيا ، والدراسات الاسلامية ابتداءا وما زالت ، تقوم بدراساتها باللغة العربية ، هذا فضلا عن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كتبت بخط عربى أيضا ؟ ولماذا لا يكون الأعجمى حينئذ عربيا فى لغته ولسانه وكذا عربى المشيخة والبيئة والمربى والعلم والثقافة مثل سيبويه ، والزجاج ، وابن سينا ، وأبى بكر الرازى ؟ ومن أحق بالعروبة من هؤلاء وأمثالهم ؟ وعلى أى الأسس بنو علومهم ، أليس على العلم العربى سواء قبل الاسلام أو بعده . ومن المدهش أن ابن خلدون يرى رابطة اللغة ، والسمات والشعائر أساسى العروبة .

* * *

وأخيرا يمكننا القـــول أن ابن خلدون كان يرى أن حملة العلم جميعـــا فى الحضارة الاسلامية انتاجهم صب فى اللغة العربية(١) .

مكانة الدراسات الحديثة

على أن هناك موضوع آخر يثار عند تحديد التراث العربى الاســـلامى وتعريفه بأبعاده الثلاث الزمانية والمكانية واللغوية وهو موضـــوع « الدراسات الحديثة » التى تتناول الموضوعات القديمة الواردة فى ذخيرة التراث ، ســـواء كانت هذه الدراسات عربية أم أجنبية (انجليزية ، فرنسية ، اسبانية ، المـــانية .. الخ ..) ، وهل يمكن أن تلحق بالتراث ؟ (٢) .

والرد على ذلك واسع ومتنوع ، ويمكن أن نعرض بعضـــه فيما يلى من نقاط :

الأولى ــ أن هذه الأبحاث ، مهما بلغت ما بلغ ، لم تكن موروثة لنا ، وانما محل تحقيق ودراسة هادفة لمن قام بها . وهى تعود على الباحث بفائدة شخصية قبل خدمة التراث ، بمعنى أنها ليست خدمة للتراث بقدر ما تكون خدمة شخصية فضلا عن ذلك أن كثير منها لا يتخذ منهج التراث منهجا للدراسة التى قام بها .

الثانية ــ وان كانت انتماءات الدارسين ، ومن ثم الدراســـات مكانا الى الوطن العربى والعالم الاســـلامى عامة ، أو بلاد اســـلامية كانت عربية الا أنها لا تدخل زمانا فى فترات أو زمن التراث ، والذى ينتهى ــ فى رأى البعض ــ عند العصر الحديث تقريبا ، ونحن نلح فى دراسة وطرح قضية نهاية فترة التراث ، وان كنا نتفق مع الرأى الذى يعتبر النهاية عند العصر الحديث حيث كانت هناك بعض الدراسات القليلة فى عصر الدولة الاسلامية التى جرى الأمر على اطلاق « الدولة العثمانية » عليها .

الثالثة ــ هناك دراسات فى التراث أعدها أجانب من جنسيات أوربية مختلفة شرقية كانت أم غربيـــة ، لا تدخل فى التراث زمانا ومكانا ولا لغـــة ، أى أنها لا تنتسب الى أى الأبعاد الثلاث ، لذا انتفى عنها التراث كلية . بل ان كثير من هذه الدراسات تخدم أهداف هدامة ومنحرفة كما سنعرض فيما بعد . ورغم أن

---

(١) عبد العزيز الدورى : ابن خلدون والعرب، مقال فى أعمال مهرجان ابن خلدون : ص ٥١٤ هـ

(٢) د. عبد الوهاب ابو النور : مقال « قضية التراث » المرجع السابق .

الذى سبق وأثار القضية ، ورفض ادراجهـا فى التراث عاد فيما بعـد بنفسه ، وناقض رأيه وذلك باضافتها الى التعريف (١) .

والواقع أن التراث نصوص كتبها مفكرون فى زمن معين ، ونهجوا منهجا معينا ، وكانوا يستظلون تحت مظلة معينة ، كما كتبوه بلغة محددة . وأن الأعمال الحديثة التى كتبها مسلمون ومستشرقون لا تكمل التراث وانما تحقق بعضـه وتبحث فى الآخر ، ولا يمكننا اطلاقا أن نرى أنهما امتدادا ، وانما عطشا وحاجة لما يحتويه من موضوعات ما زالت فى حاجة الى دراسة ،وباعتبارها مرجعا للباحثين حين يستشكل عليهم أمرا فى علوم العصر الحديث . واذا كان هناك من يحقق من كتبه ومخطوطاته ، ويلحق صفحات للتفسير اللغوى والعلمى بما حققه ، فليس معنى ذلك أن هذا البحث امتدادا للتراث ، ولا اكمالا له .

والمعروف لنا جميعا أن نصوص التراث المسجلة يجب أن تتوخى فى تحقيقها وعرضها ، الأمانة الدينية والأمانة العلمية ، والأمانة القومية ، ونحافظ عليهـا ولا نحرف فيها سواء عن وعى أو عن غير قصد ، ونعمل ـ بكل جهد ممكن ـ كل ما يقوم على خدمتها ، بأى شكل من الأشكال ، والا اعترفنا بقصـورنا ، وأسأنا الى التراث فى انقاصه أو تحريفه . ولنا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديثه أسوة حسنة . فحينما خاف الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختلط النص القرآنى المنزل ، بأحاديثه وتعليماته التى يسجلها الصحابة والكتاب ، وذلك بمرور الزمن أمور وأحاديث مع القرآن ، نهى صراحة كتابة شىء سوى القرآن ، عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم (لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غـير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى فـلاح ومن كذب على متعمـدا فليتبوأ مقعـده على النار) (٢) .

وقد يلتبس على هؤلاء الذين يقومون بدراسة وتحقيق التراث اكمال بعض العبارات ، ويعطى نفسه حرية التصرف فيما بعد ، فيكون نصيب الأصل أخطاء لغوية ، واضافات من كتب أخرى وخلط للمعانى . وقد أورد أحد المتخصصين

---

(١) د. عبد الوهاب أبو النور : مقال « مقترحات لجمع وخدمة التراث » .

(٢) حديث نبوى .

ما سبق أن حدث فى مثل هذا ، فيقول (كذلك يفعل الأقدمون ، ينقلون نصوصا أحيانا ، وتكون لهم الحرية التامة فى التصرف وترجمتها بلغتهم أيضا ، الا اذا حققوا النقل ونصوا على أن هذا هو لفظ المنقول ، فيقولون « انتهى بنصه » فتكون مسئوليتهم فى ذلك خطيرة ؛ اذ حملوا أنفسهم أمانة النقل) .

وحكم على نشر مثل هذه النصوص ، والدعوى أنها محققة ؛ يعد خطأ جسيما فى فن تحقيق وفى ضمير التاريخ . بل ووصف أمثال هذه المخطوطات بالابقاء الأدعياء منها ما فعله ابن أبى الحديد فى شرحه منهج البلاغة ، حيث ضمنه كتبا أخرى أو أجزاء كبيرة منها ، وكذا ما أورده البغدادى صاحب خزانة الأدب من صغار الكتب الذى يمكن الاستعانة به فى التحقيق ، ولا يصلح أن يكون كتابا محققا (١) .

ولقد أدرك أحد المستشرقين أهمية النص ، وما يمكن آن يذهب اليه البعض تشويه ، فعرفه المستشرق دوزى فى كتابه :

Supplement aux Dictionnaire arabes

بما تعارفت عليه المعاجم الحديثة المختلطة ، حيث ذكر « النصوص : هى أقوال المؤلف الأصلية تذكر بهذا اللفظ لتمييزها من الشرح والتفسير والايضاح ») .

ولذلك يمكن اطلاق لفظ « خدمات النصوص » أو « دراسات نصوص ولكن ابتعد نهائيا « مكملات النصوص » .

فمن المتفق تحديد ما عنى به الباحث للتراث بما يلى (٢) :

١ ــ التراث العلمى فقط ، ويقصد بالعلمى المعنى الواسع بما يضم كل

---

(١) عبد السلام هارون : تحقيق النصوص ونشرها ــ الطبعة الرابعة ، ص سنة ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٨ م ــ القاهرة .

(٢) عبد الوهاب ابو النور : مقال « مقترحات فى خدمة التراث » المرجع السابق ص ١٩٨ .

ما دون فى المخطوطات العربية ، وبهذا يخرج منه الجوانب الأخرى للتراث الحضارى من آثار ومبان .. الخ .

٢ ــ ماكتبه المؤلفون للكتب الذين كانوا يقطنون من حيث المكان ، أقطار الدولة الاسلامية ، والذين عاشوا من حيث الزمان فى القرون الاحدى عشر الأولى ان لم يكن أكثر ــ للهجرة .

يتبقى أمرين هامين لما لهما من صلة بالتعريف بالتراث .

الأول ــ ويختص بالقضية التى آثارها ابن خلدون ، وهو أمر توضيحى هام عن انتماء العرب الى المواطن الأعجمية .

الثانى ــ ويختص بما وصلنا من كتب التراث وكتب فهرستها وحفظها وأماكن وجودها حتى يتعرف أى باحث الى ما يحتاجه من هذه المخطوطات .

أما عن الموضوع الأول ، فيبدأ بسؤال هام وهو : ما هى دواعى انتماء العرب الى المواطن الأعجمية ؟ والرد على ذلك من واقع كتاب الدكتور ناجى معروف حيث يقول :

فلم يسمع بوجه عام أن أحدا من العرب فى الجاهلية ، وصدر الاسلام ، وخلافة الأمويين ، وسنوات من خلافة العباسيين ، انتمى أو انتسب الى المدن وانما كانوا ينتسبون الى قبائلهم وعشائرهم والى أفخاذها وبطونها فنسمع على الدوام : القرشى ، المخزومى ، الزهرى ، والسلمى ، والتيمى ، والتميمى ، والسهمى ، والعدوى ، والباهلى ، والأسدى . وأما الأعاجم فينتسبون الى المدن والقرى والقبائل ولا يعتزون كالعرب بانتسابهم الى الآباء أو الأمهات أو القبائل وبطونها وأفخاذها .

وظل الأمر كذلك الى أن خف وتضاءل فى الدولة العباسية عندما أصبحت بغداد أممية كبيرة تضم أناسا من كل الأجناس والقوميات ، ومن مختلف الملل والنحل . وأصبحنا مع الزمن نجد الكثير من العرب الصرحاء ينتمون مثل الأعاجم الى المدن والقرى والدروب والسكك والمحال والأماكن المختلفة، وبخاصة أولئك الذين عاشوا بين ظهرانى المسلمين من غير العرب . وصار المنتسبون الى المدن من العرب ومن غيرهم

كثيرين جدا ، فكان من المتنسبين الى بغداد مثلا « كثرة من كل جنس وفن » كما يقول أبو سعد السمعانى وصار ينسب اليها من ليس من أهلها لأنهم أقاموا زمنا طويلا ، أضف الى ما تقدم أن العرب صاروا ينتسبون أيضا الى الأماكن والحرف والصنايع،وأصبح سواء فى هذه النسبة:العرب الصرحاء والموالى وصارت وانتظمت البلاد الاسلامية وحدة دينية وثقافية ، وبذلك أصبح التمايز بين العرب وغيرهم من المسلمين أمرا صعبا . ويشير ابن خلدون فى مقدمته(١) الى أن عمر بن الخطاب قال « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا قال أحدهم عن أصله قال : من قرية كذا ، هذا الى مالحق هؤلاء العرب أهل الأرياف من الازدحام مع الناس على البلد الطيب والمراعى الخصبة ، فكثر الاختلاط وتداخلت الانساب .

وقد وقع فى صدر الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال : جند قنسرين ، جند دمشق ، جند العواصم ، وانتقل ذلك الى الأندلس . ولم يكن ذلك لاطراح العرب أمر النسب ، ولكن كان لاختصاصهم المواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها ، وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم ، ثم وقع الاختلاط فى الجواضر مع العجم وغيرهم ، ونسبت الانساب بالجملة ، وفقدت حريتها من العصبية فاطرحت ، ثم تلاشت القبائل ودثرت ، فدثرت العصبية بدثورها ، وبقى ذلك فى البدو كما كان(٢) .

ولكن رغم ذلك استمر الكثير كان جمع من الغالبية من العرب يحفظون أنسابهم ويرجعونها الى القبائل ، وان كان قد دخلها بعض التحريف فى اللفظ ، كما سبق الاشارة .

على أى فان العرب ساحوا فى المدن الأعجمية ، وكثيرا ما ذكر العلماء منهم عن هويته العربية وقبيلته ، بل واعتز مشايخهم بذكرها فى رسائل تلاميذهم .

أما الموضوع الثانى ، فقد بلغ عدد الكتب التى وصلتنا من كتب التراث بالملايين ، رغم ما تعرضت له المخطوطات من محن كثيرة ، نتيجة تعرضه لموجات

---

(١) ص ١٣٠

(٢) ناجى معروف : المرجع السابق ، ص ٧٢ - ٧٥ .

من التعصب أو الغزو للعالم الاسلامى ، أو من العلماء أنفسهم . وخلال هذه المحن تعرض التراث للحرق والاتلاف .

ومن الأمور الذى تعرض لها التراث ما كان نتيجة خطأ غير متعمد مثل ما حدث للعالم العربى الذى سقط النور على كتبه وأحرقها أو وذلك لقلة جدواها – كما يرى – وضنا بها على من لا يعرف قدره الا بعد وفاته واعتذر لمن سبقه من الأئمة والعلماء فى الأمر(١) .

ومن الحوادث التى كانت عن قصد ما فعله أبو حيان التوحيدى ، وله تصانيف كثيرة أحرق بعضها وغسل آخر فى أواخر عمره ألما وحزنا لأنه لم ينل فى حياته التقدير الواجب .

وكذلك ما فعل الصاحب بن عياد الوزير البويهى فى كتب أبو حيان التوحيدى فى احدى نوبات حمقة(٢) ، وتعرضت الكتب التى كان يملكها الصاحب بن عباد لنفس المصير ، وخاصة كتب علوم الأوائل ، وعلم الكلام على أيدى محمود الغزنوى فيما بعد حين احتل الأخير الرى سنة ٤٠٠ هـ وذلك بعد حوالى ٥٠٠ سنة (خمس مائة سنة) من وفاة الصاحب بن عياد(٣) .

وتعرضت كتب التراث فى المغرب والأندلس لنفس المصير(٤) ، ولنفس الأسباب .

أما الحادثة الثانية فهو حريق مكتبة الاسكوريال سنة ١٦٧١ م . وكانت المكتبة تحتوى على نحو عشرة آلاف مجلد من المخطوطات الأندلسية والمغربية زهاء نصف قرن ، فشبت النار فى الاسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه أكثر من ألفين مازالت فى هذه المكتبة حتى اليوم(٥) .

وفى أيام الحروب الصليبية تعرضت كتب التراث للنهب والتلف والاحراق ، وكانت الطامة الكبرى لها حين دخل المغول بغداد ٦٥٦ هـ واسقطوا الدولة

---

(١) ياقوت : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٨٨
(٢) ياقوت : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ص ١١٠ .
(٣) ياقوت : المصدر السابق ج ٦ ، ص ٢١٦ – ٢١٧ .
(٤) محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ – ٢١٦ .
(١) محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ط ٤ ، ص ٣٢٦ – ٢٣٩ .

لعباسية ، واستخدموا الكتب كقنطرة مائية يعبرون عليها . وكذا عند سقوط الأندلس فى أيدى النصرانيين فى سنة ٨٨٩ هـ وقبلها أيضا بسنوات .

بل ان تراثنا العربى الاسلامى لم يسلم من تدمير العصور الحديثة خاصة فى القرن الخامس عشر الميلادى . فلم تمض أعوام قلائل على سقوط غرناطة (١٤٩٢ م) حتى ارتكبت أسبانيا ـــ النصرانية المتعصبة والتى تحركها الكنيسة ـــ جريمة كبرى فى حق هذا التراث ومن ثم الفكر الاسلامى وهى لا تدرى ـــ بفعل التعصب ـــ أنها تدمر أيضا الفكر الانسانى . ففى ١٤٩٩ أمر الكردنيال فمنيس مطران طليطلة التى كانت قبل سقوطها (١٠٨٥) مركزا اشعاعيا للأوربيين ليتعلموا ويتحضروا فيها من علوم العرب والاسلام . أمر هذا المتعصب الأعمى بجمع جميع الكتب والآثار العربية من سكان غرناطة وأرباضها وتنظيمها اكداسا فى ميدان باب الرملة ، أعظم ساحات المدينة ، وكان يضمها المصاحف البديعة الزخرف والآلاف المؤلفة من كتب الآداب والعلوم ، واحتفل باحراقها مدعيا ذلك عملا من أعمال الايمان ، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة كتب الطب . وهلك فى هذه المحنة معظم تراث الأندلس العظيم ، وقدر بعض أعداد الكتب الهالكة ما بين ثمانين ألف ومليون .

ولنعرف قيمة ما وصل الينا فقط من الكتب ، وأهميتها ، فضلا عن ضخامتها يمكننا أن نراجع هذه القائمة لبعض فهارس الكتب المنشورة بواسطة جهات علمية وحضارية وثقافية مختلفة فى العالم كله ، ونذكر فيها المكتبات والمتاحف التى تحتفظ بها(١) .

١ ـــ المكتبة الشرقية Bibiotheco oriantala باللغة الفرنسية ، اعداد ، زنكو ، ١٨٤٦ ـــ ١٨٦١ ، يضم أسماء الكتب العربية المطبوعة وغيرها منذ اختراع الطباعة حتى سنة ١٨٦٠ م .

٢ ـــ فهرست دار الكتب المصرية المنشور سنة ١٣٠٨ هـ ـــ ١٨٩٠ م .

٣ ـــ فهرست المكتبة الآصفية بالقاهرة المنشور سنة ١٩٠٠ م .

---

(١) القصلى : تحقيق النصوص ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

٤ ـــ فهارس الكتب العربية المخزونة فى مكاتب القسطنطينية ، نشر الحكومة العثمانية سنة ١٢٧٩ ـــ ١٣١٣ هـ .

٥ ـــ عقود الجمان فى تراجم من لهم خمسون تصنيفا فمائة فأكثر ، جميل العظم ، نشر سنة ١٣٢٦ هـ ـــ ١٩٠٨ م .

٦ ـــ جامع التصانيف المصرية الحديثة ، عبد الله الأنصارى ، يحتوى على أسماء الكتب الصادرة بين سنتى ١٣٠١ ـــ ١٣١٠ هـ = ١٨٨٣ ـــ ١٨٩٢ م ، القاهرة ١٣١٢ هـ ـــ ١٨٩٢ م .

٧ ـــ اكتفاء القنوع بما هو مطبوع من أشهر التآليف العربية فى المطابع الشرقية والغربية ، ادوارد فنديك ، القاهرة ١٨٩٧ م .

٨ ـــ معجم المطبوعات العربية والمعربة ، يوسف اليان سركيس ، يحتوى على أسماء الكتب الصادرة منذ ظهور الطباعة حتى نهاية عام ١٣٣٩ هـ ـــ ١٩١٩ م ، نشر بالقاهرة ١٣٤٦ ـــ ١٣٤٩ هـ ـــ ١٩٢٨ ـــ ١٩٣٠ م .

٩ ـــ مراجع ما نشر بعد الحرب العظمى عن بلدان الانتداب فى الشرق الأدنى، أنيس فريحة .

١٠ ـــ جامع التصانيف الحديثة التى طبعت فى البلاد الشرقية والغربية والأمريكية من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٦ ، يوسف اليان سركيس ، نشر بمصر سنة ١٩٢٧ م ، وهو ذيل لكتابه المتقدم .

١١ ـــ معجم المطبوعات العراقية ومؤلفيها منذ سنة ١٨٠٠ م الى سنة ١٩٧٠ م نشر ببغداد ١٩٧٠ م .

١٢ ـــ فهرس الكتب العربية المطبوعة فى مجلس دائرة المعارف ، حيدر آباد الدكن ١٣٤٣ هـ .

١٣ ـــ فهرست الخزانة الملكية فى حيدر آباد ، الهند .

١٤ ـــ فهرس مطبوعات مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ١٣٥١ هـ .

١٥ ـــ فهرس الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية (دار الكتب المصرية) ، بولاق ١٣١٠ هـ .

١٦ ـــ المكتبة العربية الحديثة ، جورج شحاته قنواتى وشارل كونس ، القاهرة. المعهد العلمى الفرنسى ١٩٤٩ م ، فهرس تحليلى لما طبع فى مصر من الكتب العربية فى السنوات ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ م .

١٧ ـــ فهرست الكتب العربية الموجودة بالدار (دار الكتب المصرية) حتى غاية سنة ١٩٢٨ م نشر فى القاهرة ١٩٣١ م .

١٨ ـــ فهرس الكتب التى وردت الى الدار (دار الكتب المصرية) من سنة ١٩٢٩ م الى ١٩٣٥ م .

١٩ ـــ فهرست المطبوعات العراقية من ١٨٥٦ ـ ١٩٧٢ م ، عبد الجبار عبد الرحمن .

٢٠ ـــ المستدرك على فهرست المطبوعات العراقية ١٨٥٦ ـ ١٩٧٢ ، فؤاد قزانجى ، مجلة المورد ، بغداد ١٩٨٠ م .

٢١ ـــ قائمة بأوائل المطبوعات العربية المحفوظة بدار الكتب (المصرية) حتى سنة ١٨٦٢ م ، محمد جمال الدين الشوربجى ، القاهرة ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م .

٢٢ ـــ معجم المطبوعات النجفية منذ دخول الطباعة الى النجف حتى الآن ، محمد هادى الامينى ، النجف ط ١ ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م .

٢٣ ـــ الكتب التى نشرت فى مصر ١٩٢٦ ـ ١٩٣٩ م ، عايدة نصير ، القاهرة : الجامعة الأمريكية ١٩٦٩ م .

٢٤ ـــ دليل الكتاب المصرى ١٩٤٠ ـ ١٩٥٥ م ، شعبان خليفة وزملاؤه ، القاهرة : الجامعة الأمريكية ١٩٧٥ م .

٢٥ ـــ معجم المخطوطات المطبوعة بين سنتى ١٩٥٤ ـــ ١٩٦٠ م ، د. صلاح الدين المنجد .

٢٦ ـــ معجم المخطوطات المطبوعة بين سنتى ١٩٦١ ـــ ١٩٦٥ م ، د. صلاح الدين المنجد .

٢٧ ـــ معجم المخطوطات المطبوعة بين سنتى ١٩٦٦ ـــ ١٩٧٠ م ، د. صلاح الدين المنجد .

٢٨ ـــ معجم المخطوطات المطبوعة بين سنتى ١٩٧١ ـــ ١٩٧٥ م ، د. صلاح الدين المنجد .

٢٩ ـــ حركة التأليف والنشر فى المملكة العربية السعودية ، يحيى محمود ساعاتى ، الرياض : ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .

٣٠ ـــ معجم المطبوعات السعودية ، شكرى العنانى ، الرياض : ١٣٩٣ هـ .

٣١ ـــ الدراسات العربية الاسلامية فى الجامعات الألمانية ، رودى يارت ، ترجمة د. مصطفى ماهر ، القاهرة .

٣٢ ـــ الدراسات العربية فى أوربا منذ البداية الى مطلع القرن العشرين ، ريشارد هوتمان وهلموت شيل ، لايبتسك ١٩٥٥ م (بالألمانية) .

٣٣ ـــ فهارس مطبوعات المجمع العلمى العراقى ، ابراهيم ارسلان ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، المجلد التاسع عشر ١٣٩٨ هـ = ١٩٨٧ م .

٣٤ ـــ فهرس مطبوعات جامعة دمشق ، دمشق ١٩٥٩ م .

٣٥ ـــ مطابع العراق وثمراتها من سنة ١٨٥٦ الى ١٩٢٦ م ، روفائيل بطى ، مجلة لغة العرب (بغداد) مجلد ٤ ـــ ٥ ، ١٩٢٦ م .

٣٦ ـــ المطبوعات العربية القديمة فى السنوات ١٩٣٩ ـــ ١٩٤٢ م ، كوركيس عواد ، مجلة الرسالة (القاهرة) الاعداد : ٣٥٤ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٥٢١ .

٣٧ ـــ مشاركة العراق فى نشر التراث العربى ، كوركيس عواد ، مجلة المجمع العلمى العراقى (بغداد) المجلد ١٧ ، ١٩٦٩ م .

٣٨ ــ تاريخ فن الطباعة فى الشرق ، لويس شيخو (١٨٥٩ ــ ١٩٢٨ م) مجلة المشرق (بيروت) المجلد ٣ ، ٥ سنة ١٩٠٠ ــ ١٩٠٢ م « سلسلة مقالات ضمنها كل ما انتجته المطابع فى شتى الأقطار من الكتب العربية وأثبت أسماء مؤلفيها أو ناشريها منذ ظهور الطباعة الى أوائل القرن العشرين».

٣٩ ــ المكتبة ، د. جمال المحاسب ، لبنان ١٩٥٦ ــ ١٩٥٧ م « مراجع منتقاة من الكتب العربية الصادرة فى الأردن ، سورية ، العراق ولبنان » .

٤٠ ــ المكتبة الشرقية ، باريس ١٦٩٧ م : Herbelot, Biliotheque orientale.

٤١ ــ معجم الاسلام ، لندن ١٨٨٥ م : T.P. Hughes, Pictionary of Isam.

٤٢ ــ مطبوعات وزارة الثقافة والارشاد القومى ، دمشق ١٩٦٦ م .

٤٣ ــ بريد المطبوعات الحديثة ، القاهرة ١٩٥٧ م .

٤٤ ــ مصادر الفكر العربى الاسلامى فى اليمن ، عبد الله محمد الجشى ، صنعاء .

٤٥ ــ الاعلام ، خير الدين الزركلى .

٤٦ ــ معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة .

٤٧ ــ المكتبة العربية « فهرس للمطبوعات العربية التى ظهرت فى أوربا بين ١٥٠٥ ــ ١٨١٠ م » ، المستشرق الألمانى فردريك شنورير (١٧٤٢ ــ ١٨٢٢ م) نشر بمدينة هالة سنة ١٨١١ م :
Schnurrer, F, Biblioteca Arabica, .Halae 1811

٤٨ ــ فهرس المطبوعات الاسلامية ، جوزيى جابر بيلى ، روما ١٩١٥ م .

٤٩ ــ معجم الكتب العربية (باللغة الفرنسية) : « فهرس للمطبوعات التى تبحث عن العرب مما طبع فى أوربا بين ١٨١٠ ــ ١٨٨٥ م » ، المستشرق البلجيكى فيكتور شوفين (١٨٤٤ ــ ١٩١٣ م) .
V. Chauvin, bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux Arabes publiés dans I, Europe chrétienne de 1810 - 1885.

٥٠ ـــ فهرست الكتب العربية بالمتحف البريطانى :

Ellis, A.G. Cataloyue of the Arabic books in the British Museum,)
.London, I 1894, II 1901, III Indexes by A.S. Fulton 1935

٥١ ـــ ذيل فهرست المتحف البريطانى الخاص بالكتب العربية المطبوعة ، لندن ١٩٢٦ م :

A.S. Fulton and A.G. Ellis, Supplementary catalogue of Arabic
.Printed books in the British Museum Losdon 1926

٥٢ ـــ الصحيفة الأدبية للدراسات اللغوية والشرقية : اعـداد : كون ، ليبزج ١٨٨٣ ـــ ١٨٨٥ م :

Literaturblatt Für orientale Philolgie, hs.g U.E. Kuhn, Leipzig,
.1883 - 85

٥٣ ـــ فهرست الكتب والبحوث الشرقية واللغوية التى طبعت فى ألمانيا من سنة ١٨٥٠ الى سنة ١٨٦٨ م ، تأليف هرمان ١٨٧٠ م :

C.H. Hermann, Bibliotheca orientalis et linguistica, verzeirhnis der
vom jaher 1850 bis incl. 1868 in Demtschland erschienen

Bücher, Schriften usd Abhandlungen orientalicher u. sprachver
.gleichender Literatur, Hallea saale 1870.

٥٤ ـــ مصادر الثقافة العربية ، يوسف أسعد داغر .

٥٥ ـــ تاريخ الأدب العربى ، كارل بروكلمان (وسيأتى التعريف به) .

٥٦ ـــ فهرست كامل لجميع الكتب الشرقيـة التى طبعت فى ألمانيا وفرنسـا وانجلترا والمسـتعمرات من سـنة ١٨٧٦ حتى سـنة ١٨٨٣ م ، ليبزج ١٨٧٧ ـــ ١٨٨٤ م :

Fricdricik, Bibbliotheca orientalis oder vollstandige Liste aller
1876-1883 in Deutschland, Fraskreich, England u. den kolonion

٥٧ ـــ تاريخ التراث العربى ، فؤاد سزكين .

٥٨ ـــ تاريخ الآداب العربية الى نهاية القرن الثانى عشر للهجـرة (باللغـة الألمانية) ، هامر برغشتال (١٧٧٤ ـــ ١٨٥٦ م) ٧ مجلدات :

Hammer Purgstall, Litraturgeschite der Arab thre Beginne bis
ende .de XII

٥٩ ـــ المستشرقون ، نجيب العقيقى ، ط ٤ سنة ١٩٨٠ م .

٦٠ ـــ المكتبة الشرقية (باللغـــة الفرنسية) ، ج. ت. زنكر ، ليبســـك ط ١ : ١٨٤٠ م . ط ٢ فى مجلدين ١٨٤٦ ـــ ١٨٦١ م .

Zenker, J.th: Bibliotheca orientalis. Manuel de Bibliographie .orientale

٦١ ـــ فهرست الكتب الاسلامية ، جيوسه غبريبلى (١٨٧٢ ـــ ١٩٤٢ م) ، روما ١٩١٦ م :

Gabrieli, G: Manuel di bibliografia Musulmana.

٦٢ ـــ موجز فى أدب العلوم الاسلامية (باللغة الألمانية) . كوستاف فان مولر ، ليبسك ١٩٢٣ م .

Pfannmuller, Gustav: Handbuch der Islam Literatur.

٦٣ ـــ المكتبة الشرقية (باللغة الألمانية) ، اوغست مولر (١٨٤٨ ـــ ١٨٩٢ م)، برلين ١٨٨٧ وما بعدها . « وهو نشرة دورية » .

Orientaliche Bibliographie. A. Muller.

٦٤ ـــ فهرست كتابهاى جابى عربى : ايران أز آغاز جاب تاكنون مدير كشور : بيشتر ، أزسال ١٣٤٠ هـ ببعد . تأليف خانبا بامشـــار ، تهران : جاب رنكلين رسن ١٣٤٤ ش :
وفهرست الكتب العربية المطبوعة فى ايران من ظهور الطباعة الى العصر الحـــاضر .

٦٥ ـــ الببليوغرافيا الوطنية الأردنية : السجل السنوى للانتـــاج الفكرى فى الأردن ١٩٧٩ م ، عمان ١٩٨٠ م . وغيرها .
و (الدوريات) المعنية بنشر المخطوطات العربية على صفحاتها أو بالاشارة الى نشرها هى أمثال ما فى البيانين التاليين :

الباب الثاني

أهمية التراث

- الأهميـة
- حادثة مكتبة الاسكندرية
- نكبات التراث



عندما نتحدث عن التراث العربي الاسلامى ، لابد أن نشير الى ما ورثه العرب قبل الاسلام من أجيال متتابعة ، فكل خلف وراءه ، ينتفع به بما وصل اليه السلف ، ويضيف بعد ذلك الجيل الذى انتفع الى التراث ما يزيد اليه ويسهم فى زيادة الانتفاع بحصيلة التراث الجديدة .

وقد أثبت العرب أنهم كانوا أهل حضارة عريقة ، فضلا عن أن حياتهم المتنقلة سواء للتجارة أو نتيجة الحركة القبلية لبعض البطون الى الخارج ، جعلتهم يقتبسون ما يناسبهم ، ويضيف الى حضارتهم وهذا يؤكد أنهم أهل اقتباس وعطاء .

والعرب الذين استطاعوا فى أقل من قرن ، وبدافع وسر عقيدة التوحيد وهو الاسلام أن يقيموا دولة ، ويبدعوا حضارة عالمية جديدة ، هم لا ريب من ذوى القرائح والتجارب الحضارية التى لا تتم الا بتوالى الوراثة ، وأصحاب ثقافة سابقة ومستمرة ، بل استطاعوا أن يقيموا مدنا زاهرة قامت على الأسس المادية والفكرية للحضارة الاسلامية ، وظلت هذه المدن مع غيرها من المدن الاسلامية لمدة عشرة قرون مراكز للعلوم والآداب والفنون فى كل من آسيا وافريقيا وأوربا[1] ، وهذا ما كشفت عنه التنقيبات الأثرية ، وأثبتته الدراسات التى مازالت تبحث عن أبرز مصدر للتراث وهى المخطوطات ، فضلا عما تبحث فيما وصل الينا منها .

ولعل أبرز ما ورثه العرب قبل البعثة المحمدية أمور هامة منها :

أولا — احترامهم وتقديسهم للكعبة ، والقيام بباقى الشعائر المقدسة فيها ، ولم يكن ذلك قاصرا على عرب الشمال ، بل على العرب جميعا وحيثما كانوا وحلوا . ولنا فى كسوة « تبع » للكعبة ، وحادثة الفيل لدليل على ذلك ..

ثانيا — اللغة العربية البليغة ، التى تعتبر معجزة العرب ، وما ترتب عنها من شعر وفن ونثر ، فهى من أرقى لغات العالم فى أساليبها ، ومعانيها ، وتراكيبها ، بل تمتاز مفرداتها حروفها بحروف لا تتوفر فى اللغات الأخرى قاطبة .

---

(١) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

ثالثا ـ الآثار والمخلفات الأثرية ، وقد عثر على عديد منها يرجع تاريخه قبل الاسلام سواء فى الشمال أو الشرق ، أو الغرب ، أو الجنوب من الجزيرة العربية . ومنها ما عثر عليه فى منطقة « الفاو » وجميعها تعبر عن التراث الفكرى والعملى الذى وصل اليه العرب ، وما تركه الخلف للسلف ، هذا التراث الذى يحتوى على مجموعات من النظم السياسية والدينية والقوانين التجارية والمدنية.. وما الى ذلك من تراث فكرى متقدم ، فضلا عن العلوم الهندسية مثل شق الطرق داخل الجبال لتسهيل عملية العبور بين المراكز التجارية .

ونزلت الديانة الخاتمة « الاسلام » . وحمل الدعوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو دين للعالمين جميعا . واستطاع الرسول أن يبصر المؤمنين والمسلمين بمسئولية نشر الدعوة ، فحملها من خلفوه ، ونشروها ، ولم تمض سنوات حتى لاقت شغف الآملين فى الهداية ، والباحثين عن الأمان الروحى والفكرى فى المشرق والمغرب ، وكسبت أرض فارس والشام ومصر الاسلام ، وصارت كل منها مركزا لنشر الدعوة بالفكر والعمل ، وأقام الدين الاسلامى فى العالمين حضارة دهش لها المعاصرون ومن خلفهم من بعدهم ، واعترف بها المنصفون من المفكرين والعلماء فى العصر الحديث وأدرك الجميع أن وراء ذلك كله الايمان بالله واعتناق دين الاسلام .

ولقد أدركت الدول فى العصر الحديث أهمية التراث ، لذلك أولت الأمم الناهضة تراثها عامة . والعلمى منه خاصة اهتماما كبيرا باعتباره ميراث الأجداد . ورأى الجميع أن المتنكر لتراثه أو الغافل عنه يصبح بلا هوية حضارية . فالتراث الحامل للقيم كلها يعطى حياة الشعوب طابعا ولونا مميزا ، وتكتسب منه أسس بناء الانسان فيها ، ومن ثم يتحدد على أساسها نوع ومجال فكرها الدينى والدنيوى الذى تعتنقه .

فما التراث الا حصيلة ضخمة من التجارب والممارسات بأشكالها المختلفة ومناحيها المتعددة التى تهتم بالحياة الفكرية ، الدينية والدنيوية . فهو عميق الجذور فى الأمم ، لذلك فانه يمثل فكرها وعقلها ، وشخصيتها ، بل هو الذى يميز أمة عن غيرها من الأمم ، أى أنه ذات الأمة . ولعل أكثر شىء ادراكا فى أهمية التراث ووجوب الاهتمام به ودراسته أمرين :

---

(١) يرجع فى ذلك الى كتاب جواد على : العرب قبل الاسلام .

الأول : أنه يربط شخصية الأمة بماضيها ويجعلها بارزة بين الأمم .

الثانى : أنه يكشف أشياء جديدة تستنير بها الأفكار المعاصرة ، بل كثيرا ما تفتح الأذهان منها وتؤدى الى ابتكار أشياء جديدة مستندة الى أصول قديمة، فيكون لها من التفريعات ما يتناسب مع واقع الأمة وواقع البيئة الجديدة التى يعيشها الانسان(١) .

واذا كان هذا حال الأمم عامة ، فالعرب والمسلمون أولى البشر اهتماما بتراثهم ، لأنه ليس تراث الأجداد فحسب ، بل هو ثمرة ونتاج الفكر الدينى الاسلامى ، والعلماء المعتنقون والمؤمنون بالاسلام دينا وعقيدة ، الاسلام الذى جاء للعالمين والبشر جميعا ، أى جاء انسانيا شاملا ، ومن ثم كان التراث العربى الاسلامى يحتوى على الفكر الانسانى بشموله العام .

اهمية التراث

والتراث العربى الاسلامى — شأن كل تراث — يعبر عن شخصية الأمة التى تنفرد بها عن غيرها . وفى عصر الحضارة الاسلامية الزاهر كان العرب هم القواد والرواد ، ثم تبعهم من دخل الاسلام . لأن أهمية التراث العربى الاسلامى ترجع الى ايمان المسلمين منذ عصورهم الأولى بأهمية العلم ، ولقد أبرز « معاذ بن جبل» رضى الله عليه هذه الأهمية فيما نسبه بعض الرواة عن سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم . فقال معاذ . قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « تعلموا العلم فان تعلمه حسنة ، وطلبه عبادة ، وبذله لأهله قربة ، العلم مدار سبيل أهل الجنة ، والأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والزين عند الاخلاء ، والسلاح على الأعداء ، ويرفع الله به قوما فيجعلهم قادة أئمة تقتفى آثارهم ، ويقتدى بفعالهم ، والعلم حياة القلب من الجهل ، ومصباح الأبصار من الظلمة ، وقوة الأبدان من الضعف . يبلغ بالعبد منازل الأحياء ، والدرجات العلا فى الدنيا والآخرة . الفكر فيه يعدل الصيام ، ومذكراته القيام ، وبه توصل الأرحام ، ويعرف الحلال من الحرام » ويرى ابن عبد ربه أنه من قول معاذ بن جبل(٢) .

---

(٢) قضايا وآراء ، سلسلة ندوات أعدها الدكتور عبد الله عبد الرحيم ١٤٠٥/١٩٨٥ ص٢١٤-٢٢٠ .

(٢) ابن عبدربه : العقد الفريد ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ .

— حاجى خليفة : « كشف الظنون » جـ ١ ، ص ١٨ ١٩ .

(كشف الظنون عن اسامى الكتب والظنون) تحقيق محمد شرف الدين يالتقيايا ورفعت بيلكة الكليبى ، استانبول ، وكالة المعارف ١٩٤١ - ١٩٤٣ م .

وكما أن الوطن هو المهد الأول للانسان ، يحن اليه كلما بعد عنه المطاف فى بلاد الله تعالى ، ويشعر فى قرارة نفسه بحبه وفدائه من أجله ، والاستهانة ببذل المال والنفس فى سبيل الحفاظ عليـــه ، ويدين له أبدا بالولاء والاعزاز ، كذلك يعد التراث الفكرى هو المهد الأول لتفكيره ولنفسه وروحه ، وأى انفكاك بين المرء وتراثه ، يخلق منه امرءا تتجاذبه أطراف الضياع وفقدان الشخصية والنفس . وضياع الشخصية والنفس مدعاة للتفكك والتخلخل ، والشعور بالبؤس والمذلة اللتين لا تطيب معهما الحياة(١) .

ولقد صحب ما لحق المسلمين من تأخر فى العصر الحديث ، دعوات هدفها الأساسى طمس معالم الشخصية العربية الاســلامية عامة والاسلامية خاصـــة ، وربطوا بين هذا التأخر ــ وخاصة المادى ــ وبين استمرارنا فى الاعتزاز بالتراث فى الوقت ، وينهل أصحاب الدعوات أنفســهم بما فى تراثنا من قيم وعلم ، ثم تطويره بأسلوبهم ، وتقديمه للأمة العربية على أنه من صنعهم ومن ابتكاراتهم ، وعلى سبيل المثال اكتشاف دورة الدم الصغرى ، فقــد كشفها الطبيب المســلم ابن النفيس ، فاقتبسها الانجليزى وليــام هرفى ونســبها الى نفسه ، وتجــاهل صــاحبها .

وهذه محاولة لمناقشة أهمية التراث ، ســوف نعرض فيها لبعض اعترافات علماء الغرب عند عرض عنصر من عناصر الأهمية حتى يكون دليلا .

أولا ــ التراث العربى الاسلامى ، المخطوط منه والمطبوع ، ضخم متنوع ، يشتمل على الشئون الدينية واللغوية والأدبية والتاريخ ، كما هو غنى أيضا بكتب الطب ، والصيدلة ، والفلك والرياضيات ، والفزياء والكيمياء والجغرافيا والفلاحة، والانشاءات والتعدين ... الخ . كما يلحق به بعض مؤلفات فى التنجيم والطلسمات والسحر .. ولكل كتاب فى هذه العلوم نصيب من الأهمية ، ويستحق الاهتمـــام والدراسة ، لما قد تتكشف عنه من حقائق(٢) .

ننتهى الى أنه تراث انسانى دينى وحضارى ، دينى ودنيوى . أى هو متكامل يجمع بين أحكام الوحى الالهى ، ونتاج العقــل البشرى ، وفى ظله التقى العلم

---

(١) عبد السلام هارون : المرجع الســابق ، ص ١٤ .

(٢) د. احمد سعيدان : مقال التراث العربى ، المرجع السابق ، ص ٨ .

والايمان ، فلم ينفصم قلب عن فكر ، ولا روح عن مادة ، ولا دين عن دولة ، ولا أدب عن علم .

كما أن أبرز سمة فى هذا التراث كله أنه مكتوب باللغة العربية ، هذه اللغة التى ينادى أعدائها الآن بأنها لغة الدين الاسلامى والأدب فحسب ، ويهدم هذا الادعاء هذا التراث الذى يبلغ ملايين الكتب ـ كما سيأتى فيما بعد ـ منها ما خرج الى النور ، ومنها ما هو حبيس المكتبات والمتاحف لهدف أو آخر .

ومن واقع تأييدنا لتعريب جميع العلوم التى تدرسها معاهدنا والكليات الجامعية فى الوطن العربى ، يجب أن يمتد اهتمامنا بما يتجاوز المخطوطات العربية الى ما سبق نقله الى اللاتينية عن طريق من اعتنوا بأهمية التراث العربى فى فجر عصر التنوير والنهضة فى العالم الغربى ، وليس هذا فحسب ، بل يمتد الى المخطوطات الفارسية والتركية التى كتبت فى أواخر عهد الوحدة الاسلامية فى العالم الاسلامى العربى ، وذلك لاعادة الغريب الى وطنه ، وتصحيح المنحول المشوه الى صحته ، ووضع الأمور فى نصابها الصحيح .

ثانيا ـ التراث العربى الاسلامى عامة ، بكل فروعه كان ومازال وسيلة مؤثرة لغرس الاسلام وآمال فى قلوب عدد كبير من المسلمين وغير المسلمين . وحينما نقول (مازال) نقصد أن نشير الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « العلماء ورثة الأنبياء » والعلماء فى هذا العالم المادى ركن فى التقدم ، فعندما يصلون من خلال دراساتهم وتجاربهم فى موقف نص عليه كتاب الله الكريم من ألف وخمسمائة سنة ، أو تستعصى عليهم مشكلة لا يجدون حلا الا فى القرآن الكريم ، أو كتب التراث العربى الاسلامى ، هنا يدركون أن الاسلام حق ، وأنهم أولى الناس باتباعه مهما بلغت الضغوط ، وأن عليهم أمانة الدعوة اليه . مثلهم فى ذلك ما جاء فى كتاب الله الكريم فى حوار الكهنة وفرعون وموسى : (قال ألقوا فلما القوا سحروا أعين الناس وأستر هبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا الى موسى أن الق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبو هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون)(١) . ولما حاول فرعون ارهابهم بالقتل

---

(١) سورة الاعراف ، آية ١١٦ ــ ١٢٢ .

والتمثيل بالجثث ، رد عليه السحرة بايمان شديد أمام الملأ ، وكأنما ينادون هذا الملأ باتباع الديانة الحق (قالوا انا الى ربنا منقلبون . وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا وتوفنا مسلمين (١) .

وهكذا العالم المادى الآن ، يحاول ارهابنا بما توصل اليه من أمور مادية مهولة ، بعد أن اقتبس أساسها من تراثنا العربى الاسلامى . ولو رجعنا الى هذا التراث فى تفسير القرآن ، وعلوم الاسلام لنجد فيها ما لا يجعلنا نقبل هذا الارهاب ، ولوجدنا عندنا من العلوم العملية ما يساعدنا على بناء قاعدة علمية قد تكون أكثر تقدما فيما لم يصل اليه العالم المادى ، بل ستقيم القاعدة العلمية على أساس انسانى يفرض نفسه على الارهاب . كما سيأتى فى النماذج التى سوف نوردها فيما بعد .

هذا فضلا عن أن تراثنا لا يؤمن بفصل الأخلاق عن العمل والعلم ، سواء فى العلوم العلمية أو الفن أو السياسة أو الاقتصاد ، بل والحرب أيضا ، فهو تراث يعبر عن رسالة هدفها أن تتمم مكارم الأخلاق .

وأمامنا فى العصر الحديث مثال لأثر التراث العربى الاسلامى الذى يحمل الحضارة الاسلامية بين سطوره ، ويشع بها على العالم . فيرى السيد الفيلسوف « روجيه جارودى » فى حديثه من الاسلام أن حضارة الغرب — فى عصرنا هذا — حضارة بلا أهداف ، وأن الاسلام يمثل الحياة الكاملة التى تعرف أهدافها .

ورغم أن السيد جارودى له مكانة عليا فى الفكر المعاصر ، وفكره ليس من ذلك النوع المجرد الأجرد الخالى من الروح والحيوية ، بل فكرا فعالا مستجيبا للحياة وظروفها ، ولم يكن يتحرج من الانتقال بفكره من طرف الى طرف ، اذا وجد متابعة الحق — وفق رأيه — تقتضيه مثل ذلك الانتقال ، وهذا ما حدث فعلا ، فقد كان شيوعيا ، ثم تحول الى الاسلام ، وهيهات بين الاسلام الدين المنزل ، والشيوعية الفكر الموضوعى على أسس نفعية غير واقعية أو انسانية .

على أن أهم ما يلاحظ على اسلام « جارودى » هو قيامه على أساس « الحضارة » التى قرأها فى كتب التراث ، وليس على أساس العقيدة ، وذلك

---

(١) سورة الاعراف ، آية ١٢٥ — ١٢٦ .

لما وجده ــ بعد دراسة ــ من نقص وعيب فى حضارة الغرب ، اذ وجد أنها حضارة بلا هدف ، تعمل دون أن تؤدى الى ارتقاء الانسان من حيث هو انسان . هذا مع ملاحظة أن « جارودى » رغم معارضته وهجومه على حضارة الغرب فهو مسلح بثقافة الغرب نفسه ، وهذا الموقف المنطوى على مفارقة ، كثيرا ما نراه عند أعداء العصر وحضارته (١) .

على أننا نصل فى النهاية الى أن كتب التراث العربى الاسلامى كان لها دورها فى وضع السيد جارودى وأمثاله على أعتاب ومدخل أبواب الاسلام ، ونرجو أن يستكمل هؤلاء دراساتهم لفهم الحضارة الاسلامية على حقيقتها ، وهى حضارة أساسها « العقيدة الاسلامية » ونأمل أن يتأكد اسلامهم بتسلحهم بالعقيدة لا بالحضارة فحسب . ولكتب التراث العربى الاسلامى دورها فى ذلك أيضا .

ثالثا ــ الرجوع الى الماضى يعتبر ارواءا للجذور الأصلية ومنها ، وهو أمر ضرورى لاستمرار الحيوية فى الفكر والتراث العلمى بشموله الأوسع ، لانهما سلسلة متصلة الحلقات اللاحق منها متمم للسابق . فالحضارة الجديدة ــ أيا كان نوعها ــ لا تولد من العدم ، وانما تقتبس من القديم ، وتسهم فيه بالاضافة والتعديل ، ثم تقدم حلقة جديدة من السلسلة الحضارية والفكرية .

فحضارة الاغريق تأثرت بحضارات الرافدين والمصريين والعراقيين ، ثم أضافت اليها . وفى عصر الاحياء أو التنوير أو فجر عصر النهضة الأوربية الحديثة، قام الأوربيون بالاقتباس من الحضارة العربية الاسلامية فى الأندلس وغيرها ، ثم رجعوا الى تراثهم أيضا أو التراث اليونانى واللاتينى وعملوا على احيائه .

ومن عظمة تراثنا أنه كان يحتوى على هذا التراث الاغريقى اللاتينى ، وكان مكتوبا باللغة العربية ، فرجع الأوربيون اليه لتحقيق ما فقدوه من التراث المنشود لهم ، وترجموا من تراثنا الكثير من أجزائه الى لغاتهم اللاتينية ، بل وبنوا على هذا وذاك أسس انطلاقهم الى الحضارة الحديثة التى يعايشها العالم الآن (٢) .

---

(١) د. عبد الوهاب أبو النور : مقال « مقترحات لجمع وخدمة التراث » المرجع السابق ، ص٢٠٠

(٢) د. زكى نجيب محمود : قيم من التراث ، ص ١٢٤ ــ ١٢٧ ، دار الشروق ــ القاهرة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

. فالرجوع الى التراث ليس نقطة ضعف ، أو مركب نقص فينا ، بل هو الاسلوب الأمثل لاحياء الشخصية الفكرية ، ومن ثم الحضارة الحاوية على أسس ثابتة وذاتية .

رابعا ـ الوصول الى حقيقة هامة ، وهو أن التراث العربى الاسلامى لم يقم أساسه على الحضارة الاغريقية ، أو أنه ناقلا ـ فقط ـ لبعض هذه الحضارة أو عنها كما يدعى طائفة من المستشرقين ومن تتلمذ على أيديهم من العرب أمثال طنطاوى جوهرى ، وأحمد رضا ، وفريد وجدى وغيرهم ممن كانت تغلب على مؤلفاتهم شكل دائرة المعارف ، ويعتمدون فى مؤلفاتهم على الفكر الذى يتصف بالمدح والتمجيد ، فهذا الفكر يخدر ضمير الشعوب الاسلامية ويسليها . فهم يرون مع أساتذتهم المستشرقون على وضع الحضارة الاسلامية العربية أمام تحديات واستشارات وذلك باعلانهم أن ما ساهم به العرب فى تنمية العلوم ابان حضارتهم لا يعدو مجرد تبليغ ما أنتجه اليونان والرومان . فمن المؤسف أن يعزى وينسب أحد تلاميذ المستشرقين وهو محمد فريد وجدى ، علم الجبر الى اليونانى « ديوفانت » ، ولو تحرى الحقيقة بين كتب التريث ، وتعمق فى الدراسة بصفته عربى مسلم لتيقن تماما أن الجبر أتى الى الوجود فى المناخ الذى أوجده القرآن الكريم[1] والمنهج الاسلامى . وسنكتفى بالرد على ذلك من نفس المستشرقين الأوربيين ، وهى سيدة مستشرقة تسمى « زيغريد هونكة » ، فرغم أنها كانت احدى وسائل الاستشراق وتعبر عن أسلوب منه ، من الأساليب التى تخصصت فى الصراع الفكرى فى العالم العربى ، الا أنها عرضت فى كتابها المشهور[2] اعتراف هام ، يمكن أن نوجزه فيما يلى :

لقد اعترف الجميع للعرب بفضلهم فى ايصال أعمال الفلسفة وانتاج العلماء القدامى وآثارهم الى العلوم الحديثة .

وبهذا الثناء الجزئى الذى يهمل الدور الكبير الذى قام به العرب فى تأسيس العلوم وابتكار تخصصات فيها ووضع طرق وأساليب لدراستها والبحث فيها ، وأثر ذلك على الثقافة الغربية عبر المعابر المختلفة فى الأندلس وصقلية والحروب

---

(١) مالك بن نبى : انتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الاسلامى ، ص ٣٤ ، ٣٦ ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

(٢) زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب « أثر الحضارة العربية فى أوربة ، ص ٣٩٩ نقله عن الالمانية فاروق بيضونى ، وكمال دسوقى ، بيروت ـ الطبعة الثانية ، ١٩٦٩ م.

الصليبية .. وغيرها .. كل ذلك أنكره الأوربيون ويمثلهم المستشرقون المتحاملون ويرون مع مؤرخيهم أنهم تخلصوا من واجبهم تجاه الصرح الكبير الذى تركه العرب المسلمون ، وان كنا نرى ونؤيد رأى المستشرقة أنهم بذلك يرتكبون ظلما صارخا بسكوتهم عن أفضال العرب الأخرى سوى النقل .

ولقد عادت المستشرقة فى مكان آخر من كتابها لتوضيح قيمة التراث الأغريقى ، ودور العرب وفضلهم عليه ، ثم فضلهم على العالم الغربى . فبدأت بالاشارة الى أن العلماء الاغريق عملوا رغبة فى البحث الحق ، وملاحظة الجزئيات، ولكنهم تقيدوا دائما بسيطرة الآراء النظرية . ولم يبدأ البحث العلمى التجريبى الحق القائم على الملاحظة والتجربة الا عند العرب (١) .

خامسا ــ التراث العربى الاسلامى يكشف للعلماء العرب أن العرب صانعوا البحث العلمى التجريبى الحق القائم على الملاحظة والتجربة ، ولذلك ففى كتب التراث يكتشف الباحث أنه فقط التراث الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه . فالبحوث التى يشملها كتب التراث الأولى وضح فيها أنها بدأت تندرج من الجزئيات الى الكليات ــ كما سيوضح فيما بعد ــ ، وأصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية السليمة للباحثين ، ولعل ذلك أساسه الفكر الدينى الاسلامى الذى يأمر بالتأصل والاستنتاج ، بل والاجتهاد الدينى كان مثل أمام العلماء العمليين .

ومن مسجلات التراث تبرز الحقائق العلمية كثمرة لمجهودات مضنية فى القياس والملاحظة بصبر لا يعرف الكلل ، كما أنه مملوء بالتجارب العلمية الدقيقة التى لا تحصى ، وأن العرب العلماء المسلمين اختبروا النظريات والقواعد والآراء العلمية مرارا وتكرارا ، فأثبتوا صحة الصحيح ، وعدلوا الخطأ فى بعضها ، ووضعوا بديلا للخاطىء منها متمتعين فى ذلك بحرية كاملة فى البحث والفكر ، وكان شعارهم (الشك هو أول طريق المعرفة) ، تلك الكلمات التى عرفها الغرب بعدهم ثمانية قرون (٢) وقال فى ذلك قبة بن فضفلة « الشك محاماة عن اليقين »(٣) .

---

(١) زيغريد هوتكة : المرجع السابق ، ص ١ ــ ٤ ــ ٤٠٢ .
(٣) زيغريد هوتكة : المرجع السابق ، ص ٤٠١ .
(٢) ابن عبدربه : العقد ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ .

وكثيرا من النماذج الهامة التى يحولها التراث ، يجهلها العلمــاء العرب فى العصر الحديث ، فيروى أحد العلماء المتخصصين فى التحقيق والدراسة المتأنيــة ما قابله من مثل ذلك :

اذكر اننى كنت فى مجلس ضم طائفة من المشتغلين بالفلسفة ، فانبرى أحــد الأساتذة يقول : أن أحدث العلوم الفلسفية الآن أصبح يستخدم الرموز فى حل مشاكل الفلسفة ، وأن مشاكل الفلسفة أضحت شبيهة بمسائل الجبر والمعادلات الرياضية . فقلت ــ عالم التحقيق ــ له : أن أسلافنا العرب قد سبقوا فلاسفتنا المعاصرين فى هذا الاتجاه الذى نوهت عنه . وذكرت له أننى قمت بنشر رســالة للرئيس ابن سينا عنوانها « الرسالة النوروزية » تكلم ابن سينا فيها عن فلسفة الوجود مستخدما حروف الهجاء (ا ب جـ د ، هـ و ز ، ح ط ى ، ك ل م ن ، س ع ف ، ص ق ر) فى معادلات رياضية ينتهى بكل منها الى أحكام فلسفية خاصة ، وهذه الرسالة ضمن نوادر المخطوطات التى قمت بنشرها سنة ١٩٥٤ م ، فأخذت الدهشة صاحبى فى السبق الفنى .

وأوضح المتخصص والعالم فى التحقيق : ان فى التراث العربى الكثير من المعجزات الفريدة التى لم تتكرر فى عالم التأليف الى الآن(١) .

وهناك مثل حكى أمامى فى العصر الحديث أن أحد الرجال الدبلوماسيين مما يشهد له بالدراسة الدينية والعلمية سأل أحد المفكرين المصريين المعاصرين بعد أن أصبح رئيسا لاحدى دور النشر باستكمال كتاب « تفسير القرآن » للطبرى ، فرد عليه أن أحد المفكرين المعاصرين كتب تفسير شامل وللأسف أن الأخير غير متخصص فى هذا العلم .

ولعل هذا يوضح لعلمائنا قلة وعيهم بل وجهل بعضهم لأهمية التراث العربى الاسلامى ، وأن الأوربيين يحبسون مجلداته فى المتاحف والمستودعات ، ويخفون النادر منه وذلك ليحصلوا على ما فيه من علم ، ثم يصدرونه لنا على انه من صنعهم. وهذا مثال من آلاف الأمثلة التى يصعب حصرها نتيجة لجهل من تتلمذ على أيديهم أيضــا .

سادسا ــ هناك طريقتان فى النظر الى تراث أمة من الأمم ، فاما أن ينظر

---

(١) عبد السلام هارون : التراث العربى ، ص ٨ .

اليه من حيث تأثيره على غيره ، أو من ناحيـة منجزاته[1] . والتراث العـربى الاسلامى غنى بالطرفين .

فيعجب « ول ديورانت » مؤرخ الحضارة بتراث العرب أشد الاعجاب فى مجلده الرابع من كتاب الموسوعى « تاريخ الحضارة » ، ويأسف أشد الأسف لأن علم الباحثين بهذا التراث ناقص أشد النقص ، وحاول أن يرجع ذلك بسبب دفن مخطوطاته أو حبسها فى مكتبات اسطنبول ودمشـق والقاهرة والموصـل وبغدادها ودلهى ، هذا فوق ما يوجد من مخطوطات بالاسكوريال قرب مدريد ، وأن ما نعرفه ليس الا قدرا ضئيلا مما تكشفت عنه قرائح مؤلفى التراث العربى الاســلامى [2] .

أما « سارتون » مؤرخ العلم وصاحب المجلدات فيه ، فيذكر أنه أغفل شأن العرب مجاراة لمن يرون أن تراثهم هو تراث اليونان فى ثوب عربى ، فلما نهض بدراسة التراث العربى الاسلامى أدرك خطأه وعدل منهجه ، ثم أولى العرب من التقدير البالغ مما جعله يصف تراعهم « بالمعجزة العربية » [3] .

فاذا كان هذا حال التراث العربى الاسلامى ، فأولى الناس باعطائه ــ وليس منحه ــ الأهمية والبذل والدراسة العرب أنفسهم ، وليعلموا أن الاهتمـام به مفخرة لهم ، كما أن هذا التراث يمثل مركز بعث لهم لتحـديدا مكانا قويا فى العالم المعاصر . لا كما يدعى صاحب المثال الأخير .

ويرى « بارنز » أن حضارة المسلمين كانت أكثر الحضارات تقدما فى العصر الوسيط ، كما يرى ــ على سبيل المثال ــ أن أقدر مؤرخى هذا العصر كانوا من المؤرخين المسلمين حيث وصل بعضهم فى عرضه ودراسته وتأريخه الى ما لا يصل اليه غـيره الا فى القرن الثامن عشر الميـلادى ، ومنهم ابن خلدون الذى فاق مؤرخى العصر كله فى العالم العربى الاسلامى والغرب المسيحى ، هـذا التفوق الذى وضح فى تفهمه لمبادىء التقدم الانسانى[5] والتطورات التى مر بها ، بغد نظر وتحقيق ، وتقديمه التعليلات الدقيقة بكيفيات مراحل كل خلقة من سلسلة التطورات الحالية ، رغم ان العرب والمسلمين كانوا من مؤسسى هذه النظم ، بل المجتمعـات .

---

(1) شاخت وبوزورت : تراث الاسلام ، القسم الثانى ، تعريب حسين مؤنس واحسان صدق العمد (سلسلة عالم المعرفة) الكويت ، ذى الحجة ١٣٩٨ هـ ، ص ١٣ .

(2) توفيق الطويل : العرب والعلم ، ص ٨٤ ــ ٨٥ ، القاهرة ١٩٦٨ م .

(3) توفيق الطويل : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(4) انظر المقدمة حول علم الاجتماع .

واذا نظرنا أيضا الى التكنولوجيا الحديثة ، فسوف يعترضنا سؤال هام ، ما هو دور التراث العربى الاسلامى فيه ، وهـل كان للعلم العربى الذى يحتويه التراث أثر أو دور فيه ؟؟ ..

وللاجابة على السؤال ، نكتفى بوضع ابتكارين ضـمهما التراث العربى الاسلامى ، وكلاهما من صنع علماء عرب مسلمين ، هذين الابتكارين لولاهما لم كان للتقدم التكنولوجى فى القرن العشرين فى علم الطبيعة وعلم الرياضيات بصفة خاصة ، والتطور العلمى بصفة عامة دور فعال هام . فالتقدم التكنولوجى فى العصر الحديث يشمخ فى فصل العلم النووى ، الذى لا يمكن للباحثين فى هذا المجال أن يحصلوا فيه على طائل لو فصلوا دراساتهم عن الطبيعة وعلومها ، كما لا يمكن أن يستفيدوا أن يحصلوا على ما يحتاجونه أيضا لولا ما يجدونه مهيئا تحت أيديهم من طرق حساب سرعتها فوق كل سرعة ، يمكن تصورها فى عمليات الآلات الحاسبة الالكترونية .

فهل يمكن لهذه الآلات أن تقوم بعملياتها الحسابية لو لم يهيىء قبل النظام العشرى الذى نستطيع به كتابة رقم (أفوجدرو) — على سبيل المثال — بخمسة رموز فقط ، أو سبعة اذا تحرينا دقة أكثر ؟

ونستكمل الاجابة بتساؤل ثانى ، أليس الفكر العربى الاسلامى والتطبيق له منهم صاحب الفضل فى وضع هذا النظام العبقرى لذلك المنـاخ العقلى الذى كونته القيمة القرآنيـة فى المجتمع الاسـلامى ؟ كما أننا لو تسـاءلنا عن دور « الجبر » فى تطوير علم الحساب ، بحيث يتحول من علم الأرقام المحسوسة الى علم الرموز المجردة ، لأدركنا بعد الأخذ فى حسابنا أن اسم الجبر نفسه عربى من ناحية الصيغة والاشتقاق ، ولأدركنا ما يدين به العقل الانسانى الى العقـل الاسلامى من وسـيلة لا يستطيع بدونها السير والتقدم فى ميدان علوم التقدير والضـبط[1] .

هذه الأمثلة ، وهذه الاستنتاجات للمستشرقين الدارسين لبعض نشـاطات التراث العربى الاسلامى توضح لنا أن هذا التراث ذا الأصول الدينية ، والجذور الأخلاقية ، هو من الثراء والخصوبة الداخلية ما يجعله صالحا للنماء والتجـدد الذاتى ، وله من المرونة ما يجعله قادرا على مواجهة التطور . وهذا يعنى أيضا أنه

(١) مالك بن نبى : انتاج المستشرقين ، ص ٣٥ — ٣٦ .

مرن له قدرة فائقة على التأثير ، وأنه غنى بالمنجزات ما يجعله يعطى أكثر مما يأخذ مع الثبات فى الأصول والجذور .

سابعا ــ للتراث العربى أهمية فى تحديد شخصية الأمة العربية ودورها فى العالم المعاصر ، فهو عالم تتصارع فيه الآراء والأفكار والمذاهب ، وتقف الأمة العربية وسط هذا الصراع فى حيرة من أمرها . ولو عادت هذه الأمة الى تراثها وخاصة الدينى والتاريخى والاجتماعى ، ليجد بين الكتب ما ينير فكرها ووعى أبنائها ، فكم من فئة سواء من أهل الكتاب (النصارى واليهود) قد سبق لهم الوصول الى نظريات فكرية هدامة ، وتحوير وتزييف لنصــوص من الأحاديث والتفاسير ، اكتشفها العلماء المسلمون وسجلوها فى الكتب لتكون هداية للدارسين العرب والمسلمين فيما بعد ، وكم من حركات هدامة ظهرت فى العصر العبــاسى كشف العلماء المسلمون أهدافها وخلفياتها والجماعات التى حركتها فى الخفاء ، وسجلوها فى الكتب حتى لا يقع خلفائهم من شباب العرب والمسلمين فى مثلها ، مثل حركات الراوندية المزدكية والبابية .

الافتراءات .. وحادثة مكتبة الاســكندرية

ولم تسلم الكتب التاريخية من تزييف حقائق ، والقاء التهم لتشويه العالم الاسلامى والعربى ، وعلى سبيل المثال المؤرخ ابن العبرى الذى ادعى أن العرب أحرقوا مكتبة مدينة الاسكندرية حين فتحها ، ومما يؤسف له أن تتناقلها عنه بعض الكتب التاريخية ، ويقع فى الخطأ بعض المؤرخين بنقلهم للرواية دون نقدها نقدا موضوعيا ، ثم تناقلها بعض المحدثين أصحاب الأغراض المعادية للاســلام أمثال المستشرق العربى جورجى زيدان ومن على شاكلته ، وظلت هكذا الى أن نقدها بعض المؤرخين المستشرقين بطريقة موضوعية ، وأثبت كذبها بأدلة تاريخية قاطعة ومؤكــدة .

والخبر الذى تناقلته الكتب هــو أن « يحيى النحوى » تكلم عن (عمرو ابن العاص) فى شأن المكتبة التى أنشــأها (بطــولا ماوس فلادلفــوس) أى (بطليموس فيلادلفيوس) ، وطلب منه الافراج عن كتب الحكمة فى الخــزائن الملوكية للحاجة اليها ، فاستأذن عمرو الخليفة فى شأنها فجاءه الأمر باعدامها ، فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الاسكندرية ، فاستغرق حرقهــا ستة أشهر .

هذه الرواية أول من افترى بها ابن العبرى فى القرن السابع الهجرى ، شأنها شأن روايات أخرى مزيفة ، ولقد نقدها المستشرق الايطالى بما يلى[1] :

(أ) ان يحيى النحوى (القراماطيقى) لم تكتحل عيناه بالفتح الاسلامى ، فمات قبل أن يصل عمرو بن العاص الى مصر بأكثر من ربع قرن .

(ب) ان الاستنادات التى أقامها ابن العبرى من خوف عمرو من انتشارها ، أمر لم يثبته التاريخ على العرب .

(حـ) اذا كان عمرو قد أمر بتوزيعها على حمامات مصر ، فمن الذى يضمن عدم تسلل الأيدى الى هذه الحمامات لتأخذ منها ما تريد ، وأن هذا الاجراء لا يبعد عن ذكاء عمرو وفطنته .

(د) لم يسمع بهذا الخبر الا فى القرن السابع الهجرى ، وحاول بعض المؤرخين المتأخرين ارجاعه الى اسحق الراهب ، بيد أن ابن النديم تكلم عن اسحق الراهب ، ونقل عنه خبر بناء المكتبة فى عصر بطليموس ولم ينقل عنه خبر عن حرقها .

(هـ) أن الخبر كله لا يوجد فى النص السريانى لكتـــاب ابن العبرى (مختصر الدول) . وهذا يؤكد أنه دس على النسخة العربية .

(و) عرفنا من بعض المـــؤرخين العرب أن ينيل اسمه باليهـــودى ، والمسيحى ، والعجمى .. وغيرهم ، ولكن دائما هناك محاولة لصبغ هؤلاء بالصـــبغة الصهيونية كما فعل مع البطريق (أوتيخيوس) مؤرخ الاســـكندرية ، و (يوحنا أسقف نقيوس) الذى كتب فى فتح العرب لمصر .

والآن نحن أحوج الى الرجوع الى تراثنا ودراسته لمواجهة ما يشوهه ، لأن تشويهه تشويه لفكر وقيم الأمة العربية الاسلامية ، ومن ثم ضعف لشخصيتها، وهو ما تنفيه كتب التراث ، وحتى نعتز بشخصيتنا يجب أن نعيد تجديدها وفقا للأسس التى بنيت عليه فكريا وعقليا وروحيا .

نكبات التراث

ثامنا ــ لن نكون مغالين فى أهمية التراث العربى الاســـلامى اذا قلنا أن الاضطرابات السياسية والفوضى الفكرية التى ضربت أطنابها فى أرجاء أراضى العالم العربى اليوم نتيجة لأن الشباب عامة والمثقفين خاصة لم تتح لهم الظروف

---

(1) أمين مدنى : التاريخ العربى ومصادره ، جـ 1 ، ص ٢١٩ ــ ٢٢١ عن سـلسلة العـرب فى احقاب التاريخ .

فى سلسلة ((العـرب فى احقاب التاريخ)) ص ٢١٩ ــ ٢٢١ .

الاتصال بما تحتويه كتب التراث فى الأدب العربى القديم خاصة ، وكـذا العلم العربى الذى استفاد منه صاحبو الحضارات والتكنولوجيا الحديثة ، بل من المؤسف أنهم ينظرون الى هذا اللون الثقافى والتنوع العلمى الى أنه شيء غريب عنهم .

والأدب العربى القديم يشمل الانتاج الخصب المخطوط فى التراث ، والذى يبدأ من عهد الجاهلية حتى آفاق الخامس الهجرى(١) .

أما العلم النظرى والعملى ، ويشمل علوم التفسير والحديث والفقه وغيرها من العلوم الدينية ، وأيضا العلوم العملية مثل الطب والكيمياء والفلاحة والطبيعة والرياضيات والفلك فضلا عن علوم الكلام والتاريخ والجغرافيا . فهى الانتاج الواسع الوفير الذى يحتويه التراث منذ بداية القرن الثانى ، ان لم يكن منذ القرن الأول الهجرى الى القرن العاشر الهجرى .

وهذا التحديد لا يعنى تحديدا قطعيا ، وانما يشتمل على فترة اعداد قبلها ، وفترة تقلص متدرجة بعدها . وما هى الا الفترة التى ينضج فيها التراث بشـكل واسـع .

لقد نسى بعض أبناء العالم العربى والاسلامى أن الاسلام جاء كيانا متكاملا هدفا ووسيلة ، لذلك غزر الانتاج لعلماء العصور الاسلامية على تواليها ، بعد أن فهموا الهدف .

وان اعجاب البعض بأن حضارة الغرب فيها علم للعلم ، وآلة للآلة نفسـها دون هدف يستهدفه العلم وتستهدفه الآلة ، راجع أيضا الى عدم فهمهم ووعيهم بمعنى « التكامل فى الهدف والوسيلة » مما دفعهم الى رفض الحضارة الغربية المعـاصرة .

ولكن فات هؤلاء وغيرهم أن حياتهم الفعلية الآن ، ومنذ أربعة قرون على الأقل أصبحت أمامهم فى أهداف الاسلام ، دون أن يعيشوا وسائلها ، وكان الأمل أننا اذا ما قويت أعوارنا علما وصناعة ، ووضعنا التعاليم الاسلامية هدفا ، ازددنا اقترابا من حياة القوة عند المسلمين الأوائل(٢) ، والتراث ما هو الا تعبـير عن

---

(١) عبد السلام هارون : التراث العربى ، ص ١٦ .

(٢) زكى نجيب محمود : المرجع السـابق ، ص ١٢٩ .

هذه القوة التى تتكامل بها الحياة هدفا ووسيلة ، وما على علماء المسلمين الآن وغيرهم من أبناء العقيدة الاسلامية الا أن يعملوا على ابراز ذلك للشباب ، واعطاء الأمثلة الواقعية من سطور التراث العربى الاسلامى .

تاسعا ـ يتعرض المسلمون فى حياتهم المعاصرة لكثير من القضايا والمشكلات الحضارية والاقتصادية والاجتماعية مثل البنوك ، والتأمين ، والسفور والحجاب ، والعلاقات مع الدول الأخرى (١) ، والتى دائما ما تتغير وتتبدل . ولم تترك هذا الجانب كتب التراث العربى الاسلامى ، سواء فى كتب فقه المعاملات أو كتب الخراج الذى ألف فيه المحتسبون ، مثل « الأحكام السلطانية ، والولايات الدينية » للماوردى ، و « الأحكام السلطانية » لأبى يعلى الفراء ، و « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » لابن تيمية ، و « وكتاب الخراج » ليحيى ابن آدم ، و « كتاب الخراج » لأبى يوسف ، وكتاب « قوانين الدولة » لابن أسعد مماتى ، وكتاب « الأموال » لأبى عبيد القاسم بن سلام وغيرها من الكتب التى تناولت هذه القضايا والمشكلات ، فضلا عما احتوته الكتب التاريخية وكتب الخطط وغيرها .

وليس معنى هذا أننا نطالب بالعودة كلية لكتب الخراج ومؤلفات المحتسبين وغيرها لتنفيذها حرفيا أو كلية ، ولكن اتخاذها أساسا ومرتكزا للدراسة ، واستخدام محاولاتها فى حل المشاكل نموذجا لتقييم قضايا ومشكلات العصر الحديث كما فعل الغربيون بعد أن نسبوا فكرها اليهم ، ولنا الحق فيما يصادفنا أن نعدل من بعض أحكام الحلول والتطبيقات بما يتناسب والعصر الحديث ، حيث أن أمر الاجتهاد نادى به الاسلام ، خاصة فى الحياة اليومية للبشر .

نقول وننبه الى أن علماءنا رسموا وهذبوا وناقشوا قضايا كثيرة من هذه القضايا بل أكثر منها ، وتعب علماؤنا فى تحريرها ووضعها بمقاييس أصولية مهذبة ومنظمة .. وكل ما نطلبه البحث عن هذه الأصول وفيها اختصار المسافة والاسراع فى التقدم استنادا على أسس حضارية قام عليها مجد الامة الاسلامية (٢) .

---

(١) عبد الوهاب أبو النور : مقال (مقترحات لجمع وخدمة التراث) المرجع السابق ، ص ٢٠١

(٢) قضايا وآراء ، ص ١٧

فلم يكن نظام البنوك نظاما حديثا ، انما جاءت به كتب التراث ، بل كان فيها أسلوب التعامل بين البنوك بما هو أدق من العصر الحاضر ، وكانت لدى الدولة الاسلامية من المنشآت والمصارف الاسلامية ما كان يقوم به البنـوك فى عالمنا ، ومن هذه المنشآت الصيارف والأسواق ، والشروط الواجبة فى التعامل فيها ، والشروط الواجبة فى انشائها (١) .

ومن المؤسسات والمنشآت فى عصر الدولة الاسلامية ، والتى انشئت لخدمة الحركة التجارية : القياسر (٢) ، والخانات (٣) ، والفنادق (٤) ، والوكالات (٥) ، وغيرها(٦) .

كما كان فى الموانى نظام أشبه بنظام الجمارك الحالى ، وتبادل العمـلات المختلفة سواء الاسلامية منها ، أو الأجنبية ، وثم التعامل أيضا بنظام الصكوك الذى يشبه حاليا نظام الشيكات ، هذا النظام الذى كان معمولا به منـذ أيام عمر بن الخطاب(٧) .

وكل هذه النظم والمعاملات سجلتها كتب التراث العربى الاسلامى ، وبشىء من العناية والدقة فى الدراسة ، ونظرة لهذه الكتب يبرز لنا أننا نعيش عالة على التطورات الحالية ، رغم ان العرب والمسلمين كانوا من مؤسسى هذه النظم ، بل ان ما نعيش عليه مقتبس فى أساسه من تراثنا .

ولعل أبرز الكتب التراثية التى تنـاولت أمر التجارة ومنشـآتها ونظمها « الاشارة الى محاسن التجارة » للدمشقى ، وكتب الرحلات مثل رحلة سليمان

---

(١) تحدث الشيزرى ـ ت ٥٨٩ هـ عن طبيعة الاسواق الاسـلامية ، وما ينبغى أن تكون عليـه من الارتفاع والاتسـاع ، حيث كان لكل صنف موضعا خاصا ، وان تبنى السـقوف فـوق مواضعها لتكون حماية للمارة من الشمس والامطار .

(الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسـبة ، تحقيق السـيد الباز العرينى ، ص ١١ ، القاهرة ١٩٤٦ م) .

(٢) القياسر : مبانى بها حوانيت ومصانع ومخازن للتجار .

(٣) الخانات : مبانى كبيرة اشبه بسوق الجملة .

(٤) الفنادق : مبانى لمبيت التجار (اشبه بالفنادق الحالية) ، وقـد اعدت للتجـار الذين يفدون الى الاسواق من خارج العالم الاسلامى .

(٥) الوكالات : مبانى لمبيت تجار العالم الاسلامى .

(٦) عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الاحمر فى سقوط الخلافة العباسية ، ص ١٨٣ ، ص ١٩٢

(٧) انظر عطية القوصى : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ وما بعدها .

التاجر ، ورحلة ابن بطوطة ، ورحلة ابن جبير ، وأبو زيد السيرافى فى كتابه « أخبار الصين والهند » وغيرها .

عاشرا — ان كتب التراث العربى الاسلامى قد سجلت التغييرات الاجتماعية العميقة وأثرها فى سير التاريخ والتطور البشرى فى العالم الاسلامى وغيره ، هذه التغييرات التى كانت دافعها اجتماعيا أو اقتصاديا أو فكريا ، ونحن أكثر حاجة الى الرجوع اليها لفهم سير الأحداث العالمية فى عالمنا المعاصر وفق فكر عريق مسجل فى التراث . وما المشكلات البشرية ، والأسباب الدولية فى التعامل بين الدول الكبرى بعضها البعض من ناحية ، وعلاقتها بالدول الصغرى من ناحية أخرى الا صورة متطورة بعض الشىء بل يسيرا من الشىء من المشكلات والصور القديمة التى سجلها التراث .

على أننا يجب أن ندرك أن التراث يتسع لكل مشاكل الحياة ، كما يتسع لكل الأديان . بل ان منه من قام يعرض الحلول التى يمكن الاضافة اليها أو تعديلها بما يتناسب العالم الحالى . ولقد فسر التراث فى بعض كتبه أمرا هاما ، وهو أن الاسلام يتسع لكل الأديان من أهل الكتاب ، ويؤمن بكل الكتب السماوية المنزلة ، وبكل الرسل الذين بعثهم الله عز وجل . ويؤمن — من هذا المنطلق — أن اختلاف الناس واقع بارادة الله عز وجل .

وأخيرا فان من أبرز القضايا التى يواجهها المسلمون فى عصرهم الحاضر « قضية التشريع » وعلاقة ذلك بوضع الدساتير للدول الاسلامية عامة والعربية خاصة ، بمعنى هل يعتمد الدستور (المطلق عليه الدائم) لدولة ما على الشريعة الاسلامية باعتبارها المصدر الوحيد له ؟ أم تكون الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى ، وهى ما تنادى به بعض دول العالم الاسلامى ؟ أم يكون أحد المصادر الرئيسية بجانب القوانين الوضعية ، وهى ما تطالب به وتعمل بموجبه بعض الدول الأخرى من هذا العالم ؟

والحقيقة أن هناك دولة رائدة فى اعتبار الشريعة الاسلامية — التى مصدرها القرآن والحديث والاجتهاد — دستورا لها ، وتطبقه بصورة تدهش الجميع .

وكتب التراث العربى الاسلامى تناولت الكثير من أمر الاجتهادات لأئمة الاسلام ، وكيفية الاجتهاد .

ولو تم الاتفاق بين دول العالم العربى الاسلامى المعاصر على الحد الأدنى ، فان الشريعة الاسلامية يجب أن تكون مصدرا أساسيا ورئيسيا من مصادر التشريع لديها ، والتراث الفقهى غنى بكل الأمور التى تحتاج الى تشريع التعامل اليومى .

ولعل من أخص وأهم واجباتنا نحو التراث الفقهى بصفة خاصة ، والتراث العربى الاسلامى بصفة عامة أن نعمل على فهرسة وتحليل هذه الكتب بصورة ميسرة للبحث منها ، والكشف عن جزئياتها الكثيرة وآرائها الطيبة[1] .

فاذا كان المفكرون فى العصر الحديث يوعون حفظ كرامة الانسان وتحريره هدفهم فى التشريع ، فان تراثنا ذاخر بما يحويه من تحقيق هذه الرسالة . فالاسلام جاء ليحرر الانسان ويحفظ كرامته ويستخدم عقله ، وينشط تصوره البناء ، وهو يدعو الى الاله الواحد الحق الذى له العبودية وحده ، كما جاء فى كتاب الله المنزل « القرآن الكريم » المحفوظ ، وفى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجلتها كتب التفسير والاجتهاد وغيرها من كتب التراث ، كما يطالبه بالواجبات اللازمة نحو العبودية .

والتراث الاسلامى انسانى ، يطالب للانسان بالحقوق ، ويحفظ له حريته بما يفسره ويوضحه فى الآيات الكريمة مثل : (لا اكراه فى الدين) ، وأيضا (لقد كرمنا بنى آدم) . ولذلك فالتراث هذا تعبير عن الانسانية والحرية ، أنتجته العقول الاسلامية بدوافع اسلامية على أرض اسلامية وبمنهج اسلامى ، واشترك فى بعضه بعض المسيحيين الذين كانوا يعيشون على هذه الأرض الطيبة تحت التسامح الاسلامى .

وتستنتج مما سبق أن التراث العربى الاسلامى ليس مسألة (متخفية) أو مجالا للبحث الأكاديمى فحسب ، يتم التعامل معها وفق نفس الطرائق التى ينقب فيها عن قبر من قبور الآراميين ، أو حدث من أحداث الفراعنة ، أو زيارة قبة من

---

(١) عبد الوهاب أبو النور : مقال (مقترحات لجمع وخدمة التراث) المرجع السابق ص ٢٠١ .

قباب العصر المملوكي ، أو حجر مكتوب من أحجار الأمم السابقة كقوم سبأ وغيرهم ، كما يفهم البعض .

كما أنه — من جهة أخرى — ليس متعة تزجى للناس فى أوقات فراغهم باحياء تراثهم الشعبى (الفولكلور) بأشكاله ، وليس أيضا حقلا (اتناجيا) للسياحة والدخـل .

أى ليس آثارا عمرانية مادية وحاجيات يومية ، بل هو أعمق من هـذا . فهو اللغة والأفكار والعادات والتقـاليد والأذواق والآداب والعلوم والعـلاقات الاجتماعية والمواقف النفسية والرؤى الذهنية للكون والعالم والحياة[1] .

وهذا التراث الذى ارتوى بالاسلام وعاش فى ظل تعاليمه وأسسه ، قد أتبع مناهج محددة جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشتمل على ما ورد فى القرآن أو فى السنة النبوية أو ما استنبطه علماء الاسلام من هذه النصوص :

فالاسلام منهج متكامل للحياة ، يسير مع الأمة فى جميع حياتها .

لا ينظر الدين الاسلامى الى الحضارة المادية نظرة ذم شاملة ، انما ينـادى بالأخذ بما يصلح منها ، وما يخدم الخلق الكريم ، وما يخدم الحياة الاجتماعية الفاضلة الراقية ، وما يخدم مصالح الناس .

أى أنه يبنى المجتمعات الراقية المؤسسة على الأخلاق الفاضلة ، بشكل منظم ومتكامل . فلا يمكن لنا أن نفصـل حياتنا فى الحاضر والمسـتقبل عن التراث الاسـلامى .

والله تبارك وتعالى خلق الأمة ، ووضع هذا النظام وهو أعلم بمصالح خلقه وعباده ، فدين الإسلام دين متكامل . والرسالة عالمية وختامية ، فلابد أن تكون شاملة لجميع مطالب الحياة ، وبالتالى فالنظم والأصول مشتملة على حياة الناس ، والحياة الاجتماعية التى جاء بها الاسلام[2] .

واذا كان البعض فى العصر الحديث يدعون الى نبذ التراث فذلك لتأثرهم بمن تتلمـذوا على أيديهم ، أو تأثروا بأفكارهم من المستشرقين الذين يعملون

(١) عماد الدين خليل : موقف ازاء التراث ، ١٧ — ١٨ .
(٢) قضـايا وآراء : ص ٢٠ .

لخدمة الاستعمار والهيمنة ، والعرب الذين ينادون بذلك ما هم الى أبواق لهؤلاء المستشرقين ، يحققون هدفهم بلا وعى . فهم مفتتنون افتتانا شديدا بالحضارة الغربية الحديثة ، وهم يركزون على الجانب المادى فقط ، ولا يلتفتون الى الجانب الروحى الذى هو الأساس والدافع فى الحضارات الانسانية عامة ، والحضارة الاسلامية العربية خاصة . واذا كانت الحضارة الغربية تعتمد على الجانب المادى، فاتباعنا لها دون وعى سوف يجعلنا صورة ماسخة وضعيفة منها . واذا كان جوهر تراثنا العربى الاسلامى هو الدين فان تخلينا عن تراثنا يهز علاقاتنا بيننا .

وقد وقع هؤلاء الأبواق الذين يدعون العلم والثقافة ومن تأثر بهم فى خطأ جسيم ، حيث أنهم شطوا فى آرائهم وانحرفوا بها حتى شاع بينهم أن الاسلام لا يعدو أن يكون جزءا من تراث أمتنا ، ومساحة من مساحاته الممتدة فى الزمان والمكان ، ويتحتم علينا حمايته وصيانة لكى نحمى ونصون مكتبة موقوفة ، أو مصحفا خطيا جميلا . ومن ثم فان أقصى ما يطمح اليه انسان هو ألا يتجاوز تعاملنا المعاصر مع الاسلام حدود العلاقة بين أمة وبين تراثها الماضى . وهذا يدل على أنهم وقعوا فى الفكر الاستعمارى بجناحيه الامبريالى والصهيونى ، ويودون منا أن نسير معهم ، ونترك مصدر قوتنا الكامنة فى تراثنا .

ان هذا الأمر يقودنا — عن علم أو دون علم — لو اتبعناه ، الى الزاوية الضيقة التى نقطع فيها كل علاقاتنا العضوية الحيوية مع الاسلام ، ونجمد كل اتصالاتنا الحركية بقيمه ومبادئه(١) .

وللرد على هؤلاء ، فلن ندخل معهم فى مناقشة جدلية سفسطائية لا نتيجة نهائية من ورائها ، ولكن نوجههم الى أمر هام ، وهو أن فكرهم لم يغ بعد ، ولم يدرك بعد أهمية التراث العربى الاسلامى ، وما يمكن أن تستفيد — كما استفادت فيما سبق — الحضارة الانسانية . والأهمية ترجع الى نوعية هذا التراث ، وما يتعلق به من تطور حضارى سواء كان فى العلوم الدينية مثل ما يتعلق منها بالقرآن الكريم من تفسير وأصول تفسير وعلوم قرآن ، وكذا ما يتعلق بالسنة النبوية ، أو ما يتعلق باللغة العربية والآداب ، وكذا ما يتعلق بالعلوم العملية مثل الطب والكيمياء والهندسة . وأهمية هذا ترجع الى أن الأمة وسجلته من تراث يسيران

(١) عماد الدين خليل : موقف ازاء التراث ، ص ٢٠ — ٢١ .

على منهج متكامل فى الحياة ، يستفيد مما جد فيها وما ابتكره الفكر الانسانى من الأنظمة والأساليب ، وكلاهما تختلف من عصر الى آخر .

وعلى ذلك فأهمية دراسة التراث للأمة يجعلها تثبت وجودها وكيانها بين الأمم الأخرى ، بالاضافة الى أنه يكشف لها أشـياء جديدة تستنير بها ، ويؤدى غالبا الى فتح أذهان أبنائها الى ابتكار أشياء جديدة مستندة الى الأصول القديمة التى يحتويها التراث ، وبذلك يربطها بماضيها ، ويرسـم لها منهجا حضـاريا لمستقبلها ، وتعيشه فى حياتها الاجتماعية المعاصرة .

وعندئذ تسير الأمة فى نوع من الاستقرار ، وفى مستوى حضارى معين ، فيه التوازن ، تشعر بالحياة الحضارية المعاصرة ، ولا تنفلت من ماضيها ، وانمـا ترتكز عليه ، ويقع التناسب بينهما ، ويمكن أن يكون أساسا للمستقبل (١) .

وغني عن البيان أن مجمل التراث الذى تتكلم عنه ــ بعد أن نال بعضه الكثير من المحن والمآسى التى انتهت بفقده وحرقه ــ بضعة ملايين من المخطوطات، قدرها البعض بثلاث ملايين مخطوطة (٢) ، وهـذا تقدير وليس حصر . وحصر البعض الأماكن التى تحتبسه أو تحفظه بحوالى ١٦٧٣ مكتبة ومتحفا ومدرسة ومعهدا ، موضحا محتويات كل منها (٣) ومتبعثرة بين الشرق والغرب ، بعضها فى مكتبات معرفة ، مفهرسة بشكل أو بآخر ، وبعضها فى مكتبات خاصـة وفردية فتكشف بين حين وآخر (٤) ، وأكثر هذه المخطوطات من النوع الأخير فى الشئون الدينية واللغوية والأدبية . وهى ما تعبر عن شخصيتنا العربية الاسلامية والأسس التى قامت عليها . والنوع الأول يحتوى على آلاف قد تقرب المليون فى العلوم ، ونعنى الطب والفلك والرياضيات ، والفيزياء والكيمياء ، والجغرافيا والتاريخ ، والانشاءات (الهندسة) والفلاحة والتعدين ... الخ .. وهى الكتب التى تخص العالم الانسانى كله ، والتى مازالت الحضارة الأوربية تستقى منها الكثير بعد أن بنت عليها أسس نهضة العلوم . ويلحق بهذه الكتب أيضا مخطوطات لها نصيب من الاهتمام ، رغم أنها تبدو ترهات وأباطيل ، كالسينما والطلسمات . والاهتمام

---

(١) قضايا وآراء ، ص ٢٠ ـ ٢١ .
(٢) صلاح المنجد : معجم المحفوظات المطبوع .
(٣) فؤاد سزكين : التراث ، جـ ص .
(٤) أحمد سعيدان : مقال (التراث) ، المرجع السابق ، ص ٨

بها ودراستها ناجم عما قد تكشف عنه من حقائق جانبية تخـدم الفكر النظرى والفكر العملى .

وبعد ، فان استعراض بعض أهمية التراث ، وما يمكن أن نصل اليه من نتائج ، تحتم الاهتمام به ، تدفعنا الى القاء الضوء على أمور يجب ألا تغيب عن أذهاننا جميعا ، خاصة المنادون بالرجوع الى التراث العربى القديم الذين درسوه، وكذا الذين يقودون عملية الاهتمام ، بالاضـافة الى القائمون بعملية الاهتمام فعلا به وذلك بالتحقيق والدراسة الدقيقة ، هـذه الأمور يمكن أن نلخصها فيما يلى :

الأمر الأول : البحث فى التراث العربى الاسلامى ، يجب ألا يقل عن بحث علماء الآثار فى التنقيب عنها ، ان لم يكن يحتاج الى أهمية أكبر وأعمق ، وذلك بما يتحلونه من الصبر والبذل والتضحية والدقة والدراسة ، كما يجب أن يتولى هذا الأمر رجال ذو مواهب قادرة على البحث الدءوب (١) .

الأمر الثانى : ان دور التراث فى تصـحيح سقم الفكر العربى المعـاصر ، أشبه بماضى المريض الصـحى الذى يمكن أن يسـاعد فى تشخيص وتحـديد الدواء (٢) ، بل يكون عادة ضروريا له .

الأمر الثالث : وجود صعوبة فى اللغة المسجل بها التراث ، وهو يستلزم عند القراءة معرفة أصل الكلمة ، هل هى عربيـة ؟ أم دخيلة ؟ ، وكـذا ينطبق على الاسلوب . ومن الواجب توضـيح الألفاظ ، وحسن طريقـة العرض يتناسـب مسايرته للأساليب الحديثة ، وذلك حتى يتيسر لأبناء هذا التراث الوقوف على كنوزه (٣) .

الأمر الرابع : أن تكون الأبحاث فى التراث متصفة بالموضوعية والاصـالة والدقة ، هذا الأمر الذى يقدسه الباحثون جميعا ، وهى فى الاسلام أمانة يجب اتباعهـا .

---

(١) المرجع السـابق ، ص ١٥ (المقال)
(٢) عبد السلام هارون : المرجع السابق ، ص ١٦ ، ١٧ .
(٣) احمد سعيدان : المرجع السابق ، ص ١٦ .

وعلى ذلك يمكننا اقامة بنيان المعرفة العلمية لدى أجيالنا القـادمة ، على خلفية من انجازاتنا ، وهى المهمة الفريدة للبحث فى التراث القريد (١) .

لقد عرف العالم منذ أواخر العصور الوسطى ، وحتى عصرنا الحالى عرف أهمية ما يحويه التراث من علوم انسانية تسهم فى تقدم بناء الانسان ، وعلوم علمية تعمل على خير الانسان وتقدمه ، لذلك أنشئت المجـلات والدوريات المتخصصة التى تناولت الأبحاث لجميع أنشطة التراث ، بل وعملت على تحقيق بعض منه ، أو فصول من مخطوطاتها ، وتقديم الأبحاث عما يتناول التراث ، ولقد قام أحـد الباحثين بحصر بعض هذه المجلات والدوريات (٢) المعنية بمخطوطات هـذا التراث ، فى هذه القائمة .

أولا ــ الدوريات العربية :

١ ــ مجلة المشرق ــ بيروت .

٢ ــ مجلة الأديب ــ بيروت .

٣ ــ مجلة العرفان ــ صيدا .

٤ ــ مجلة الدراسات الأدبية ــ الجامعة اللبنانية ــ بيروت .

٥ ــ مجلة المجمع العلمى العربى = (مجمع اللغة العربية) ــ دمشق .

٦ ــ مجلس المقتبس ــ القاهرة ــ دمشق .

٧ ــ مجلة التراث العربى ــ دمشق .

٨ ــ مجلة تاريخ العلوم العربية ــ حلب .

٩ ــ مجلة المجمع العلمى العراقى ــ بغداد .

١٠ ــ مجلة المكتبة ــ بغداد .

١١ ــ مجلة مكتبة السلام ــ بغداد .

١٢ ــ مجلة لغة العرب ــ بغداد .

١٣ ــ مجلة العلم ــ بغداد .

---

(١) قضايا وآراء : ص ٢٠

(٢) الفضلى : تحقيق التراث ، ص ٤٨ ــ ٥٦ .

١٤ ـــ مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد .
١٥ ـــ مجلة الأستاذ ـ جامعة بغداد .
١٦ ـــ مجلة المورد ـ بغداد .
١٧ ـــ مجلة جامعة المستنصرية ـ بغداد .
١٨ ـــ مجلة كلية الآداب والعلوم ـ بغداد .
١٩ ـــ مجلة سومر ـ بغداد .
٢٠ ـــ مجلة كلية الشريعة ـ بغداد .
٢١ ـــ مجلة كلية الدراسات الاسلامية ـ بغداد .
٢٢ ـــ مجلة رسالة الاسلام ـ كلية أصول الدين ـ بغداد .
٢٣ ـــ مجلة البلاغ ـ بغداد .
٢٤ ـــ مجلة المؤرخ العربى ـ بغداد .
٢٥ ـــ مجلة الغرى ـ النجف الأشرف .
٢٦ ـــ مجلة البيان ـ النجف الأشرف .
٢٧ ـــ مجلة الاعتدال ـ النجف الأشرف .
٢٨ ـــ مجلة الدليل ـ النجف الأشرف .
٢٩ ـــ مجلة النجف ـ النجف الأشرف .
٣٠ ـــ مجلة المدير ـ جامعة البصرة .
٣١ ـــ مجلة كلية الآداب ـ جامعة البصرة .
٣٢ ـــ مجلة الرافدين ـ جامعة الموصل .
٣٣ ـــ مجلة بين النهرين ـ الموصل .
٣٤ ـــ مجلة اللسان العربى ـ الرباط .
٣٥ ـــ مجلة مجمع اللغة العربية ـ القاهرة .
٣٦ ـــ مجلة الرسالة للزيات ـ القاهرة .
٣٧ ـــ مجلة رسالة الاسلام لدار التقريب ـ القاهرة .

٣٨ ـــ مجلة الثقافة لأحمد أمين ـ القاهرة .

٣٩ ـــ مجلة المكتبة للحلبى ـ القاهرة .

٤٠ ـــ مجلة الأزهر ـ القاهرة .

٤١ ـــ مجلة معهد المخطوطات العربية ـ القاهرة .

٤٢ ـــ مجلة المكتبة العربية ـ القاهرة .

٤٣ ـــ مجلة عالم المكتبات ـ القاهرة .

٤٤ ـــ مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة .

٤٥ ـــ مجلة اليونسكو للمكتبات ـ القاهرة .

٤٦ ـــ مجلة الكلية = الجامعة ـ جامعة الخرطوم .

٤٧ ـــ مجلة الفكر ـ تونس .

٤٨ ـــ مجلة الحياة الثقافية ـ تونس .

٤٩ ـــ مجلة مجمع اللغة العربية ـ عمان .

٥٠ ـــ مجلة رسالة المكتبة ـ عمان .

٥١ ـــ مجلة جامعة الملك عبد العزيز ـ مكة المكرمة .

٥٢ ـــ مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ـ مكة المكرمة .

٥٣ ـــ مجلة البحث العلمى والتراث الاسلامى ـ مكة المكرمة .

٥٤ ـــ مجلة العرب ـ الرياض .

٥٥ ـــ مجلة جامعة الملك سعود ـ الرياض .

٥٦ ـــ مجلة كلية الآداب ـ الرياض .

٥٧ ـــ مجلة كلية اللغة العربية ـ الرياض .

٥٨ ـــ مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ الرياض .

٥٩ ـــ مجلة الدارة ـ الرياض .

٦٠ ـــ مجلة عالم الكتب ـ الرياض .

٦١ ـــ مجلة كلية الشريعة واللغة العربية ـ أبها .

٦٢ ــ مجلة المكتبة ــ أبها .

٦٣ ــ نشرة أخبار التراث العربى ــ القاهرة .

٦٤ ــ النشرة العراقية للمطبوعات ــ المكتبة الوطنية ــ بغداد .

٦٥ ــ النشرة العراقية للمطبوعات ــ المكتبة المركزية بجامعة بغداد .

٦٦ ــ النشرة المصرية للمطبوعات ــ القاهرة .

٦٧ ــ النشرة البيليوغرافية اللبنانية ــ دار الكتب الوطنية ــ بيروت .

٦٨ ــ النشرة الثقافية المصرية ــ وزارة التربية والتعليم ــ القاهرة .

٦٩ ــ السجل الثقافى ــ وزارة المعارف العمومية ــ وزارة الثقافة والارشاد القومى ــ القاهرة .

٧٠ ــ نشرة معهد الآداب العربية ــ تونس .

٧١ ــ البيليوغرافيا الجزائرية ــ المكتبة الوطنية ــ الجزائر .

٧٢ ــ اعلامات بيبلوغرفية ــ دار الكتب الوطنية ــ تونس .

٧٣ ــ صفحة ألوان من التراث ــ جريدة المدينة ــ جدة . وغيرها .

ثانيا ــ الدوريات الأجنبية :

١ ــ المجلة الآسيوية الفرنسية . Journal Asiatique Français.

ورمزها : JAF.

٢ ــ مجلة الجمعية الملكية الآسيوية :
Journal of the Royal Asiatic society of Gr. Britain.

ورمزها : JRAS

٣ ــ مجلة الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية :
Zeitschrift der Deutschen Morgenlaendischen Geselischaft.

ورمزها : ZDMG.

٤ ــ مجلة الدراسات الشرقية ــ ايطاليا : Rivista degli studi orientali.

ورمزها : RSO.

٥ ــــ مجلة الاسلام (بالألمانية) :
Der Islam zeitschrift Für Geschichte und kultur des islamichen orients.

ورمزها : . ISI

٦ ــــ مجلة الدراسات الاسلامية :
Revue des Etudes Islamiques.

ورمزها : .REI

٧ ــــ مجلة الاسلاميات (اسلاميكا) :
Islamica. Ed. A. Fischer et E. Leipzig, 1927.

ورمزها : .ISICA

٨ ــــ مجلة الدراسات العربية (اربيكا) :
Arabica, Revue d'études arabes fondée par E. Levy-yrovencal, leiden, Brill 1954 FF.

ورمزها : .Arabica

٩ ــــ حولية معهد الدراسات الشرقية بجامعة الجزائر (باريس) :
Annales de l'Institut d'Etudes orientales de l'Usiversité d'Alger.

ورمزها : .AIEO

١٠ ــــ مجلة المعهد الشرقى :
Mélanges de la facultté orientale de l'Université st Joseph.

ورمزها : .MFOSJ

١١ ــــ الأندلس (مجلة مدرستى مدريد وغرناطة للدراسات العربية) :
Al - Asdalus Reviste de las escuelas de setudios arabes de Mad rid y granada.

ورمزها : .Andalus

١٢ ــــ مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسى بدمشق :
Bulletii d'Etudes orientales de l'Instiut français de Damas.

ورمزها : .BEO

١٣ ــــ مجلة المعهد المصرى :
Bulletin de l'Institut d'Egypte.

ورمزها : .BIE

١٤ ـــ فصلية المتحف البريطاني : British Museum quarterly.

ورمزها : Br. Mus. qly

١٥ ـــ مجلة معهد الدراسات الشرقية والأفريقية :
Bulletin of the school of oriental and Africa studies.

ورمزها : .BSOAS

١٦ ـــ نشرة كتبخانة مركزى دانشكاه تهران = مجلة المكتبة المركزية لجامعة طهران :
Bulletin de la bibliothèque centrale de l'Université de Téhéran concernant les manuscrits orientaux, sous la direction de M. T. Danesh - Pajouh. Iraj Afshar Téhéran.

ورمزها : Bull. Bibl. Un. Tehr

١٧ ـــ مجلة الأكاديمية (الامبراطورية) للعلوم فى بطرسبورج ـ لينيغراد :
Bulletin de l'Académie (impériale) des sciences de st pétersbourg.

ورمزها : Bull. Acad. Sci

١٨ ـــ مجلة معهد الأبحاث بكلية الدكن (الهند) : واسمها :
Bulletin of Deccan College Research Institute.

ورمزها : 'Bull Deccan Coll Inst.

١٩ ـــ مجلة معهد الآداب العربية بتونس :
Revue de l'Institut des Belles lettre Arabes. Tunis

ورمزها : .IBLA

٢٠ ـــ مجلة الثقافة الاسلامية بحيدرآباد :
Islamic culture. The Hyderabad quarterly review.

ورمزها : ISI cult

٢١ ـــ المجلة الفصلية الاسلامية : Islamic quarterly.

ورمزها : ISI quart

٢٢ ـــ مجلة معهد الدراسات الاسلامية باستانبول :
Islam tetkikleri Enstitüusu Dergisi revew the institute of Islamic studies Istanbul.

ورمزها : ISI. Tetk. Enst Derg

٢٣ ـــ المجلة الآسيوية : Journal Asiatique

ورمزها : .JA

٢٤ ــ مجلة الجمعية الآسيوية بالبنغال :
Journal of the Asiatic society of Bengal

ورمزها : JASB

٢٥ ــ مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية :
Journal of the American oriestal society.

ورمزها : JAOS

٢٦ ــ مجلة الجمعية الآسيوية (الملكية بالبنغال) :
Journal of the (Royal) Asiatic society of Bengal.

ورمزها : J (R) ASB/JASB

٢٧ ــ مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ــ فرع بومباى :
Journal of the Bombay Branch of the royal Asiatic society.

ورمزها : JBBAS.

٢٨ ــ مجلة معهد اللغات الشرقية ببرلين ــ قسم غرب آسيا :
Mitteilungen des seminars Für orientaliscme sprachen zu Berlin: Westasiatische studien.

ورمزها : MSOS.

٢٩ ــ Orientalische literatur zeitung.

ورمزها : OLZ.

٣٠ ــ الشرق : مجلة الجمعية الدولية للبحوث الشرقية :
Oriens: Zeitschrift der internationalen Gesellschaft Für orient for schung.

٣١ ــ مجلة عالم الاسلام : Revue du Monde Musulman.

ورمزها : RMM

٣٢ ــ مجلة فيينا للدراسات الشرقية :
Wiener Zeitschrift Für die Kunde des Morgenlandes.

ورمزها : WZKM.

ثالثا : سلسلات المخطوطات هي مثل :

١ ــ سلسلة (نوادر المخطوطات) اصدرها الاستاذ عبد السلام هارون فى القاهرة .

٢ ــ سلسلة (نفائس المخطوطات) أصدرها الشيخ محمد حسن آل ياسين فى الكاظمية . ببغداد .

البَابُ الثَّالِثُ

منهــج

التراث العربى الاسلامى

- مصـــــــادرة ٠
- مراحل تكوين المنهج ٠
- معرفة الاسلوب العلمى من التجربة ٠
- موقفه من العلوم النظرية والعملية

من الأمور المسلم بها أن غزارة التراث العربى الاسلامى ودقته ، وسعة معلوماته وتنوعها قامت على أساس منهجى واضح ، هذا المنهج لابد أن يقوم على أسس عميقة صلبة دفعته وأيدته لاقامة هذا البنيان الشاهق العظيم .

ولما كانت مواضيع الدراسة فى التراث تقوم بعضها على أساس نظرى وبعضها الآخر على أساس علمى ، فمما لا شك فيه أن منهجه كان متنوع مرن يتناسب حسب احتياج موضوع الدراسة التى يتناوله المخطوط ، بل ومتطور وفق ظروف الأبحاث وما تتناوله من دراسات وتجارب وفكر .

والواقع أن بداية فهم المنهج يجب أن تقوم على عرض الأسس الذى قام عليها حتى يمكن فهمه ، ثم الاستفادة والأفادة منه .

مصادر التراث

ويقوم منهج التراث الاسلامى على الأسس التالية :

أولا ـــ دراسة بالغة عن التدين بالديانة الاسلامية ، وشريعتها ، ومصادرها .

الديانة الاسلامية فى جوهرها تتكون من « وحى وتفسير » ، والوحى ثابت لا يتغير ، لأنه يمثل التعبير الفعلى عن الارادة الالهية ، ويتضمن الحقائق الخالدة أبد الدهر .

وجاء عن طريق الوحى كتاب الله المحفوظ « القرآن الكريم » المنزل . هذا الكتاب المقدس هو هداية للجميع ، وبغية لكل باحث عن الحق .

ومنهج القرآن الكريم ، وهو المنهج الأقوم ، سار على طريقة أن يرسم ويحدد للناس عما هم فى حاجة اليه ، وما يستطيع العقل البشرى ادراكه وبلوغه ومعرفته فلا يبدد الطاقة العقلية التى وهبها الله فيما لا ينتج ، ولا يثمر . ولنا فى الآية عبرة :

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) (١) .

---

(١) سورة الزمر آية ٩ .

فالقرآن شفاء من الاتجاهات المختلفة في الشعور والتفكير ، فهو يعصم العقل من الشطط ، ويطلق له الحرية في مجالاته المثمرة ، ويكفه عن انفاق طاقته فيما لا يجدي ، أي يجعل النشاط العقلي منتجا مثمرا مأمونا .

أما التفسير فهو ما يثيره الوحي من رد فعل في العقل الانساني ، والمعنى اللفظي له كشف الغامض وتوضيحه ، والشرح وما تنطوي عليه الآيات من معان وأسرار وأحكام أي الشرح والبيان للفهم والادراك .

ونظرا لأن العقل داخل في الزمان ، فهو مقيد به .

فالوحي يبقى على مر القرون دون تغيير ، ولا يخضع له نهائيا ومطلقا ، في حين أن التفسير يتعرض على مر العصور لضغوط القوى الداخلية والخارجية ، تلك الضغوط تعطي الجماعة شخصيتها في كل فترة من فترات التاريخ[1] أي ما تعارف بعنوان الفكر الانساني ، وما ينتج عنه من علوم وتجارب .

والتفسير أيضا يوضح اعجاز القرآن ، والاستمرار في معرفة مكنوناته عبر القرون ويقوم بعمل الاطار الذي ينظم علاقة الانسان بخالقه .

ثانيا — العلم والتأمل والدراسة :

لقد أوجد القرآن والدين الاسلامي المناخ للبحث العلمي ، والاهتمام بالعلم ، فقال الله تعالى في كتابه « هل يستوي الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون » [2] . فضلا عن أن لفظ العلم جاء في القرآن الكريم في أكثر من ثمانمائة موضع[3] .

كما كانت لتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم أثرها في الاهتمام بالعلم ، فلم يترك فرصة أو مناسبة لتعليم صحابته الا واغتنمها . وناشد المسلمين بضرورة الاتجاه اليه وهذا واضح من خلال قوله الشامل الجامع الموجز (العلماء ورثة الأنبياء)[4] . ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة[5] .

---

(١) شاخت وبوزورت : تراث الاسلام ، قسم ٢ : ص ١٩٥ .

(٢) سورة الزمر ، آية ٩ .

(٣) فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، طبعة الشعب ، مادة علم ص ٤٦٠ ، ٤٨١ .

(٤) صحيح البخاري ، جـ١ ، ص ٣٦ .

(٥) الشيشاني : حقوق الانسان ، ص ٥٨٠ .

والعلم فى جوهره : البحث عن الحقيقة ، والعمل على ايجاد الوسائل المحققة لراحة وكرامة الانسان عامة .

والمعروف أن الحضارات ــ كيفما كان لونها وزمنها ــ تقوم على دعائم العمل فى صوره وأشكاله وفنون التى أبدعها ويبدعها الفكر الانسانى منذ انطلق العقل البشرى جوابا فى أودية الحياة ، يسهد لها فى مدارج التقدم العملى ، يبنى ويشيد ويجدد .

والعلم هو أصل بناء الحضارات ، والعمل ثمرته وتطبيقه ، فلا وزن لعلم لا يثمر عملا ، ولا ثمرة لعلم لا يأخذ مجاله فى التطبيق الايجابى الذى يعطى الحياة قوتها الدافعة ويدفعها الى مداها المقدور لها فى آفاق الرقى الفكرى ، والاجتماعى ، والعمرانى ، ليسعد فى ظلها الذين يواكبونها فى سيرها(١) .

والتراث العربى الاسلامى تعبير عما وصلت اليه الحضارة العربية الاسلامية، بفضل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانوا أحرص الناس عليه وجمهور علمائها المسلمين المؤمنين فى علاقاتهم بمالك العلم كله ، وحسبما رسمه لهم دينهم الاسلامى من دور فى التقدم الانسانى .

وعلى ذلك ، وتلخيصا لما سبق ، فالعلماء المسلمون الذين انتجوا الحضارة الاسلامية التى أبهرت العالم عبر العضور الوسطى والحديثة ، فمازالوا يفحصون فيها ويدرسون ، هؤلاء العلماء قاموا بدورهم على الأساسين :

الأول ــ الايمان بكل ضروبه وأنواعه ، بالله تعالى ، وعقيدته ، ورسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بكل شمائله وسائر ركائز الايمان .

الثانى ــ الايمان بالعلم والعمل الانسانى المثمر لصالح المسلمين والانسانية.

فصار انتاجهم ملتزما قويا صلدا ، عمل فى سائر مجالات الفكر والاجتماع ، وضع أسس التربية السلوكية للأفراد والجماعات ، والأمم والشعوب ، فصار فيما بعد تراثا كبيرا غزيرا ، يشمل كل مناحى العلم والعمل الانسانى .

ولعل أبرز ما يؤكد عظمة الحضارة العربية الاسلامية ، وما نجم عنه من تراث ، فضلا عن التزام العلماء بالمنهج الاسلامى . من أن هؤلاء العلماء أنفسهم

---

(١) الشيخ محمد الصادق عرجون : مقال «تراثنا الحضارى» مجلة الوعى الاسلامى ، السنة العاشرة ، العدد ١/١٣ جمادى الاولى ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

صانعى الحضارة والتراث كانوا من علماء المسلمين الذين تعلموا أمور دينهم قبل أن ينتجوا فى الحضارة ، وقدموا لنا مخطوطات وفكر التراث العربى الاسلامى .

وهذا يتطلب منا استعراضا موجزا لهؤلاء العلماء الذين كانوا من فقهاء الدائن الاسلامى ، فمن أمثلة التخصصات والعلماء :

أولا ــ التخصصات التى تناولها الكتاب والعلماء وحفظته كتب مخطوطات التراث من الفكر الدينى والنظرى :

(أ) التفسير والعلوم القرآنية .

(ب) الفقه بكافة مذاهبه .

(جـ) علم التاريخ والسير بكافة صوره من سيروطبقات .

(د) علم الجغرافيا الذى خرج من التاريخ نتيجة لوصف طرق الحج والتجارة ، وسجل الرحلات التى قام به علمائهم ، فصارت جمعا بين النظر والعمل .

(هـ) علم الاجتماع الذى تطور على يد المؤرخين والجغرافيين لوصفهم لعادات الشعوب والجماعات ، ووضع التبريرات والتفاسير لما ينتابها من تغير ، وانطبعت عليه من عادات وفق شهود العيان ، وقد كان المؤرخين والجغرافين شهود عيان معاصرين لهذه الجماعات .

(و) علم الكلام ، أو ما درج عليه علماء الغرب باسم « الفلسفة » . وينقسم الفلاسفة المسلمون الى : متكلمون (عقليون كالمعتزلة ، ونقليون كالأشاعرة) ، ومتصوفة وفلاسفة .

ثانيا ــ أمثلة من التخصصات والأفكار العملية والتجريبية :

(أ) علم الفلك .

(ب) علم الرياضة والهندسة التى قامت عليها النهضة العمرانية (علم الأرقام) .

(جـ) علم الكيمياء والنبات ثم ظهر فيما بعد علم الفلاحة .

(د) العلوم الطبيعية مثل الصوت والضوء .

(هـ) علم التاريخ الطبيعى .

(و) علم الطب والصيدلة .

هذا بخلاف أفكار أخرى تناولتها كتب وتخصصت فيها .

أما من ناحية العلماء ، فان جل من نبغ فى العلوم النظرية والتجريبية علماء من أصحاب الفقه ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

١ ــ الكندى : كان من الفلاسفة ، ونبغ فى الرياضة (الهندسة والحساب) ، والموسيقى والفلك والطب ومن مؤلفاته « رسالة فى العلة الغريبة فى الكون والفساد » .
ومن أبرز أقواله : « العاقل من يظن أن فوق علمه علما ، فهو أبدا يتواضع لتلك الزيادة .. والجاهل من يظن أنه قد تناهى ، فتمقته النفوس لذلك »[1] .

٢ ــ ابن مسكويه : المؤرخ ، وكان من ألمع الفلاسفة فى مجال الأخلاق ، واشتغل بالطب .

٣ ــ ابن سينا : صاحب الدراسات فى الطب والفلسفة والرياضيات ومن مؤلفاته كتاب « الأدوية القلبية » ، ومقالة فى هيئة الأرض من السماء وكونها فى الوسط .

٤ ــ ابن طفيل : الطبيب والفيلسوف .

٥ ــ ابن رشد : الفيلسوف وصاحب التفسير المجازى للقرآن الكريم ، وصاحب موسوعة الطب الذى ظهر باسم « الكليات فى الطب » وصاحب كتابى « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال » و « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد أهل الملة » .

٦ ــ الرازى : الطبيب والكيميائى والفيلسوف ومن مؤلفاته « سر الأسرار فى الكيمياء » وكتاب « المدخل الى المنطق » وكتاب « فى وجع المفاصل » ، وكتاب « فى كيفية الابصار » .

٧ ــ ابن يونس : الأديب والشاعر والرياضى .

٨ ــ ابن الهيثم : الفيلسوف والمهندس ، وله مقال بعنوان « ما تدعو اليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور الهندسية ولا يستغنى عنه بشىء سواه » ورسالة فيها أن جميع الأمور الدنيوية والدينية هى انتاج العلوم الفلسفية .

---

(١) على عبد الله الدفاع : الموجز فى التراث العلمى ، ص ٩٧

٩ ـــ البيرونى : الفيلسوف والرياضى والفلكى والجغرافى الرحالة والعملى فى العلوم ومن مؤلفاته : جداول رياضية للجيب والظل ، ورسالة فى الميكانيكا والايدروستاتيكا وكتاب عن حركة الشمس وكتاب منازل القمر وغيرها كثـيرة .

وبنظرة بسيطة الى ما سبق يتضح علاقة الاسلام الوثيقة بالفكر النظرى بل وعلاقته بالعلوم الاسلامية كالتفسير بالعلوم التجريبية .

ومن هذا المناخ انطلقت عبقرية المسلمين والعرب لتشييد الحضـارة التى كانت منارة للعالم أجمع ، وعملوا نموذجا فريدا للتقدم الانسانى ، وقد استفاد الغرب سواء من النموذج أو من الحضارة جيدا ، فعمل على اتخاذها أساسا متينا لنهضته الحديثة ، والتى أصبحنا الآن نرى فيها نموذجا للتقدم العلمى يجب أن نحتذى به ، فأصبحنا نأخذ بدلا من أن نعطى ، وأصبح علمنا مأخوذا مقتبسا بعد أن كان صاحب عطاء لخير وفير ، ولكن ليس هذا عيبا أو مركب نقص اذا لم نكن نعتبر النموذج الغربى عامل مساعدا لكشف علومنا التى تضمها المخطـوطات ، ووسيلة لاحياء طاقتنا الفكرية والعقلية ، ولاعادة كرامتنا وشخصيتنا العلمية لنا ، ولنسهم بقدر كبير فى حماية أمور ديننا ودنيانا .

مراحل تكوين المنهج

وللعلماء المسلمين الذين أنشأوا التراث العربى الاسلامى ، منهج خاص . هذا المنهج ، خاص بدراستهم ، وأساليبها والاطار الذى يقومون به من خلالها ، ومن ثم أصبح المنهج المتبع فى التراث العربى الاسلامى . وهذا المنهج وضـح ، ووضع أساسه منذ نزلت أول آية فى القرآن الكريم ، هذه الآية التى أبرزت أهم ملامح المجتمع الاسلامى .

فملامح **المجتمع الذى نزل فيه القرآن** بدأت تتغير منـذ نزول « اقرأ » ، وتولد عنها المناخ العقلى الجديد ، الذى طالبه القرآن بالعلم والدراسة « هـل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون[1] » . هذه الآية الواردة على صـورة سؤال على لسان النبى صلى الله عليه وسلم هى اختبار ، وتركيز فى الضـمير الاسلامى لقيمة العلم ، ولفضل رجل العلم فى المجتمع الجديد الاسلامى[2] .

(١) سـورة الزمـر آية ٩ .

(٢) مالك بن نبى : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

ووضع القرآن الكريم حدود المناقشة ، ومن ثم حدود الوصول الى النتائج، فانه يأمر بتحرى الحقيقة فى جميع المعطيات حتى يصل الى الاقناع .

« ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم ، فلما تحاجون فيما ليس لكم به علم[1] » .

وهكذا يضع القرآن الكريم الفكر الاسلامى فى طريق العلم ، ويزوده لاكتسابه بأحسن التوجيهات المنهجية ، ويكون منهجا تربويا علميا .

والأحاديث النبوية وغيرها من التوجيهات تدعم عمليا البناءات العقلية التى أنشأها القرآن الكريم فى الفكر الاسلامى ، فينطلق محصنا ، ومزودا وموجها للقيام بمهمته العلمية والاجتماعية .

والأمثلة كثيرة على أثر هذا المنهج فى العلم الاسلامى منذ السنوات الأولى فى الاسلام ، ونجدها مدونة ومشروحة أحيانا ، ومتخذة كاملة من الأدلة التى يستشهد بها .

فهنالك ما سجل عن مسند أبو بكر الصديق رضى الله عنه بعلله وشواهده الذى وقع عند تحقيقه فيما بعد فى بضعة عشر مجلدا وخطة الورافون فى نيف وستون جزءا .

فعمر بن الخطاب رضى الله عنه يمر يوما بدرب من دروب المدينة ، وهو يتلو الآية : « أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فانبتنا فيها حبا وعنبا ، وقضبا وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا »[2] فيقف رضى الله عنه عند كلمة « أبا » ، ويشعر أنه لا يعرف معناها وهو ليس بالمفيد ، ولم يكن علم اللغة قد ظهر بعد ، فلا يتورط فيما لا اختصاص فيه ، والا وقع فيما حذر منه القرآن الكريم فى قوله لليهود « فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ » .

وإننا لنرى عمر رضى الله عنه لا يقف الا هنيهه عند الكلمة التى أوقفته ، والتى لا تنقص شيئا ــ ان جهلناها ــ فى ضمير المؤمن ، فالمشكلة بالنسبة له ، فى هذه اللحظة ، ليست فى نطاق العلم ، ولكن فى نطاق السلوك ، ونراه فعلا يؤنب بها نفسه : « ما العمر والاب ، ان جهل ما الأب ، ان هذا الا لكلفة يا عمر » .

(١) سورة آل عمران آية ٦٦ .

(٢) ابن عساكر التاريخ (تهذيب بدران) ، ج ٤ ، ص ٣٥٢ .

ــ سورة عبس ، آية ٢٦ ــ ٣١ ومعناها (محمد فريد وجدى ، ص ٧٩٢) .

وفى تجربة أخرى لعمر بن الخطاب مع الاجتهاد ، يحاول ويجتهد فى تحديد صداق المرأة ، لأنه فى نظره ــ فوق ما يناسب ، ولكن تقف له امرأة وتعارضه لعلمها بأمور دينها ، فتقول له : « ما أعطاك الله ذلك يا عمر ، وتذكر الآية : وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا »(1) .

فسكت عمر ثم قال : ان كل الناس أعلم منك يا عمر حتى هــذه المــرأة العجوز .. وتراجع عن رأيه .

اننا نرى فى هذين الظرفين موقف العقل تجاه الاختبارات التى تعرض له ، الظرف الأول يوضح كيف يتحرر العقل فى المناخ الجــديد من الشكليات ، من سلطان المفردات الذى تعوق تقدم العلم .

والظرف الثانى يوضح كيف يتحرر من المكابرة ، وهو شر عدو للحقيقة ، وأكبر معوق للفوز بها .

واستمر الراشــدون فى تعليم المسلمين المنهج القرآنى فكرا وســلوكا ، فهــذا على بن أبى طالب كرم الله وجهــه يحتقر يوم النهــروان رأى المنجم ــ حتى لا يكون هــذا الأمر ســنة من بعــده ، وهو معتمد على الايمــان بالقدر خيره وشره ــ والذى يشير عليه بالانطلاق فى وقت معين ، فينطلق على غير هذا الوقت ، متعمدا ، ثم يقول على الملأ : « لو انطلقنا فى الوقت الذى أشار اليــه المنجم لقال لنا اننا انتصرنا بما أشارت به النجوم » .

وبذلك يعيد الانسان الى الجاهلية ، ويقضى على الكفر واستخدام العقــل الذى أمر به الاسلام ، ثم يؤدى الى نكسة وخطوة الى الخلف وفساد للمنــاخ الجديد الذى أوجده القرآن والاسلام .

وفى ظرف آخر يسلم الراية الى زياد بن النظر ، ويوصيه بتعليمات واضحة : « قد هذه الفئات ، واستفد برأى عالمهم ، وعلم جاهلهم » أى يعتمد على المعلومات والآراء ، ويفكر فيها ويوزن بينها الى أن يصل الى الحقيقة . وهذا هو المنهج العلمى القائم على معلومات المشاهدة وآراء أهل العلم وتجارب الجميع .

---

(1) سورة النســاء آية ٢٠

(٢) مالك بن نبى : المرجع السابق ، ص ٥٠ ، وما بعدها .

وعلى ذلك نرى فى المناخ الجديد الفكر الاسلامى يضع سلما ، يتسلقه الفرد ، وهو يدلى بعلمه لمن دونه درجة ، ويطلب العلم ممن فوقه ، فينطلق تيار العرفان فى الاتجاهين ، ومن أسفل الى أعلى أحيانا . هذا السلم هو الذى أتاح له الانطلاق من عصر الشيئية فى العصر الجاهلى ، للوصول الى تلك القمم الشامخة التى أشع منها العلم على العالم ، الذى كانت تخيم عليه الظلمات ، فوصل الى تلك الانجازات الكبرى التى تهيمن حتى اليوم على التقدم الانسانى فى سائر الأنشطة . وأخرجت لنا ملايين الكتب التى تسجل هذا التقدم ، وهو ما نطلق عليها التراث العربى الاسلامى .

ولعل المناخ الذى أوجده القرآن الكريم يتضح فيما تم فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وهو جمع الآى الكريم (القرآن) لحفظها من التلف ،ولحصرها نهائيا فى صورة لا تقبل التغيير ، أى تغيير ، بعد أن ظهر فى المجتمع الاسلامى بعد الفتوحات من كثرة الاختلاف فى وجوه القراءة ، وشاهد هذا الاختلاف فى الامصار ، وخطأ بعضهم بعضا ، فأمر عثمان بجمع القرآن وأن ينسخ على حرف واحد من الحروف السبعة ، حتى يجمع المسلمون على مصحف واحد ، بعد أن خشى تفاقم أمر الخلاف بين المسلمين ، وفى سائر الامصار الاسلامية ، بل ونسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتبا لسوره[1] .

وشكل عثمان لجنة اتبعت الأسلوب العلمى ، وتحرت فى عملها الدقة المتناهية ، وما يزال عملها موضع دهشة واعجاب من العلماء فى العصر الحديث . وكانت اللجنة من أكثر وأدق الصحابة حفظا للقرآن الكريم ، وهم : زيد بن حارثة ، عبد الله بن الزبير ، سعيد بن العاص ، عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأعطاهم عثمان رضى الله عنه الصحف التى كانت عند السيدة حفصة رضى الله عنها ، زوج رسول الله ، وطلب منهم أن ينسخوا نسخة موحدة . وأعطاهم التوجيهات المساعدة لهم فقال : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش . أى أنهم كانوا يجمع من صحف حفصة رضى الله عنها ، أى الصحف التى كانت فى بيت النبى ، ويعيدوا ما حفظه كل منهم وخاصة

---

(١) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ، ص ١٣٢ – ٣٣ – الطبعة السابقة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م – مؤسسة الرسالة – بيروت .

أكثرهم حفظا وهو سيدنا زيد بن ثابت ، وان اختلفوا فيتخذوا على لغة قريش دليلا لهم .

وكان عمل اللجنة سنة لمن يعملون فى العلم فيما بعد ، أى فى جمعهم المادة من مصادرها ، ثم فحصها فحصا جيدا ، ثم نسخها أخيرا ، وهذا هو أسلوب العمل العلمى الذى بدأه المسلمون ، وساروا على نهجه ، وأخذه العلم الحديث عنهم ، وصار أسلوبا عاما متبعا فى العلوم كلها مهما اختلف مكانة الذين يقومون به .

لقد كان عمل لجنة نسخ المصحف أول عمل علمى للفكر الاسلامى ، بل أول علمى للفكر البشرى من نوعه الذى تعمد فى تاريخه على مبدأ التسليم للقدوة ، بل لا زال يعتمد عليه حتى الآن أحيانا ، كما هو حادث فعلا فى الدول التى تقوم فكرها على هذا المبدأ .

واتبع علماء التراث المسلمين والعرب التوجيهات التى أخذوها من القرآن والهدى الذى اهتدوا اليه من سنة الخلفاء الراشدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعل ابن خلدون عمل عمله الخالد لزيادة حرصه على تلخيص البحوث التاريخية من الأخبار الكاذبة والقصص المدسوس .

ونستخلص مما سبق حقيقتين هامتين لفهم العلاقة بين الدين والتراث ، وفى بحثنا هذا نعنى بين الاسلام والتراث ، وخاصة فى أمر المنهج .

الحقيقة الأولى : أن الاسلام عقيدة ومنهاج صاغتها يد الله الحكيمة القادرة العالمة ، ومنحتها صفة الدوام التى تتجاوز حدود الزمان والمكان وأطروحاتهما الموقوتة الزائلة المتغيرة النسبية ، لكى تكون بمثابة استشراق كامل ، مرن ، يتسع لكل حالة ، ويحتوى على كل تجربة بغض النظر عن موقعها فى الزمان والمكان .

الحقيقة الثانية : أن تراث أمتنا ليس الاسلام بالشكل الرياضى كتطابق المثلثين تناظرت زواياهما . انما التراث نتاج تفاعل مع الاسلام ، ومع عدد آخر من المبادىء والمذاهب ، فهو حشد من المعطيات تتمخض عن طبيعة التجربة الانسانية والتى أحدثتها المواقف ، تنائجها معرضة للخطأ والصواب ، ومتغيرة فى الزمان والمكان(١) .

---

(١) عماد خليل : موقف ازاء التراث ، ص ٢١ - ٢٢ .

وفرق بين الذى يصنعه الانسان . وبين عمل صانع الانسان نفسه ، وهى العقيدة التى جاءت من (صنع الله الذى أتقن كل شىء) (١) .

والنشاط العلمى عند المسلمين والعلماء منهم كان منبثقا من الاسلام ، وكان بالدرجة الأولى لخدمة الدين ، ولخدمة جماعة المسلمين ، فضلا عن خدمة الانسان لأن الاسلام دين العالمين وهذا يعنى أن الاسلام المصـــدر الدائم والمستمر لمنهج التراث حيثما كان وظهر وأنتج .

والانسانية ــ على العموم ــ تمر بثلاثة أعمار من حيث تطورها النفسى(٢):

الأول ــ طور الطفولة ، وفيه تصبغ كل أحكامها طبقا لمقاييس تتعلق بعالم الأشـــياء ، بحيث تكون أحكامها طبقـــا لمقـــاييس بحيث تـــكون أحكامها فى أبسط صورها ، معتمدة على الحاسة ، أو ناتجة عن الحاجة البدائية .

الثانى ــ الطور الثانى من الحياة ، وفيه تصيغ أحكامها طبقـــا لمقاييس خاضعة لمبدأ القدوة ، أى صادرة من عالم الأشخاص . وفى هذا الطور لا تكون الفكرة حرة من تجسيد ، بحيث تكون قيمتها مرتبطة بالشخص الذى يجسدها فى نظرنا .

الثالث ــ طور الرشد : تصبح الفكرة فيه ذات قيمة فى حد ذاتها ، دون أيما تأييد من طرف عالم الأشياء أو عالم الأشخاص ، أى أن الانسانية فى العمر فى عمر النضج ، تصبح الفكرة لا تحتاج الى ضمان قيمتها من طرف الأشخاص أو الأشياء .

ولعلنا نجد فى تأملنا فى آيات القرآن ما يساعدنا ، ويوضح للجميع المنهج القرآنى الذى أمر به القرآن العلماء من المسلمين خاصـــة ، والمؤمنين المسلمين عامة باتتهاجه .

فالفكرة الاسلامية مرتبطة بذات النبى « صلى الله عليه وســـلم » الارتباط المعروف ، كأنها المجسدة فى شخصه فى نظر ذلك المجتمع البسيط الذى وجهت اليه الدعوة .

ولكن القرآن الكريم أراد أن يتحرر هذا المجتمع الجديد أن يعـــود الى باعث الرسول عز وجل ، وأن يعلم هذا المجتمع منهجا سليما فى الحياة ، ويحرره

(١) سورة النمل آية ٨٨ .

(٢) مالك بن نبى : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

من القيود المعطلة لتقدم الفكر والعلم فنزلت الآية الكريمـــة ، مؤكدة ذلك ، وآمرة باتباع المنهج . فقد قال الله تعالى (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) (١) .

ان هذه الآية نزلت بمثابة الدفعة التى دفعت للمجتمع البدائى الذى نزلت فيه ، من عصر « الشيء » والشيئية ، مباشرة الى عصر الفكر . وأن أبرز وأعظم وأعلى القدوة المتمثلة فى الرسول يجب أن تتبع فى اطار الايمان والرسالة المنوط بها ، وأن يصبح الفكر والتأمل مرجعه الى الله تعالى ، وهذا النوع من الفكر هـــو الذى يطور الانسانية والبشرية

ان المنهج القـــرآنى يقوم على التصوير ، وهو الأداة المفضلة فى أســـلوب القرآن ، والقاعدة الأولى فيه للبيان .

والتصوير يقوم على قاعدة اتبعها التراث الاسلامى العربى وعلماؤه الذين أثروه ، فهو يعبر بالصورة المحسسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية ، وعن النموذج الانسانى والطبيعة البشرية ، كما يعبر عن الحـــادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، ثم يرتقى بالصورة التى رسمها ، فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فاذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة ، واذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، واذا النموذج الانسانى شاخص حى (٢) .

ولقد علم الأسلوب القرآنى العلماء المسلمون كيفية اتباع المنهج القرآنى ، وكيف يتبعون الأسلوب فى التعبير ، فعلمهم أن عليهم التنسيق فى العبارات بتمييز الألفاظ ، ثم نظمها فى نسق يبلغ من الفصاحة رقيا ميسرا ، وهذا النسق ذا ايقاع موسيقى يتناسب مع المناخ الذى يجرى فيه البحث . كما يجب أن يكون النسق تسلسل معنوى ، وتناسب فى الانتقال من غرض الى غرض ، دون تكلف ممقوت وأن تكون الموضوعات التى طرقوها حقيقية وقيمة . أى يخرج البحث فى تناسق ينير المعانى والأغراض ، ومصورا جيدا ، ليفيد الانسان .

وقد سبق أن أشرنا أنه لا وزن لعلم لا يثمر عملا ، ولا ثمرة لعلم لا يأخذ مجالها فى التطبيق الايجابى الذى يعطى الحياة قوتها الدافعة نحـــو آفاق الرقى

---

(١) ســورة آل عمران آية ١٤٤ .

(٢) سيد قطب : التصـــوير الفنى فى القرآن ، ص ٦٢ دار المعارف الطبعة التاسعة .

الفكرى والاجتماعى والعمرانى . وهذا ما اتبعه الباحثين وعلماء العرب المسلمين غير هيابين أو مندفعين ، وغير منزلقين الى متاهات . فخرج التراث العربى الاسلامى مجددا ، ودعما لركائز الحياة الكريمة التى ترتكز على دعائم الايمان ، ومؤكدا أن ما علموه قليل من صاحب العلم كله ، وهو الله جلت قدرته عز وجلا : (وما أوتيتم من العلم الاقليلا) (١) .

والتراث العربى الاسلامى سجل فى بحر مخطوطاته المنهج العقلى ، الذى اتبعه العلماء المسلمين وجعلهم رواد فى مجال البحث عامة ، علميا كان أم نظريا ، هذا المنهج متنوع الدراسة ، والتنوع يقوم حسب احتياجات موضوعات البحوث وهو مرن ومتطور وفق ظروف مادة كل بحث ، لذلك فهم تفردوا بهذا المنهج الذى اقتبسه أصحاب العلوم فى عصرنا الحاضر .

وقبل أن نعرض لمنهج التراث العربى الاسلامى ، يجب أن نضع فى مفاهيمنا ، وأبصارنا الواعية ، أنه من العبث أن نطابق بين الآيات الكريمة المنزهة ، والنظريات العلمية التى يتوصل اليها العلماء ، بل ومن الحماقة أن نربط الصلة بينهما عن طريقة ما يسمى « تاريخ تطور العلوم » فالقرآن أرشد الى المنهج الواجب اتباعه ، وأوجد المناخ العقلى الذى يتيح للعلم والحياة التطور فالعلم لا يناط بالمعطيات العلمية فحسب ، بل بكل الظروف النفسية والاجتماعية التى تتكون فى مناخ معين ، لأن مراكز الاهتمامات العقلية تتغير من عصر الى عصر وحسبما تفرضه الظروف المتغيرة .

ونعرض لبعض جوانب المنهج المتبع فى التراث العربى الاسلامى .

فالمعروف أن العلم ساحة واحدة تقوم على قسمين :

الأول : قسم الحياة الخلقية والجمالية سوء فى علوم الدين أو اللغة أو الأخلاق أو التاريخ أو غيرها من العلوم التى تعتمد على التصور العقلى ، والتسجيل الحدثى ، وهى ما اتفق على تسميتها بالعلوم النظرية .

الثانى : قسم للعلوم العملية وما يتفرع عنها من صناعات ، ويكون منهجه قائما على تقصى الوقائع قبل صياغة القوانين مثل الطب والهندسة والكيمياء ، وهى ما اتفق عليه بالعلوم العملية .

---

(١) سورة الاسراء آية ٨٥ .

واذا نظرنا الى هذا التقسيم المتبع ، نرى أن جزء من القسم الأول يعتمد على أساسيات مسلم بها لدى المؤمن ، ومن ثم كانت أبحاثه دون أن يقترب منهـا بل لتوضيحها ، وهذا يستدعى التأمل والتفكير ، والقسم الثانى يعتمد على التفكير والتأمل ثم الوصول الى النتائج . وكلا الطرفين يعتمد على التأمل والنظر والتعلم والاحاطة بكل معلوم يصدر عن المعقول ، وهو ما علم به المنهج القرآنى وما سجله العلماء فى كتب التراث الاسلامى .

ولكن من الواجب الملزم أن نـدرك أنه ليس من الحـق أن نزعم أن كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب ، مندرج فى ألفاظه ونواهيه ، فان كثيرا من آراء العلماء التى يستنبطونها أول الامر لا يعدو أن يحسب من النظريات التى يصح منها ما يصح ويبطل منها ما يبطل ، فعلى قدر مرونة التكيف مع سلوكنا العملى بهذه النظريات أو النتائج[1] يبرز أمر المراجعة المستمرة لها ، لمسايرة الأحداث المتجددة، وبذلك لا نستغنى على الدوام عن التعديل واعادة النظر من حين الى حين . وبهذا يكون تطور الحياة وتجددها نحو ما هو أصلح وأبقى . وهذا ما جعـل التراث العربى الاسلامى متجددا دائما عبر سنوات انتاجه ، ومؤثرا فى شتى الحياة والفكر وخاصة فى ميدان العلوم العملية ، حيث أن هذا الميدان لا حيلة للانسان فيها الا أن يلتزم منهج التفكير العملى .

وبعد ، نبدأ بدراسة منهج التراث العربى الاسلامى فى كل من القسمين .

فالقسم الاول : يعتمد فيه العالم ، بل والمتأمل ، والباحث ، على الاهتـداء بمبادىء مسلم بها ، أو أوليه قبل الخوض فى التفصيلات ، وهى فئة كانت موجودة فى التفكير فى مؤلفات التراث العربى الاسلامى ، ويلزم أن نبقى عليها فى ميادين الحياة الخلقية والفقهية .

وهذا القسم يعتمد على الطريقة الادراكية فى البحث . هذه الطريقة يرى أنها كانت نهجا مأثورا عن العرب المسلمين ، ووضحت فى تراثهم .

والطريقة لا تصعد من الشواهد الجزئية ، والأحداث الجارية الى المبدأ العام الذى يستقطبها ، بل كانت تهبط مسلمات ومبدأ تفرض نفسـها عليهم فرضـا ، ليستخرج منها ما يستخرج من قواعد للفكر والسلوك . على أن مصادر الالزام قد تتعدد فاما أن يكون ملزما لكونه وحيا من السماء . أو أن يكون الهاما بفكرة ،

---

(١) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة اسلامية ، الطبعة الاولى بدون تاريخ ، ص ٩٠

أو حدسا لها (بالمعنى الاصطلاحي لكلمة حدس ، وهو أن يكون الادراك عيانا عقليا مباشرا) ، أو يكون ملزما لأنه تقليد راسخ ، أو عرف بين الناس تواترت به الاعوام .

هذا يعنى أن العقل العربى المسلم يلمع أولا بالمبدأ العام ، ثم يتدرج الى تفصيلات التطبيق لا فرق بين أن يكون المجال فى ذلك : مجال علم رياضى أو طبيعى، أو أدب أو فن ، أو مجال لغة (1) .

فمن ناحية الوحى : فقد سبق الاشارة اليه ، هو ثابت لا يتغير ، يمثل التعبير الفعلى عن الارادة الالهية ، ويتضمن الحقائق الخالدة ، وما على الانسان الا العمل على ادراك المقاصد منه ، وفهمه ، ومحاولة تفسيره ، ويعبر عن الوحى القرآن الكريم ، كتاب الله المنزل .

أما من ناحية الافكار ، والحدس ، أو العرف المتواتر بين الناس ، فالأمثلة عليه كثيرة ، ونأخذ منها المثل الأول فى مجال اللغة العربية ، معجزة الانسان العربى، والتى تعبر عن أبرز وأخلد شىء فى التراث العربى الاسلامى ، خاصة بعد أن كرمها الله تعالى بنزول القرآن الكريم بها ، فهو اعجاز ببلاغته للمعجزة التراثية العربية .

فأول ما يميز العربى ــ بداهة ــ هو أن لسانه عربى واذا كان ذلك صحيحا بالنسبة الى كل لغة وأصحابها ، فهو صحيح بصفة خاصة الى العربى ، وذلك لأن عبقرية العرب الأولى فى لسانهم ، فهم لم يعتزوا بشىء اعتزازهم بلغتهم ، وهى المجال الأساسى الذى انصبت عليه طاقتهم الفنية ، ولا عجب أن يكون القرآن الكريم هو معجزة الاسلام ، والذى أدركه العربى قبل الاسلام وبعده . فهؤلاء كفار قريش فى لجاجة الأنكار : « أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » (2) الا أن قائدهم الوليد بن المغيرة ــ رغم انكاره يعترف فيقول عن القرآن « فماذا أقول فيه ؟ والله ما منكم ــ كفار قريش ــ أعلم منى بالشعر ولا برجزه ولا بقصيدة ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقوله ــ الرسول صلى الله عليه وسلم عند قراءة القرآن ــ شيئا من هذا . والله : ان لقوله لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه ليحطم ما تحته ، وانه ليعلو وما يعلى » ، ثم ادراك أكثر من هذا

---

(1) زكى نجيب محمود : قيم من التراث ، ص ٨ .

(2) سورة الفرقان آية ٥ .

بعد الاسلام والايمان بالدين ، ادرك المعانى الذهنية التى تخرج فى صورة حسية والمعانى المجردة التى تصور الحالات النفسية للانسان ، وما يرسم عنها من نموذجا انسانيا واضح المعالم . ندرك ذلك فى الآية « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار ، فأنقذكم منها (١) » وهى جمال فى التصوير وتعبير عن حالات نفسية وأخيرا جمال فى التعبير (٢) .

وصفات اللغة تظل قائمة ، طالما احتفظ أهلها بنفس عاداتهم فى التفكير ، ومن الخطأ أن تعتبر اللغة كائنا مثاليا ، تتطور مستقلة عن البشر ، انها لا توجد خارج أهلها الذين يفكرون ويتكلمون بها . فان جذورها متأصلة فى أعماق الضمير الفردى ، حيث تستمد قوتها لتورق وتزدهر على شفاه الناس . والضمير الفردى هو عنصر من عناصر الضمير الجماعى الذى يفرض قوانينه على كل فرد . وليس تطور اللغة الا مظهرا من مظاهر تطور الجماعة (٣) ، وهى وفقا لمنهج التفكير العربى الاسلامى ، تقليد راسخ وعرف تواترت به الاعلام .

فاذا نظرنا اليها نجد أن مفرداتها جاءت انبثاقا من ينابيع تدفقت منها مجموعات ، وكأن هذه المجموعات انعكاس للقبائل والعشائر يرتد كل منها الى حد كبير ، وأما تلك الينابيع الدفاقة بمجموعات الألفاظ ، فهى الأصول الثلاثية ، ويكفيك الأصل الثلاثى لتظل تخرج من جوفه مشتقات ، فيكون لك فى هذه المشتقات ما تواجه بين مواقف الحياة الواقعية جميعا ، انك فى اللغات الأخرى قد تضطر — فى حالات كثيرة — الى حفظ المفردات كما هى ، وبغير تعليل ، لأنها هكذا جاءت ، وأما فى العربية فعندك أصل واحد — هو الثلاثى فى معظم الأحيان — ولا ضرورة بعد ذلك لحفظ المفردات ، وكل ما عليك أن تفعله ، هو أن تشتق من ذلك الجذر أى فرع تشاء ، فهى لغة تنسقها قواعد مطردة لا يشذ فيها الا أقل من القليل ، والقواعد بدورها تنحدر من مبدأ يضمها ، فاذا عرفت المبدأ ، نزلت منه الى القواعد ، ومن القواعد تنزل الى مواقف التطبيق .

ولنأخذ مثلا بكلمة « عقد » ، فاذا بدأت بها أنبتت لك فروع قد تبدو متباعدة المعانى ، لكنها معان من أسرة واحدة ، جدها الأول هو هذا الثلاثى فمنه تخرج :

(١) آل عمران آية ١٣٠

(٢) يرجع الى سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، ص ٣٦ — ٤٥ .

(٣) مراد كامل : تقديم كتاب اللغة العربية كائن حى ، ص ١٢ القاهرة ، دار الهلال .

عاقد ، ومعقود ، وعقد (بسكون القاف) وعقد (بكسر العين ، وعقيدة ، وعقدة ، ومعقد ... الخ) .. وهذا يعنى أنك اذا عرفت الجد (بكسر الجيم) عرفت الرحم وشجرة الأسرة كلها بكل فروعها .. وبسبب هذه الروابط فى مفردات اللغة العربية ، كان فى مقدور بعض علماء اللغة الأول أن تضع القواعد « العقلية » العلمية التى يقاس اليها فى معرفة الصواب والخطأ ، وفى صياغة كلمات جديدة للمواقف الجديدة، دون الخروج على أصول اللغة وروحها . هذه القواعد والكلمات الجديد ومشتقاتها تمتلىء بها كتب التراث العربى الاسلامى فى شتى نوحى المعرفة ، بل هذا التراث الذى لا يضيع جهد علمائه ، ويذكرهم دائما حيث كانت مكانتهم العلمية .

وهذا عكس اللغات الأجنبية الأخرى ، فالانجليزية مثلا تجد كل معنى قد جاء من ناحية وعليك أن تحفظ كل كلمة بمعناها مستقلة عن الأخرى ، وما يقال على لانجليزية يقال على سائر اللغات اثوربية .

وبذلك كان المنهج العربى الاسلامى أكثر واقعية فى الحياة ، لكون الحركة الهابطة من العام الى الخاص ضرورة الانطلاق للتطور فيها ، وهذا يؤكد بلاغتها التعبيرية والتصويرية (١) .

ومثال آخر وهو ما يخص الجانب الاخبارى ـ وهو قسم كبير من القرآن الكريم ـ لا يمارى عاقل فى أنه لا يعتمد الا على التلقى والتعلم ، بل، هو يعتمد أيضا على الذكاء والاستنباط والشعور ، ونهج العلماء العرب المسلمين فى هذا الجانب الأخبارى من العام الق الخاص .

فقد ذكر القرآن أنباء من سبق من الأمم والجماعات والأنبياء والأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة كما يذكرها شاهد العيان مع طول الزمن الذى يضرب فى أغوار التاريخ (٢) ، ولم يعاصر الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الأمم ، وهذه الأحداث ، ولم يعاصرها أى من الاخباريين الذين كتبوا فيما بعد (وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ، ولكنا انشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم

---

(١) زكى نجيب محمود : قيم من التراث ، ص ٨ ـ ١٠ .

(٢) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ، ص ٤٣ .

آياتنا ولكنا كنا مرسلين) (١) . ولم يقتصر على ذكر الأمم ، بل علم الاخباريين ، كيف يتخذون التوقيت أساسا لذكر أخبارهم . ففي قصة نوح (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) (٢) وفي قصة أصحاب الكهف (ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا) (٣). وكلا التوقيتين عند أهل الكتاب فالأولى في سفر التكوين من التوراه ، والثانية يذكرون عنها ثلاثمائة سنة شمسية ، وما جاء بالقرآن الكريم هو فرق عدد السنين الشمسية بالقمرية التي كان يعتمد عليها العرب .

فاذا انتقلنا الى العصر الاسلامي ، فنجد أن ما من اخباري كبير كتب الكتب التاريخية الأمهات التي هي رمز للتراث العربي الاسلامي ، قد عاصر مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ان بعض الصحابة والاخباريين الأول لم يكونوا ضمن الجيش الاسلامي في بعض المغازي ولم تعرف وضحة فترة تسجيل المغازي الا بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذي يروى أن رجلا قدم عليه من اليمن فقال له : رأيت شيئا يسمونه التاريخ يكتبونه من عام وشهر ، فأعجب عمر ذلك وقال (هذا حسن فأرخو) ، أي استخدموا (٤) هذا الأمر كتحديد الفترات (٥) .

وهكذا كان على الاخباريين أن يهبطوا من العام الى الخاص ، فيتناولوا الأحداث القديمة التي وردت في القرآن باعتبارها قضية مسلمة ، وما عليهم الى أن يصلوا الى تفصيلات لها أو تفسير أو تعليل للأحداث ، والتفصيلات الصغيرة يمكن أن يحصلوا عليها ممن أسلم من أهل الكتاب ومن كتبهم السابقة ، والتفسير والتعليل باعتبار أن ذلك أمرا من أوامر القرآن الكريم ، وهي الوفاء لأمانة الكتاب في حثهم على طلب المعرفة حيثما وجدوها . فاذا انتقلنا الى المغازي ، فأصحاب التاريخ والاخباريين من العرب المسلمين لا يناقشوا الحدث فهو أمر مؤكد غير قابل للمناقشة ، ودورهم وضع الدقائق وتفسير الأحداث ، وتعليل الحركات التي صاحبت هذه المغازي ، فهم لا يألون جهدا في الحصول على تفصيلات عنها من العيان لها ، أو ممن روى لهم عنها ، بل ويقومون بالترحال الى مواقع هذه المغازي

(١) سورة القصص ، آية ٤٤ ، ٤٥ .
(٢) العنكبوت آية ١٤ .
(٣) الكهف آية ٢٥ .
(٤) السخاوي : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ٧٩ — ٨٠ .
(٥) حسين سليمان : المدخل الى علم التاريخ ، ص ٢٤ .

لتصويرها التصوير الحقيقى ، ولوصف الأماكن وصفا دقيقا يمكن من خلاله فهم التفصيلات الجزئية والكلية عنها . ويعرفون مدى ما تعرض لها الجيش الاسلامى .

وفى كل هذه الحالات التى نجدها مدونة فى التراث العربى الاسلامى ، انما تتبع المنهج الادراكى الذى يقوم على ادراك المبدأ العام ثم التدرج فى تفصيلات التطبيق .

والمثل الثالث التى نعرض له هو « ميدان الأخلاق » فى الفكر الفلسفى فالأخلاق طابعا مميزا للثقافة العربية الاسلامية. فاذا أجرينا موازنة بين الطابع المميز للثقافة العربية الاسلامية ، وطبائع الثقافات الأخرى ، نجد أن الأخيرة ترتكز على التحليل العلمى لظواهر الطبيعة ، ومنها ما يدير أرجاءه حول محور العسكرية والقتال والغزو ، منتصرا مرة ومدحورا مرة أخرى ، مما يجعل الأولوية عندهم للابداع الفنى من عمارة ونحت وتصوير ، أما الثقافة العربية الاسلامية قد أقامت ركيزتها الأساسية على الاطار الذى ينظم علاقة الانسان بربه ، والمبادىء التى ينبغى أن تحكم طرق التعامل بين الناس ، تلك هى أساسيات ومبادىء الأخلاق .

واذا عدنا الى معرفة ذلك من التراث العربى الاسلامى ، فاننا نرى كتاب « تهذب الاخلاق ، وتطهير الاعراق » لابن مسكويه الذى يعتبر ألمع فيلسوف عربى فى مجال وميدان « الاخلاق » فنرى من صفحاته الاولى منهج السير واضحا ، فهو يبحث عن المبدأ العام الذى يصلح لأن تشتق منه قواعد الاخلاق ، التى على أساسها نميز بين ما هو خير وما هو شر فى الفعل الانسانى .

ويشرح ابن مسكويه نظريته التى تتطابق أشد التطابق ، أو هن مستقاة أصلا من العقيدة الاسلامية ، اذ أن مبادىء الاخلاق عند العقيدة الاسلامية ، هى ما نزل وحيا من الله سبحانه وتعالى على نبيه المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ، أى أنه تلتزم بالمبدأ العام الى الموقف الخاص .

فانه اذا ما عرفنا حقيقة الانسان التى فطر عليها لكى يكون انسانا ، عرفنا بالتالى بأى المقاييس تقيس الأفضل والأرذل ، فكل صفة أو فعل يدنو بصاحبه من تمثل بالجوهر الانسانى كانت أى منهما فضيلة أو رذيلة ، فالكمال فى الانسان ليس مجرد حاصل جمع كمالات أجزائه ، كأن يكون البصر سليما ، والسمع دقيقا ،

والكبد والرئتان ... الخ .. فالحكم لا يبنى على هذه الاعضاء فى أدائها لوظائفها البدنية ، وانما يبنى ذلك الحكم على مدى ما يحققه الانسان من حيث هو كائن متكامل ، الغاية التى من أجلها صوره الله انسانا .

ويستكمل ابن مسكويه ، حتى يتبين له أن للنفس قوتين ، ولكل منهما كمالها :

القوة العالمة — وكمالها ادراك المعارف والعلوم .

القوة العاملة — وكمالها تدبير وسائل العيش ونظمه ، تدبير محكما .

وعلى ان الأساس العام قد وضع ، فيسهل استخراج القواعد الفرعية التى يجب اتباعها ، لكى يتحقق الكمال التى تتطلبه فطرة الانسان .

ولقد جاء الطريق النازل من المبدأ العام الى الموقف الخاص من حيث التفكير النظرى فى فلسفة الأخلاق ، متطابقا أشد التطابق مع ما تقتضيه العقيدة الاسلامية فى هذا الباب ، اذ أن مبادىء الأخلاق عند تلك العقيدة ، هى ما نزل وحيا من الله سبحانه وتعالى على نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام . واذن فنحن مرة أخرى أمام فكرة ترتسم لنا فى بادىء ذى بدء ، ومنها نبدأ سيرنا نحو التطبيق فى عالم السلوك (١) .

والمثل الرابع نراه فى مجال الفنون — سواء كان فن الأدب أو فن التصوير أو غيرهما من الابداع الفنى . والتصوير الفكرى هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن ، والقاعدة الأولى فيه للبيان ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية ، وعن النموذج الانسانى والطبيعة البشرية كما يعبر بها عن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، ثم يرتقى بالصورة التى رسمها ، فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فاذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة . فاما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فاذا أضاف اليها الحوار ، فقد استوت لها كل عناصر التخيل (٢) . والآيات الموضحة لذلك كثيرة فى كتاب الله الكريم . ومنها تعلم العلماء العرب المسلمون تصوير أعمالهم بالصورة اللغوية التى تساعد المسلمين على فهمها ، بل وفى النواحى العلمية كانوا يرسمون الصور والخرائط الموضحة للأعمال العلمية .

(١) زكى نجيب محمود ، قيم من التراث ، ص ١٠ — ١٢ .
(٢) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، ص ٦٢ .

ولما كان الشعر هـو الفن العربى الأول بلا منازع فلا بد أن يكـون شعره تصويرا واقعيا جميلا فمثلا اذا وصف شـاعر أو تغزل فى أمر ما ، فترسم فى ذهنه صورة هذا الأمر بالصورة المثلى على اطلاقها ، كأنما هو يبدأ بتعريف منطقى لهذا الأمر ، وليس أمامه حالة شيئية بعينها ، ولكن هذه الصورة المثلى أيضا تتناسب مع البشر ونواقصه .

فاذا وصف الشاعر حصانا ، فقال عنه انه :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

فانما يصور المثال الأفلاطونى للحصان كما ينبغى أن يكون ، ثم يخلع ذلك التعريف الأمثل على حصانه الفرد ، ولا يعنيه أن يكون حصانه الفرد مطابقا للمثل الأعلى المرسوم ، فشعره أقرب الى أن صورة لفكره منه الى أن يكون صـورة لحسه .

ظل هذا المبدأ والقيمة فى الشعر الاسلامى قبل الاسـلام وبعده ، بل وحتى العصور الناضجة فى الحضارة الاسلامية التى أخذ الأدب فيها دوره الكبير .

ولعل شيوع الحكمة فى الشعر العربى أن يكون دالا على تلك الخاصة المميزة وهى نزوع العقل العربى نحو ادراك الحقيقة فى صورتها المجردة العامة ، حتى وان لم يكن قد صادف لها فى دنيا الكائنات الجزئية أفرادا تؤيد صوابها . ومن ناحية أخرى أن نزوع العقل العربى نحو ما هو مجرد ، يدركه بوعى وفهم مباشر ، وليس استخلاصا من أمثلة فردية (١) .

فاذا انتقلنا الى المثل الأخير وهو مجال الفن التشكيلى من تصوير وزخرفة وما اليهما ، وقبل أن نناقش لمنهاج ما ، لابد لنا من وقفة فاحصة دارسة وهى :

يقاس نصيب الفن الجميل من الدين بنظرة الدين الى الحياة ، فلا يقال عن دين انه يحى الفنون الجميلة أو يتقبل احياءها اذا كانت له نظرة زرية الى الحياة ، وكان ينظر اليها كأنها وصمة زرية ، والى الجسد ومتاعه كأنه رجس مرذول ، وانحراف بالانسان عن عالم الروح والكمال .

ولا يقال عن دين انه يزدرى الفن الجميل اذا كان الجمال من مطالبه ، وكانت نعمة الحياة مقبولة فى شرعة المتدين به واجبة عليه .

(١) زكى نجيب محمود : قيم من التراث ، ص ١٤ ،١٥ .

والاسلام بين الأديان قد انفرد بقبول نعمة الحياة وتزكيتها والحض عليهـا ، وحسبانها من نعمة الله التي يحرم على المسلم رفضها ، ويؤمر بشكر الله عليها . وغيره من الأديان بين اثنتين : فاما السكوت عن التحريم والايجاب معا ، أو التصريح القاطع بالتحريم والتأثيم .

أما الاسلام فانه يحل الزينة ويزجر من يحرمها ، ويصف الله الجمال ويحسب الجمال من آيات قدرته وسوابغ نعمه على عباده[1] . (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظـرين) [2] ، (أفلم ينظـروا الى السـماء فوقهم كيف بنينـاها وزيناها) [3] .

بل ان الزينة والعبادة تتفقان ولا تفترقان ، بل تجب الزينة فى محراب العبادة (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) [5] ، وفى السنة النبوية الكثير .

والدين الذى ينظر الحياة والجمال هذه النظرة القويمة السوية لا يسوغ لأحد أن يظن به تحريما لشىء من الفن الجميل أو نهيا عن شىء يجمل الحياة ويحسن وقعا فى الأبصار والاسماع . وانما سبقت الظنة الى هذا الخطأ لتشديد الاسلام فى منـع عبادة الاوثان ، ومنع ما يصنع لعبادتها من التماثيل والانصاب ، ولم يرد فى الكتاب الكريم كلمة تنهى عن عمل من أعمال الفن الجميل ، ولم يثبت عن النبى عليه السلام قول قاطع فى تحريم صنعة غير ما يصنع للعبادة الوثنية أو ما تخشى منه النكسة اليها فى نفوس أتباعها ومن يفتنون بجهالتها [6] .

والقاعدة العامة فى الاسلام أنه لا تحريم حيث لا ضرر ولا خشية من الضرر ، فأما مع المنفعة المحققة فلا تحريم ولا جواز للتحريم . لأنه فوات للمصـلحة ونهى عن المباح .

---

(1) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة اسلامية ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .
(2) الحجـر ، آية ١٦ .
(3) سورة ق آية ٦ .
(4) الاعـراف آية ٣٢ .
(5) الاعـراف ، ٢ آية ٣١ .
(6) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة اسلامية ، ص ١٠٤ .

فاذا رجعنا للمنهج العربى الاسلامى حول هذا الأمر نجد أن الانسان العربى الاسلامى يتبع منهج الرؤية المجردة ــ غاضا بصره عن عمد أو غير عمد ــ عن التفصيلات التى تميز الأفراد .

ان المصور العربى الاسلامى ، اذا ما ســور شخوصا انسانية أو حيــوانية ، صورها على كثير من الايهام فالملامح مدمج فى بعضها البعض ، وليست مفصــلة ، وذلك على نحو ما يرسم الفنان التجريدى فى عصرنا الحاضر ، فهو يستهدف الفكرة وليس تصوير الفرد المتعين الذى يجسدها ، اذ أن الافراد ــ فى عقيدته ــ مصيرهم الى الزوال ، وهو ينشد الاستمرار . والاستمرار دائما للفكرة لا لتجســيداتها المشخصة الفانية ، وهذا يعنى أن ثقافتنا العربية التى تحتويها كتب التراث العربى الاسلامى ، وتتداولها الأجيال من بعدها محورها « مبادىء » لا « أشياء » أى محورها « أخلاق » لا « جمال شكل » وهذا ما اعترف به المستشرقون أمثــال ماسينيون فى حديثه عن طرق التعبير الفنى عند المسلمين ، اذ قال : أنه لا وجود « للأشياء » فى الفكر الاسلامى ، والمسلمون فى فن التصوير يسقطون الوجوه والملامح لبطلانها .

هذه صورة من مجالات الفكر والفن فى تراثنا العربى الاسلامى ، وأن العقل العربى الاسلامى حين ينتج فكرا أو يبدع أدبا أو فنا يسير من مبدأ يأخذه من البداية مأخذ التسليم نزولا الى ما يترتب عليه من تفصيلات الحياة العملية ، وأهمية هذه الطريقة فى النظر والعمل ، هى أن يدخل الانسان خضم الحياة مزودا ببوصلة تهديه سواء السبيل (١) .

هذا منهج البحث فى العلوم النظرية فى تراثنا العربى الاسلامى . وهو مناقض تماما للتراث الغربى المتعصب فى شكل دينى باهت . وعلى سبيل المثال فان جليليه لمــا أعلن نظرية دوران الأرض لم تواجهه معارضة علمية بل معارضــة كلامية، نعنى معارضة عقائدية من قبيل الكنيسة والتعصب المسيحى الأعمى . ولم تدن جليليه أكاديمية أو مجلس علمى ، بل أدانتــه محكمة دينيــة باسم العقيدة . أى الادانة جاءت من مجموعة عوامل القمع والحرمان الموجودة فى نفسية المجتمع الذى حكم عليه بالاعدام .

---

(١) زكى نجيب محمود ، قيم من التراث ، ص ١٨ .

وفى الاسلام ، أوجد الدين المناخ العقلى الفكرى العملى ، وعلى ذلك نستطيع أن نقول لو كان جليليه يعيش فى المجتمع الاسلامى للقى التقدير ، واعتبر ممن أسهم فى المد الحضارى (١) .

الأسلوب العلمى للمنهج

القسم الثانى قسم العلوم العملية والتطبيقية وما يتفرع عنها من صناعات ويختلف منهجه عن منهج القسم الأول ، فهو يبدأ بالمعطيات الجزئية وتقصى وقائعها صعودا الى المبدأ العام الذى يضع بموجبه أساسيات نتائج البحث قبل صياغة القوانين . وهذه لامناط من استخدامها لدى العلماء العرب المسلمين فى مواد الرياضيات والكيمياء والهندسة والطب والصيدلة .. الخ .. ولن نكون مغالين اذا قلنا أن العرب المسلمين هم فى الواقع أول من استخدمها ، بل وطوروها بالصورة التى اقتبسها العصر الحديث الذى يرى أن أوربا هى التى استحدثتها مع النهضة التى قامت فى القرن السادس عشر الميلادى /الثامن الهجرى . هذا المنهاج هو ما تعارف عليه بالبحث العلمى القائم على المنهج التجريبى يتخذ من الملاحظة والتجربة أسلوبا للوصول الى القانون العملى .

ونشأة هذا المنهج مثار جدل بين الباحثين ، وخاصة الذين يتناولوا بما يعرف « تاريخ العلوم » فمنهم من رده الى قدماء المصريين منذ أقدم عصور التاريخ وبعضهم أرجعه الى أرسطو خاصة وعلماء اليونان عامة ، والغالبية ترى أنه اختراعا أوربيا فى مطالع العصور الحديثة ، بل ترد نشأته على وجه التحقيق الى فرنسيس بيكون فى انجلترا ابان القرن السابع عشر الميلادى (٢) .

وهناك رأى أوربى يمثله مستشرق باحث يرى أنه قد سرت بين العلماء الاغريق ــ الذين لم يكونوا جميعا من الاغريق ، بل كان أغلبهم من أصل شرقى ــ رغبة فى البحث الحق ، وملاحظة الجزئيات ، ولكنهم تقيدوا دائما بسيطرة الأفكار النظرية . ولم يبدأ البحث العلمى الحق القائم على الملاحظة والتجربة الا عند العرب ، فعندهم فقط بدأ البحث الدائب الذى يمكن الاعتماد عليه ، ويتدرج من الجزئيات الى الكليات ، وأصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية السليمة للباحثين . وبرزت الحقائق العلمية كثمرة للمجهودات المضنية فى القياس والملاحظة

(١) مالك بن نبى : انتاج المستشرقين ٤٠ ــ ٤١ .
(٢) د. توفيق الطويل : العرب والعلم ، ص ٣٢ .

بصبر لا يعرف الملل . وبالتجارب العلمية الدقيقة التى لا تحصى ، اختبر العرب النظريات والقواعد والآراء العلمية مرارا وتكرارا ، فأثبتوا صحة الصحيح منها ، وعدلوا الخطأ فى بعضها ، ووضعوا بديلا للخاطىء منها متمتعين فى ذلك بحرية فى الفكر والبحث ، وكان شعارهم فى أبحاثهم ، الشك هو أول شروط المعرفة تلك الكلمات التى عرفها الغرب بعدهم بثمانية قرون طوال . وعلى هذا الاساس العلمى ساد العرب شوطا طويلا فى العلوم الطبيعية ، أثر فيما بعد ، بطريق مباشر وغير مباشر ، على مفكرى الغرب أمثال روجر بيكون ، وماجنوس ، وجاليليو وغيرهم، ومن بعدهم فرنسيس بيكون .

لقد اتسمت بحوث المسلمين بالاستقصاء والاستمرار ودقة الملاحظة والاستنباط وسداد الاستدلال فسمت أبحاثهم الى مرتبة عالية ، وكان لهذا الامر أثره فى البحوث والعلوم العربية التى احتواها التراث العربى الاسلامى ، والذى عد الاستقراء والملاحظة — فى العلوم العملية والتطبيقية — أصلين أساسيين .

نخلص الى أن العرب بحق مؤسسوا الطرق التجريبية فى الكيمياء ، والطبيعة، والحساب والجبر والجيولوجيا ، وحساب المثلثات ، وعلم الاجتماع ، بالاضافة الى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية فى مختلف العلوم ، والتى سرق أغلبها ونسب الى الآخرين أى أنهم قدموا أثمن هدية للعالم الانسانى وهى طريقة البحث العلمى الصحيح التى مهدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة والتى يرى أنه يسيطر عليها اليوم (١) .

والرأى الأخير هو نتيجة لاستقراء تاريخ الفكر ، فها هو جابر بن حيان ، والحسن بن الهيثم والخوارزمى . وغيرهم ممن استنوا هذا المنهج بل وحددوا خطواته ومراحله ، وهم من العلماء المسلمين الذى يشهد لهم بالتزامهم التام بالمنهاج الاسلامى فى الفكر والتعبد .

وعلى ضوء المنهج السابق ، قسم وصنف العلماء العرب المسلمون العلوم الذين يبحثون فيها تقسيمات مختلفة ، فمنهم من كان وراقا أمثال ابن النديم ، الذى قسم التراث تبعا للمؤلفين ، والخوارزمى الذى قسم العلوم صنفين :

الأول — علوم الشريعة وما يقترن بها من العلوم العربية .

(١) هونيكه : المرجع السابق ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

الثانى ــ العلوم العملية الذى أطلق عليها علوم العجم .

ولم يختلف كثيرا تقسيم ابن خلدون للعلوم ، ولكنه كان ملتزما بما جاء بالمنهج ، ولذا جاء تقسيمه حسب المنهج ، وهو قسمين (١) :

الأول ــ العلوم النقلية ، وعرفه بما يلى « مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعى ، ولا مجال فيها للعقل الا فى الحاق الفروع من مسائلها بالأصول ، لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلى بمجرد وضعه ، فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسى ، الا أن هذا القياس متفرع عن الخبر بثبوت الحكم فى الأصل ، وهو نقلى ، فرجع هذا القياس الى النقل لتفرعه عنه ، وتشمل هذه علوم الدين وعلوم اللسان .

وأصل هذه العلوم كلها هى الشرعيات من الكتاب والسنة التى هى مشرعة لنا من الله وسنة رسوله ، وما يتعلق بذلك من العلوم التى تهيئها للافادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربى الذى هو لسان الله وبه نزل القرآن .

فالعقيدة الاسلامية صحيحة وثابتة فى ذاتها ولا تحتاج الى دليل ، وأعمالا تدل على الفاعل .

وبذلك فانه يحدد المنهج لهذه العلوم بأنه نقلى ، وليس للعقل فيها مجال الا فى الحاق الفروع بالأصول ، أى بالنصوص من الكتاب والسنة ، والالحاق بالنقل ، وأعمالها تدل على فاعلها .

الثانية ــ العلوم العقلية وبسميها أيضا الحكمية الفلسفية ، وهى التى يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدى بمداركه الى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها ، حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيهـا ، من حيث هو انسان ذو فكر ، وتشمل العلم الطبيعى ، والعلوم العددية ، والعلوم الهندسية والهيئة والطب ،و الفلاحة والكيمياء .. الخ .. أى كل العلوم البحثية والتطبيقية وعلوم الفلسفة .

على أن هناك أمران هامان يجب تداركهما : الأول رغم أن القسم الثانى من العلوم يعتمد على جمع الجزئيات وتقصى وقائعها قبل الوصول الى الكليات ، فان العلماء المسلمين كانت لهم فى هذا الأمر توجيهات من القــرآن الكريم ، جعلهم

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٠٠ ــ ٤٠١ .

يتبعون ويبحثون فى أمر كليات أمرهم بها مصدر الالزام الهام ، وهو الوحى ، ثم على اعتبار أن هذه الكليات توجيهات يتبعها الدور الانسانى ، فانهم يستخدمون الطريقة التجريبية العملية فى تحقيق النتائج والقوانين القابلة للتبديل ، ولذلك نجد أن هذه القوانين مهما تغيرت وتبدلت وفقا للحياة والظروف ، فانها تقع تحت مظلة واحدة ، ومجموع هذه المظلات توجيهات من مصدر الالزام الرئيسى ، وهو القرآن الكريم . والحقيقة المؤكدة أنه يتضمن اشارات هادية لكافة الأجيال مع تطور العصور بما يكون هديا .

أما الأمر الثانى — انه لا يوجد علم صحيح فى حقيقته يتعارض مع نص قرآنى . كتاب الله الباقى للأمة الاسلامية والعالمين ، أى الى البشر جميعا .

الخلاصة أن ما جاء به القرآن من سبق علمى ، هو الحق ، وكل معرفة صحيحة هى معرفة قرآنية اسلامية على الاختلاف فى تفسيرها ، والنسبة الى الكتاب الكريم بين فئة ترى أن المعرفة محتواه فيه اجمالا وتفصيلا وفئة ترى أن المعرفة مطلب من مطالب المؤمن بالكتاب لا يعوقه عائق منه أن يتحداها ويحققها ويهتدى بها حيث أصابها (١) .

ومن الأمثلة التى تؤكد صدق هذا القول ، نأخذ من القرآن بعضا من آياته . والأولى قوله تعالى « وأنزلنا الحديد فيه، بأس شديد ، ومنافع للناس»(٢) والتفسير أن الله تعالى يشير الى ارادته وتقديره فى خلق الأشياء والأحداث ، فهى منزلة بقدره وتقديره ، والحديد قوة فى الحرب والسلم ، فمنه قديما وحديثا تصنع منه آلات الحرب كالدروع ، والرماح ، والتروس والدبابات ، وفى السلم حديثا كانت الثورة الصناعية قائمة عليه ، وما زالت الآلات الثقيلة والخفيفة تصنع منه أو يدخل فى تركيب بعضها ، وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد سواء فى الآلات أو الأدوات الانتاجية ، كسك الحراثة ، والسكاكين ، وفأس الزراعة وغيرها (٣) .

والحقيقة التى ذكرها القرآن الكريم حول الأجنة وخلق الانسان .. توصل اليها علماء المسلمين من قبل وادركوها ايمانا بما جاء فى القرآن ، وتجربة من خلال

(١) العقاد : التفكير فريضة اسلامية ، ص ٨٧ —٨٨ .
(٢) سورة الحديد ، آية ٢٥ .
(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، جـ ٢ ص

دراساتهم العملية ، وما زال العــلم الحديث يكتشف مراحلها بعــد ما تقدمت الدراسة وخصصوا علما يسمى « علم الأجنة التشريحى » . فالله سبحانه وتعالى بقدرته يذكر آن مراحل تكوين الأجنة تمر بعدة عمليات دقيقة لا يستطيع الأمر بها الا صاحب القدرة الكبرى وهو القادر عز وجل . فنظرة الى الآيتين التاليتين: « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا بعد خلق فى ظلمات ثلاث » (١) ، « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم خلقناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (٢) .

فالله ، سبحانه وتعالى وهو المنشىء وضع نظاما دقيقا لمراحــل الخلق أى النشأة الانسانية ، هذه المرحلة التى تبدأ من الطور الأول من أطوار هذه النشأة والطين مصدرها الى أن ينتهى الطور الأخير وهو الانسان .

ويضع عزت قدرته المراحل التنفيذية بين الطورين وفق النظام الذى قدره لها . والذى يمر بمراحل حيث يقول « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا بعد خلق» وهذه المراحل فصلها تفصيلا دقيقا ، فيبدأ الانسان أو الجنين بنقطة مائية تخرج من صلب رجل ، فتستقر فى رحم امرأة « فى قرار مكين » أى رحم غائر بين عظام الحوض ، محمية من التأثر باهتزازات الجسم وما تتعرض له البطن والظهر . ثم المرحلة التنفيذية الثانية هو امتزاج خلية الذكر ببويضة الأنثى فتتحول النطفة الى علقة ، وتعلق بجدار الرحم نقطة صغيرة فى أول الأمر تتغذى بدم الأم . ثم تأتى المرحلة الثالثة حيث تكبر النقطة العالقة فتتحول الى قطعة من دم غليظ مختلط ، وهى المضغة ، وتمضى هذه الخلية فى ذلك الخط الثابت الذى قدره لهــا العليم الحكيم القدير حتى تأتى مرحلة العظام حيث تتحول المضغة الى عظام ، وهنا يأتى قول الله تعالى « فكسونا العظام لحما » ، وهذا التطور الجديد فى التسلسل هو « كسونا » . وهذا يعنى شيئا هاما هو أن الخلايا الأولى التى يتكون منها العظام هى غير الخلايا الثانية التى كسى بها العظام وهى اللحم . وهذا آخر ما توصل اليه علم الأجنة التشريحى .

---

(١) سورة الزمر ، آية ٦ .
(٢) سورة المؤمنون ، آية ١٦ .

وأراد الله سبحانه وتعالى أن ينبه لشيء هام ، أن هذه العملية يمر بمناخ مقدر لها ، وعلى درجة كبيرة من التناسب ألا وهو الظلمات « فى ظلمات ثلاث » كل له دوره فى الحماية والنشأة . ظلمة الكيس الذى يغلف الجنين ، وظلمة الرحم الذى يستقر فيه هذا الكيس ، وظلمة البطن الذى يستقر فيها الرحم (١) . هذا ما أراد الله أن يعلم به بنى الانسان ليعلوا ، ويتعلموا . وهو المنهج الاسلامى الذى أحيا العلم الاسلامى ثم التراث العربى الاسلام .

* * *

وفى النهاية فى دراستنا لمنهج التراث الاسلامى ، نقرر أن العقل لا يستطيع أن يجتهد فى القسم الأول من العلوم اجتهادا غير محكوم ، لأنها جاءت عن طريق النقل والالزام ، اما من الشارع الأصلى فى الكتاب ، أو السنة ، علما بأن مصدر السنة هو الوحى الالهى لقوله تعالى :

« وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى» (٢)

أو من قواعد ثابتة سبق ذكرها . ولا يجوز تطبيق المنهج العقلى أو غيره على العلوم النقلية .

وهنا وجب علينا أن نشير الى أمرين هامين :

الأول ــ أن علماء الحديث بذلوا جهودا دقيقة وجادة ومحكمة لتوثيق الأحاديث وتنقيتها وتنقية السنة من كل ما يمكن أن يكون دس عليها ، لذا ركزوا اهتماماتهم على الرواة ، يجرحون ويعدلون لهم ، ويضعون الأدنى شك حتى يطهر ولا يظهر حديث ضعيف أو موضوع . وكان لهذا المنهج أثره الفعال فى العلوم الدينية الأخرى مثل اللغة والأدب ، وبحيث أصبحت الرواية أصلا فى العلوم الشرعية جميعا .

الثانى ــ لو جرت محاولة لتطبيق المنهج العقلى على العلوم النقلية فان هذا يعتبر خطأ منهجى فادح واذا كان المنهج خاطئا ، فان النتائج المترتبة عليه تكون خطأ ، وهى محاولة يثيرها المستشرقون ومن تابعهم على الحديث عنها وبعض العلوم النقلية الأخرى ، ويجب الرد عليهم بالدراسة الاسلامية المتعمقة بما أوتيت من خبرة وعلم ، هذا فضلا عن اهتمامنا بتراثنا الواسع .

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، جـ ٥ ، ص ٣٠٣٩ ــ جـ ٤ ، ص ٢٤٥٠ .

(٢) سورة النجم ، آية ٣ ــ ٥ .

الثالث ــ هناك حقيقة هامة يجب توضيحها عن التفكير العلمى وطبيعته ، وهى أن العلم لا يشترط لنفسه موضوعا معينا ، اذ العلم انما يكون علما بمنهجه لا بموضوعه ، فاختر ما تشاء من موضوع للنظر ، وتناوله بالمنهج الذى يضمن لنا سلامة الوصول الى نتائج صحيحة . فاختر أى موضوع من الموضوعات يعن لك تناوله بالبحث العلمى ، فأنت بما اخترته تكون فى دائرة العلم ما دمت تنهج نهج العلم فى خطوات سيرك ، بغض النظر عن الموضوع .

وأما منهج العلم اما يرتكز على مسلمات وأساسيات ومبادىء مسلم بها ومؤمن به مسبقا ومقدما كما فى حالة العلوم الدينية وخاصة القائمة على كتاب سماوى ، ويؤمنون به كما هو عند العلماء العرب المسلمين الذين يؤمنون بكتاب الله الكريم « القرآن » وبما جاء جميعا ، أو مسلمات مفروض فيها الصدق مقدما مثل العلوم الرياضية أو ما يدور مدارها . ويكون مقياس الصدق هو سلامة استدلال النتائج من تلك المسلمات والمبادىء .

واذا طبقنا كل ذلك على ما احتواه التراث العربى الاسلامى من أساليب علمية ومنهج ، نجد أن منهج التراث كله هو اتباع كل ما سبق الاشارة اليه فى الدراسة ، بمعنى أن دراساته وأبحاثه جميعا تقوم على أساس المنهج الاسلامى بل لن نكون مغالين اذا قلنا انه هو الذى أوجد المنهج بشقيه الهابط من المبادىء العامة الى الجزئيات ، والصاعد من الجزئيات الى النتائج والقوانين العامة ، وذلك فى أقسام العلوم المشار اليها ، وكل فيما يحتاجه من أسلوب فى المنهج العلمى .

واذا كنا نتيه اليوم فى عالم الخيال عن قممنا الشامخة التى وضعت التراث الدينى والعلمى والأدبى والمناهج التى يتم الدراسة بها ، فاننا بذلك قد ساعدنا المستشرقون فيما يعرضونه علينا من تشويه ، وبما ينكرونه على علمائنا ، وعلى علومنا وينسبونها لأنفسهم ولروادهم ، وهذا ما دعى البعض منا أن يحس فى روحه بالحرمان المزدوج . فمن الأولى بنا ، ونحن سلالة وأبناء وقوم العلماء العرب المسلمون طوال أكثر من ثمانى قرون ، الذى أسع علمهم على العالم الحديث ، أولى بنا أن نرجع الى تراثنا الذى قدم الانجازات العلمية التى تهيمن حتى اليوم على التقدم التكنولوجى مثل الحساب العشرى أو الغبارى ، والجبر ،

والكيمياء وعدد من القوانين فى عالم الكائنات العضوية والطبيعية والفلك .
ولعلك ترجع الى بعض ما استخرج من كتب التراث بواسطة أحد العلماء العرب المعاصرين (١) . ليتأكد لنا أن العلماء المعاصرين الغربيين قد وصلوا الى ما سبق أن وصل اليه علماؤنا العرب المسلمين منذ قرون عدة وعلى سبيل المثال فى علم الفلك عن السيارات فى المنظومة الشمسية التى ذكرها القرآن وأوضحها النبى صلى الله عليه وسلم وتناولتها الكتب العلمية ثم فسرها بصورة أوضح فيما بعد الشهرستانى صاحب كتاب « الهيئة » ، ومن الأمثلة ذات الصبغة التاريخية الجغرافيا ، وتأويل معلمى الرياضيات عن قول الله تعالى فى سورة الكهف من قصة ذى القرنين : « حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة »(٢).

وعلينا أيضا أن تتبع المنهج الاسلامى النابع من المنهج القرآنى ، ونعلم أن التغيير الجذرى الذى أحدثه المفهوم القرآنى فى تنمية تراث الانسانية العلمى لا يقدر بانجازات يقرها أو ينفيها المستشرقون حسب أهوائهم ، ووفق ما يخدمونه بل نقرر بما أحدثه المفهوم القرآنى فى المناخ العقلى والبناءات العقلية منذ نزلت « اقرأ » .

كما يجب على الانسان الذى يسير وراء المستشرقين فى وضع تراثنا كله تحت منهجهم العلمى لأنهم اذا طبقوا ذلك ، بفرضية خلو نفوسهم وقلوبهم وعقولهم ــ قدر استطاعتهم ــ من آثار العصبيات والمنازعات والأهواء ، يكونوا قد أخطأوا فى نظر البعض منا لأن نتائجهم التى استخرجوها من منهجهم لم ولن تأت بما ألفناه .

وانا لنفرض جدلا أن جمهرة المتصدين لتراثنا من المستشرقين من شرقيين وغربيين لا تخلو أنفسهم من هوى ، ولا تبرأ من اعتلال ، ولكن الى أى هؤلاء المتصدين نطمئن أو نكون أكثر اطمئنانا وأقرب الى تعرف الحقيقة والظفر بها : الى هذا الذى يجهل المنهج العلمى فلا يكاد يصل الى صواب الا عرضا ومصادفة وندرة مثل الرهبان والقسيسين ورجال الكنيسة أم الى ذلك الذى يحارب هواه أو حتى يسالمه ــ الا نفرا تناولت أقلامهم ذلك التراث بالنيل منه عن عصبية أو

(١) عباس محمود العقاد : والامثلة كثيرة فى كتابة « التفكير فريضة اسلامية سواء فى فصل العلم أو غيره .

(٢) سورة الكهف آية ٨٦ .

عقيدة أو مطمع سياسى ، فسخر العلم ليجعل من الحق باطلا ، وهم كثيرون يعملون فى الوقت الحاضر تحت أنظمة سياسية مشبوهة معادية للاسلام والعرب ، وهؤلاء يأخذون بالمنهج العلمى ، فنراهم يطأون الامصار وينفقون الثروات ويفنون العمر بين المخطوطات والآثار والمصنفات مطلعين منقبين مستنطقين مقارنين ، فلا يتقدم أحدهم بقضية الا وبيده دليلها ، ولا ينهض بدعوى الا وهو يسوق لها الأسانيد والحجج التى تحسم كل خلاف وتنفى كل ريب (١) ، وليست هذه القضايا المدعاة، والدعاوى المزيفة ثوب الحق ، وهى مفسرة تفسيرا باطلا لكل واعى ناضج فاهم للتراث العربى الاسلامى ، وهذه الجماعة هى من أخطر الجماعات علينا وعلى تراثنا ، لأنهم يستترون وراء المنهج العلمى ويمولون ماديا وأدبيا من المنظمات والنظم السياسية المعادية للاسلام والعرب .

وبعد هذا ، ولكل ما سبق الاشارة اليه ؛ فانه من الواجب علينا — أفرادا وجماعات علماء ودارسين ، مثقفين وتجار وصناع كتب ، هيئات علمية ورسمية — أن نهتم باحياء هذا التراث بفهم ووعى ، ونعمل على خدمته خاصة وأن فى مقدمته التراث الدينى الذى تتمثل فيه شخصية الأمة الاسلامية ، والأمة العربية ، فضلا عن أنه أحدث وأعظم أسلوب تقوم عليه تربية وتنمية وتقدم الشعوب فى عالمنا العربى الاسلامى المعاصر .

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون ، ج ٣ ، ص ١١٤ .

الباب الرابع

الفهرسة فى التراث العربى الاسلامى

- منهج ابن النـديم .
- منهج الخوارزمى .

تطور الفهرسة

ان الفهرسة ، أو ذكر الكتب يمثل أساس هام فى وضع تاريخ العلوم ، فتاريخ العلوم قائم على دراسة تطور العلم منذ نشأته حتى فترة التسجيل أو حتى الفترة التى يحددها المؤلف وما الفهرسة الا الطريق الرئيسى أو اللبنة الأساسية فى هذا العلم .

فعلوم المصريين قامت بفهرسة علوم فى برديات أو آثار ، وكذلك فعل البابليين فتركوا لنا أسماء مؤلفين ومدرسين لم تعرف من مؤلفاتهم الكثير ، ولكنهم تركوا بصمات عند تاريخ العلوم عندهم ، واليونانيين من بعدهم سجلوا ما استخلصوه من نظريات فى كتب تتداول بين أيدى طلاب العلم وخاصة فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم انتقلت الكتابة والفهرسة الى مكتبة الاسكندرية من القرن الثالث قبل الميلاد الى القرن الخامس الميلادى .

وأبرز ما توضحه الفهرسة هو تقسيم العلوم ، هذا الأخير الذى بدأه أرسطو ولكن العصر الاسكندرانى كان أكثر دقة حتى قسم العلوم الى : (١) .

العلوم الرياضية : وتشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى .

العلوم الطبيعية : وتشمل علم الطبيعة والآثار العلوية ، والكون ، والفساد وعلمى النبات والحيوان ، وعلم النفس ، ويلحق بها علم الطب .

ومن الطبيعى أن مكتبة عالمية مثل مكتبة الاسكندرية كانت تحوى بيلوجرافيات أو فهارس بما تحويه من كتب فى كل علم .

ثم جاء العرب وطوروا هذا العلم أو هذا الأمر والأسلوب تطورا فاق كل ما سبقه من تطور ، وأضافوا . وصار نموذجا رائدا ومتبعا للحضارة الانسانية فيما بعد ، فجاء الفارابى والخوازمى وابن النديم وغيرهم حتى انتهى الأمر بالمحدثين أمثال حاجى خليفة وسركيس وغيرهم كما ولم تكتف التصانيف العربية على علماء من جنس معين مثل اليونانيين ، وانما جمعوا فى تصانيف سائر الأسواء سواء يونان أو فرس أو هنود أو غيرهم ، وكلما ازدادت فتوحات الاسلام وانتشاره والتأليف فى التراث كلما خرجت فهارس جديدة تسهم فى حفظ أسماء الكتب لتكون فى متناول العالم الاسلامى المعاصر وما بعده ، وعرفنا عنها ما لم يكن أن نعرفه من هذه التصانيف . وسجل لنا ابن النديم فى أشهر فهرست ،

(١) أحمد فؤاد الاهوانى : مقال ابن خلدون وتاريخ العلوم ص ١٦٥ ـ ١٦٧ من كتاب من اعمال ابن خلدون الاولى .

فهرسه وبيان للكتب تم تصنيفها من علماء أمم أخرى ولم يبخل بمدح ملوك الفرس الذين صانوا الكتب فى أماكن خاصة لحفظها من كل تلف ، وخاصة الملك طهمورث المحب للعلوم وأهلها الذى بنى بنـاءا خاصا لحفظ كتب بلاد فارس كلهـا (١) .

والتراث العلمى الاسلامى تراث غنى فى الكيفية والكمية ، غنى فى الموضوع والعدد ، غزير فى العلم ، رائد فى عدد مؤلفاته واصنافها . وهذا يشمل سائر العلوم النظرية والعلمية ، فى التشريع والعلوم الفلسفية والرياضية والجغرافية ، والطبية والفنية .

وهـذه الميزة والخاصة نجمت عن التطور السريع الذى ظهـر فى الدولة الاسلامية أو على وجه الدقة فى العالم الاسلامى فى جميـع أنحائه من الشرق والغرب والشمال والجنوب . فى الأراضى الممتدة والجزر داخل مسطحات البحار فكثر التأليف والترجمة ، ونقل الكتب المؤلفة فيما سبق ، حتى صارت كما هائلا وكيفا ومتنوعا .

وان التطور السريع للعلم ، وتدوين آلاف الكتب فى مختلف مجـالات التأليف ، وترجمـة كثير من الكتب ، ووجود آثار أخرى أجنبية لابد أنها دفعت العلماء فى وقت مبكر للبحث عن علم جديد ، من الضرورى التأليف فيه وهـو تصنيف العلوم أو الفهرسة والببليوجرافيا (٢) . ومن الممكن أن نفترض أن هناك علاقة بين بواكير هذا وبداية تصنيف كتب الحديث (٣) وبين ظهور كتب الغريب المصنف بعد ذلك فى القرن الثانى من الهجرة . ثم تطور الأمر بتقدم العـلوم ، وصار البحث والدرس والتأليف يعتمد على فهارس (قوائم بيبلوجرافية) معـدة بشكل عام ، وفى كل موضوع بشكل خاص حتى يتمكن الباحث من الوقوف على الكتب التى تفيده فى موضوع بحثه (٤) .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

(٢) عرف العرب علم البيليوجرافيا منذ القرن الرابع الهجـرى / العاشر الميلادى منذ الف النديم فى كتابه « الفهرست ان » وكلمة البيليوجرافيا تتكون من كلمتين Bi liss ومعنـاها كتاب grapho ومعناها يكتب ولذا يطلق عليها من نسخ الكتب ، وظل هـذا المعنى حتى النصف الثانى للقرن ١٨ م . (الحلوجى : مدخل لدراسة المراجع)

(٣) فؤاد سزكين : التراث العربى الاسـلامى ج ١ ، ص ٢٨٩ .

(٤) محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ص ١١٠

وقد أحس العلماء العرب المسلمون بالحاجة الى مثل هـذه الكتب فأولوها اهتماما كبيرا باعتبارها مفتاح البحث والدرس والدراسة .

ويكفى أن يعيد الدارس قراءته ودراسته لبعض الكتب التى تعتبر قديما فهارس العلوم العربية ، ليرى مدى ما وصل اليه العرب من تصنيف للعـلوم واتتاج فيها .

لقد تناولت تصنيف العلوم الاسلامية كتب عديدة من كتب التراث العربى الاسلامى فمنها من فقد مثل كتاب « كتاب طبقات أهـل العلم والجهل » (١) لواصل ابن عطاء (١٣١ هـ) ، وكتـاب « كتـاب فى أقسام العلم الانسى » ، و « كتاب فى ماهية العلم وأصنافه » ليعقوب بن اسحاق الكندى (٢٦٠ هـ) وكتاب « أقسام العلوم » لأبى زيد البلخى (ت ٣٢٢ هـ) .

ومن كتب التصنيف ما وصلنا مثل كتاب الفارابى « احصاء العلوم » ، والفارابى (ت ٣٣٩ هـ) ممن اهتم بهذا العلم ، فألف فيه ، فحاول حصر العلوم وتصنيفها وذكر أسماء أشهر الكتب التى ألفت ، فخرج كتابه المذكور المشهور ، وقد أتى فى كتابه هذا بتصنيف جديد للعلوم مبنى على تصنيف أرسطو للمعرفة الانسانية ، وذكر لمعا من أسماء المؤلفين وعناوين كتبهم (٢) .

ومنها أيضا كتاب « مفاتيح العلوم » للخوازمى (ت ٣٨٧ هـ) وهو تصنيف جديد للمعرفة الانسانية ، والخوارزمى معاصر لابن النديم ، وكتابه هذا دراسة جديدة عن تصنيف العلوم وذكر مفاتيحها ، أى أنه لائحة فهرسية (بيبلوجرافية) فضلا عن أنه تصنيف جديد للعلوم ، عالج فيه التعابير المغلقـة فى العلوم لفروع المعرفة التى درسها ، والقسم الثانى منه يبحث فى علوم اليونانيين وغيرهم من الأمم

ووصل الينا كتاب قيم يرجع الى منتصف القرن الرابع الهجرى وهو كتاب « جوامع العلوم » لأبى عبد الله بن محمد بن فريعون ، أحـد تلاميذ أبى زيد البلخى ، ويقال ابن فرجـون (٣) ، والكتاب يعتبر أقـدم موسوعة « عربية ــ اغريقية » باقية ، بل هو موسوعة شاملة بشكل جـداول ، وهو ترتيب جدير

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .

(٢) محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٣) اسم فارس شائع ، انظر :
روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين (ترجمة د. صالح العلى) ص ٥٢ .

بالتقدير بالنسبة لمثل هذا الزمن المبكر ، وكتبت فيه الموضوعات الرئيسية بحروف كبيرة ، ثم تأتي أسطر ناعمة صغيرة فيها تفسيرات تفصيلية مكتوبة بحروف صغيرة عمودية وأول ذكر للتاريخ فى هذا الكتاب اشارة الى المعرفة التاريخية التى ينبغى أن تكون للكاتب (١) .

وكتاب « رسائل اخوان الصفاء » المجهولة المؤلف تناولت التصنيف للعلوم وهم يرون فى تصنيفهم أن العلوم ثلاثة أجناس : الرياضية ، والشرعية الوضعية ، الفلسفية الحقيقية ، ونالت الفلسفية من كتابهم شأن كبير .

وابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) له كتاب التصانيف ، وهو « رسالة فى أقسام العلوم العقلية » ولم يصنف الا العلوم العملية والتجريبية ، ولم يلتفت الى الكتب الأدبية والتاريخية .

وما فات على بعض التصنيفات أدركته كتب أخرى أكثر استكمالا ، وأكثر تقدما من هذه الكتب ، بل نحت كتب التصنيف فى نهاية القرن الرابع الهجرى أو نصفه الثانى نحوا جديدا فى تصنيفها للعلوم ، وكان لهذا أهمية كبيرة سدت ثغرات جديدة فى علم التصنيف ، وهو ربط تصنيف العلوم بالأخبار الخاصة بحياة المشتغلين بكل فرع منها (٢) ، وينبغى البحث عن بدايات هذا الفرع من الفروع عند الوارقين المجتهدين فى الجمع والتصنيف . وعند هواة الكتب فى القرن الثالث والرابع الهجريين .

ولعل أبرز من ألف فى هذا العلم هو ابن النديم ، وكتابه « الفهرست » الذى ألفه سنة ٣٧٧ هـ ، واستوعب ابن النديم العلم استيعابا يؤكد اطلاعه على فنون العلم ، وتحققه منها بجميع الكتب ، واتخذه العلماء فيما بعد منارا لكتبهم، فمنهم من تعاقب عليه بالزيادات ، ومنهم من ألف على نهجه .

منهج ابن النديم

والفهرست خرج ذخيرة غرضه احصاء الكتب العربية المنقولة من الأمم المختلفة والمؤلفة فى جميع أنواع العلوم ، يصفها ويبين مترجميها أو مؤلفيها ، ويذكر طرفا من تاريخ حياتهم وسيرهم ويعين تاريخ وفاتهم ، بمعنى أنه يحوى لائحة مصنفة ومفصلة بأسماء المؤلفين ، القدامى منهم والمعاصرين له ، سواء كانوا

(١) روزنتال : المرجع السابق ، ص ٥٢ – ٥٣ .

(٢) سركيس : تاريخ التراث ، مجلد ١ ، جـ ٤ ، ص ٢٨٩ .

مسلمين أو غير مسلمين ، ونجد فيه أخبارا ومعلومات لا نجدها فى غيره ، وهذا مما يجعل له قيمة كبرى لدى جميع المهتمين بمثل هذه الموضوعات والدارسين لها. فضلا عن أنه وثيقة بما أورده لنا بأسماء بحاثه وكتب فقدت وزالت ولم يصل الينا منها شيء ، ولو لم يسجلها ما علمنا بها .

وبالرغم من أن ابن النديم قد استعمل لفظ « الفهرست » كتسمية لكتابه ، الا أنه كان يقصد به الحصر البيبلوجرافى بأوسع معانى الكلمة وأدقها ، فهو لا يقف عند موضوع معين ، أو عند اقليم معين ، انما يتسع به ليستوعب كل ما ألف فى لغة العرب ، أو ترجم اليها من اللغات الأخرى فى شتى أنواع المعرفة حتى تاريخ تأليف الكتاب .

ولعل هذا التعبير يمثل أيضا وثيقة هامة لما وصل اليه المسلمون فى حياتهم العقلية والعلمية فكان الكتاب ـ على هذا النمط أشمل كتاب جامع لاحصاء ما ألف الناس الى آخر القرن الرابع الهجرى .

بل ان هذا الكتاب صار مرجع كل باحث من مسلمين ومستشرقين لمن ألف بعده فى هذا العلم ، فكان عمدة ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء ، والقفطى فى أخبار الحكماء ، بل وفى العصر الحديث كما سيأتى ذكره .

واستمر التطور والتأليف فى هذا العلم ، متخذا له دليلا هذا الكتاب ، فألف أبى المظفر محمد بن أحمد بن اسحق الأبيوردى الأديب (٥٠٧ هـ) مؤلفه (طبقات العلوم) .

ومن بعده من رجال القرن السادس الهجرى ، فخر الدين الرازى الفيلسوف (ت ٦٠٦) الذى ألف كتابه « حقائق الأنوار فى حدائق الأسرار » وهو كتاب فارسى له ترجمة عربية بعنوان (جامع العلوم) وهو كتاب رتبت فيه المواد حسب الموضوعات ، فيه ذكر للعلوم وأسماء الكتب المؤلفة فى كل علم من العلوم مع ذكر اسم المؤلف ونبذه عن حياته وأسماء كتبه . وأتى بعده قطب الدين الشيرازى (ت ٧١٠ هـ) ونحا نحوه فى كتابه المسمى « غرة التاج لغرة دياج » .

وانتقلت فكرة أو علم تصنيف العلوم الى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ومنذ أواخر القرن الرابع . ففى القرن الخامس الهجرى وضع العالم

(١) روزنتال : المرجع السابق ، ص ٥٥ .

على بن أحمد بن حزم الأندلسى كتابه الشامل « مراتب العلوم » وقد اتبع فيه الأساليب الفقهية ، وعرفه بصراحة أنه يعود الى علوم الفقه الاسلامى وأنه مقرون بعلم اللغة العربية باعتباره علما مساعدا للفقه والكلام ، فهو يقول : « العلوم القائمة اليوم سبعة أقسام عند كل أمة . وفى كل مكان وزمان » .

وهناك كتاب ببيلوجرافى نادر ليس له مثيل ؛ وهو كتاب ابن خير الأندلسى واسمه الكامل أبو بكر محمد بن خير ، وقد ألف كتابه فى القرن السادس الهجرى فى الأندلس ، واتبع طريقة الرواية والسند فى ذكر أسماء المؤلفين وأسماء كتبهم وموضوعاتها ، وقد رتبها حسب الموضوعات ، والكتاب اسمه : « فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى دروب العلم وأنواع المعارف الشيخ الفقيه المقرى المحدث أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى الاشبيلى رحمه الله .

ومما يذكر أن عدد فهارس مكتبة الحكم المستنصر أربعة وأربعون فهرسة(١) فى كل فهرسة ٢٠ ورقة .

وظل التأليف فى علم تصنيف العلوم بعد ذلك ، يؤلف فيه المتخصصون وفق تخصصاتهم ، ففى القرن الثالث عشر السابع الهجرى ظهر كتاب « سلوك المالك فى تدبير الممالك » الذى ألفه ابن أبى الربيع ، وقد ألفه فى زمن الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد ؛ وقتله المغول سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . ويرى ابن أبى الربيع أن العلوم ثلاثة : الأعلى والأوسط والأسفل ، والأول هو علم الالهيات يدخل فيه علوم الكتاب والحديث والتفسير والسنة .

واستمرت كتب الفهرسة أو الببيلوجرافية العربية فى الظهور فى العالم الاسلامى ، واستمر بعض الكتاب يثرون التراث العربى الاسلامى بها ، وخاصة أن أهميتها تتعدى الاثراء فى التأليف والتصنيف ، انما هى تمثل الذاكرة الحية لمؤلفات العالم الاسلامى كله ، وان كانت تمثل فى منهجها صدى للتأليف الذى سبقها ، وأبرز الأمثلة على ذلك :

١ ـ « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » للكاتب (أحمد بن مصطفى) طاش كبرى زادة (ت ٩٦٨ هـ / ١٥٦١ م) ، وفيه ذكر للتصانيف وتراجم للمؤلفين

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ، ص ١٤٦ .

واتتاجهم حتى سنى وفاته ، وكان كتابا بيبلوجرافيا شاملا عدد أجزاء أو مجلدات الكتب حتى تكون هداية للباحث ، وهو موضوع باسم « موضوعات العلوم » .

٢ ـ « كشف الظنون » فى أسامى الكتب والفنون تأليف مصطفى بن على) حاجى خليفة (١٠٦٧ هـ / ١٥١٦ م) ، وقد جمع فيه جم غفير من المؤلفات والمؤلفين عددهم قارب العشرين ألفا . وهذا الكتاب ذيله فيما بعد العديد من المصنفين متخذين منهجه أساسا لعملهم مثل يوشنه زادة / محمد عزتى (ت١٠٩٢هـ) ومؤلفه « ذيل كشاف الظنون » وكتاب متأخر هو ومعهم المصنفين من اختصره وأضاف اليه مثل « النبهانى الحلبى » (السيد حسين العباسى ت ١٠٩٦ هـ) . وكتابه « التذكار الجامع للآثار » . وذكر فيه ما فات حاجى خليفة من المؤلفات والمؤلفين ، وما ألف من بعده .

ومنهج كشاف الظنون كما يورده أنه تتبع المؤلفات ؛ وتصفح الكتب دقيقا ، وزاد ما جمعها منها فى مراحل عمره ، حتى صنف هذا الكتاب . وقد رتبه على الحروف المعجمة كالمغرب ، وراعى فى حروف الأسماء ترتيبها الى الثالث والرابع ، فكل ما له اسم ذكره فى محله مع مصنفه وتاريخه ومتعلقاته .

٣ ـ كتاب « ايضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون » وواضح من اسمه أنه ذيل لكشاف الظنون ، وكتاب « هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين » وكلاهما من وضع اسماعيل البغدادى (اسماعيل بن محمد بن أمين سليم البابانى) . وهما من آثار المصنفين المحدثين ، فاسماعيل هذا توفى (١٣٤٠ هـ / ١٩٢٠ م) .

٤ ـ « كتاب معجم المطبوعات العربية والمصرية » من وضع يوسف سركيس الدمشقى ثم المصرى وله أيضا كتاب آخر فى التصانيف هو « جامع التصانيف الحديثة » .

على أن المؤلفات المصنفية (البيبليوجرافية) كثرت الى حد عمل مصنف تخصصى لمن تناول هذا العلم ، وهذا الأمر يعتبر من نتاج العصر الحديث . فقد صنف بعض علماء الهند كتاب « معجم المصنفين » تناولوا فيه أسماء المصنفين للكتب العربية والاسلامية .

هذه « البيبليوجرافيات » أو المصنفات ، كل منها يمثل مرحلة متميزة ، فالفهرست أقدم وثيقة شاملة ضمت ما سبقها ، وتبين مبلغ ما وصلت اليه الحياة

العقلية الاسلامية فى عصر من أزهى عصور الحضارة الاسلامية ، وهو نهاية القرن الرابع الهجرى ، ولولاه لضاعت أسماء كثيرة من كتب تراثنا وأوصافها ، كما ضاعت الكتب نفسها ضحية للغزوات الخارجية والفتن الداخلية ، والأحداث الطارئة . و « مفتاح السعادة » مصدر أصيل وانعكاس صادق وأمين للحياة الفكرية بعد الغزو المغولى ، و « كشف الظنون » ليس أضخم الفهارس (الببليوجرافيا) العربية وأشملها فحسب ، وانما هو يمثل الرؤية الفهرسية الواضحة والصورة الواقعية للحياة الفكرية العربية حتى القرن الحادى عشر للهجرة ، لان أغلب الكتب موجودة فعلا(١) .

بل ان المستشرقون فى العصر الحديث تناولوا أيضا دراسات فى الفهرسة العربية نذكر منهم على سبيل المثال المستشرق كارل بروكلمان (ت ١٥٦ م) فى كتابه « آداب اللغة العربية » ، وكتاب أخرى اقتصر على المطبوع من الكتب وضعه المستشرق فانديك ادوارد الهولندى (ت ١٣١٣ هـ) وهو كتاب « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » . وكتب الفهرسة عامة دخلت أوربا عامة عن طريق التراث العربى الاسلامى ، والاشعاعات العربية فى معايرها مثل الأندلس والحروب الصليبية والسفارات ، وصقلية وغيرها من وسائل الاتصال بين المسلمين والغرب خلال العصور الوسطى والعصور الحديثة . بل تناول أمر الفهرسة أيضا الأجانب أو الأعاجم الذين كانوا يعيسون على أرض العالم العربى الاسلامى مثل مولر الجرمنى فى كتابه « وصف الكتب الشرقية(٢) » .

وسنعرض لمنهج كتابين من كتب الفهرسة ظهرا فى القرن الرابع الهجرى ، شملتها كتب ومخطوطات التراث العربى الاسلامى ، وصارا متداولين حتى الآن ، وتحت يد الدارسين ، أو الباحثين فى التصنيف وهما كتابى « الفهرست » لابن النديم ، وكتاب « مفاتيح العلوم » للامام الأديب اللغوى أبى عبد الله الخوازمى . وكلاهما ذا هدف ، وان تشاركا فى النضج الثقافى والعلمى أما عن كتاب « الفهرست » لابن النديم فان منهجه ومحتوياته تقع فيما يلى :

---

(١) عبد الستار الحلوجى : مدخل لدراسة المراجع ، ص ٨١ – ٨٣ ، القاهر ١٩٧٤ م

(٢) مقدمة كشف الظنون .

فالكتاب يحتوى على عشر مقالات بيانها كالتالى :

المقالة الأولى ـ وهى ثلاثة فنون :

الفن الأول ـ فى وصف لغات الأمم من العرب والعجم ونعوت أقلامها ، وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتها .

الفن الثانى ـ فى أسماء كتب الشرائع المنزلة على مذاهب المسلمين ومذاهب أهلهـا .

الفن الثالث ـ فى نعت الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وأسماء الكتب المصنفة فى علومه وأخبار القراء وأسماء رواتهم والشواذ من قراتهم .

المقالة الثانية ـ وهى ثلاثة فنون فى النحويين واللغويين :

الفن الأول ـ فى ابتداء النحو وأخبار النحويين البصريين وفصحاء الأعراب وأسماء كتبهم .

الفن الثانى ـ فى أخبار النحويين واللغويين من الكوفيين وأسماء كتبهم .

الفن الثالث ـ فى ذكر قوم من النحويين خلطوا المذهبين وأسماء كتبهم .

المقـالة الثالثة ـ وهى ثلاثة فى فنـون الأخبـار والآداب والسير والانساب :

الفن الأول ـ فى أخبار الاخباريين والرواة والنسابين ، وأصحاب السـير والأحداث وأسماء كتبهم .

الفن الثانى ـ فى أخبار الملوك والكتاب والمترسلين وعمال الخراج وأصحاب الدواوين وأسماء كتبهم .

الفن الثالث ـ فى أخبار الندماء والجلساء والمغنيين والصفادمة والصفاعنة والمضحكين وأسماء كتبهم .

المقالة الرابعة ـ وهى فنان فى الشعر والشعراء :

الفن الأول ـ فى طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين ممن لحق الجاهلية وصناع دواوينهم وأسماء رواتهم .

الفن الثانى ـ فى طبقات شعراء الاسلاميين وشعراء المحدثين الى عصرنا هذا (عصر ابن النديم) .

المقالة الخامسة ـ وهى خمسة فنون فى الكلام والمتكلمين :

الفن الأول ـ فى ابتداء أمر الكلام والمتكلمين من المعتزلة والمرجئة وأسماء كتبهم .

الفن الثانى ـ فى أخبار متكلمى الشيعة والامامية والزيدية وغيرهم من الغلاة والاسماعيلية وأسماء كتبهم .

الفن الثالث ـ فى أخبار متكلمى المجبرة والحشوية وأسماء كتبهم .

الفن الرابع ـ فى أخبار متكلمى الخوارج وأصنافهم وأسماء كتبهم .

الفن الخامس ـ فى أخبار السياح والزهاد والعباد والمتصوفة والمتكلمين على الوساوس والخطرات وأسماء كتبهم .

المقالة السادسة ـ وهى ثانية فصول فى الفقه والفقهاء والمحدثين :

الفن الأول ـ فى أخبار مالك وأصحابه وأسماء كتبهم .

الفن الثانى ـ فى أخبار أبى حنيفة النعمان وأصحابه وأسماء كتبهم .

الفن الثالث ـ فى أخبار الامام الشافعى وأصحابه وأسماء كتبهم .

الفن الرابع ـ فى أخبار داود وأصحابه وكتبهم .

الفن الخامس ـ فى أخبار فقهاء الشيعة وأسماء كتبهم .

الفن السادس ـ فى أخبار فقهاء الحديث والمحدثين وأسماء كتبهم .

الفن السابع ـ فى أخبار أبى جعفر الطبرى وأصحابه وأسماء كتبهم .

الفن الثامن ـ فى أخبار فقهاء الشراة وأسماء كتبهم .

المقالة السابعة ـ وهى ثلاث فنون فى الفلسفة والعلوم القديمة :

الفن الأول ـ فى أخبار الفلاسفة الطبيعيين والمنطقيين وأسماء كتبهم ونقولها وشروحها والموجود منها ، وما ذكر ولم يوجد ، وما يوجد ثم عدم .

الفن الثانى ـ فى أخبار أصحاب التعاليم والمهندسين والارثماطيقيين والموسيقيين والحساب والمنجمين وصناع الآلات وأصحاب الحيل والحركات .

الفن الثالث ـ فى ابتداء الطب وأخبار المتطببين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم ونقولها وتفاسيرها .

المقالة الثامنة ــ وهى ثلاث فنون فى الأسماء والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة :

الفن الأول ــ فى أخبار المسافرين والمخرفين والمصورين وأسماء الكتب المصنفة فى الأسماء والخرافات .

الفن الثانى ــ فى أخبار المعزمين والمشبعبذين والسحرة وأسماء كتبهم .

الفن الثالث ــ فى الكتب المصنفة فى معانى شتى لا يعرف مصنفوها ولا مؤلفوها .

المقالة التاسعة ــ وهى فنان فى المذاهب والاعتقادات :

الفن الأول ــ فى وصف مذاهب الحرانية الكلدانيين المعروفين فى عصرنا بالصائبة ومذهب التنوية من المتانية والديصانية والحرمية والدرقيونية والمزدكية وغيرهم وأسماء كتبهم .

الفن الثانى ــ فى وصف المذاهب الغريبة الطريفة كمذاهب الهند والصين وغيرهم من أجناس الأمم .

المقالة العاشرة ــ تحتوى على أخبار الكيمائيين والصنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم :

أما الكتاب الثانى وهو كتاب « مفاتيح العلوم » للخوارزمى والذى يهدف الى تعريب المصطلحات الواردة فى المصنفات فى العلوم ، فان منهجه ومحتوياته تتضمن ما يلى :

الكتاب مقالتان :

الأولى ــ تشمل ستة أبواب فيها اثنان وخمسون فصلا .

الثانية ــ تشمل تسعة أبواب فيها أحد وأربعون فصلا .

المقالة الأولى ــ وهو ستة أبواب :

الباب الأول ــ وهو يتناول موضوعات الفقه من عبادات ومعاملات ، ويشمل احدى عشر فصلا :

الفصل الأول ــ فى أصول الفقه .

الفصل الثانى ــ فى الطهارة وهى سبعة فصول.

الفصل الثالث ــ فى الصلاة والآذان .

الفصل الرابع ــ فى الصوم .

الفصل الخامس — فى الزكاة .
الفصل السادس — فى الحج .
الفصل السابع — فى البيع والشركة .
الفصل الثامن — فى النكاح والطلاق .
الفصل التاسع — فى الديات .
الفصل العاشر — فى الفريضة .
الفصل الحادى عشر — فى النوادر .

الباب الثانى — ويتناول متكلمى الاسلام والآراء والمذاهب والأديان السماوية الأخرى ، ويشمل سبعة فصول :
الفصل الأول — فى مواصفات متكلمى الاسلام .
الفصل الثانى — فى ذكر أسامى أرباب الآراء والمذاهب من المسلمين وحصرهم سبعة .

وفى هذا الفصل أوضح فرق أرباب الآراء والمذاهب .
الفصل الثالث — فى ذكر أصناف النصارى ومواضعاتهم .
الفصل الرابع — فى ذكر أصناف اليهود ومواضعاتهم .
الفصل الخامس — فى أسامى أرباب الملل والنحل المختلفة .
الفصل السادس — فى ذكر عبدة الأصنام من العرب وأسماء أصنامهم .
الفصل السابع — فى أصول الدين التى يتكلم فيها المتكلمون .

الباب الثالث — فى النحو .. وهو اثنى عشر فصلا تتناول :
الفصل الأول — فى وجوه الاعراب ومبادىء النحو على مذهب عامة النحويين .
الفصل الثانى فى وجوه الاعراب وما يتبعها على ما يحكى عن الخليل بن أحمد .
الفصل الثالث — فى وجوه الاعراب على مذاهب فلاسفة اليونان .
الفصل الرابع — فى تنزيل الأسماء .
الفصل الخامس — فى الوجوه التى ترفع بها الأسماء .

الفصل السادس ــ فى الوجوه التى تنصب بها الأسماء .
الفصل السابع ــ فى الوجوه التى تخفض بها الأسماء .
الفصل الثامن ــ فى الوجوه التى يتبع بها الاسم ما قبله فى وجوه الاعراب.
الفصل التاسع ــ فى تنزيل الأفعال .
الفصل العاشر ــ فى الحروف التى تنصب الأفعال .
الفصل الحادى عشر ــ فى الحروف التى تجزم الأفعال .
الفصل الثانى عشر ــ فى النوادر .

الباب الرابع ــ فى الكتابة ، وهو ثمانية فصول :

الفصل الأول ــ فى أسماء الذكور والدفاتر والأعمال .
الفصل الثانى ــ فى مواضعات كتاب ديوان الخراج .
الفصل الثالث ــ فى مواضعات كتاب ديوان الخزن .
الفصل الرابع ــ فى ألفاظ كتاب ديوان الجليس .
الفصل السادس ــ فى ألفاظ تستعمل فى ديوان الضياع والنفقات .
الفصل السابع ــ فى ألفاظ تستعمل فى ديوان الماء .
الفصل الثامن ــ فى مواضعات كتاب الرسائل .

الباب الخامس ــ فى الشعر والعروض ، وهى خمسة فصول :

الفصل الأول ــ فى جوامع هذا العلم وأسماء أجناس العروض وذكر ما يتقدمها .

الفصل الثانى ــ فى ألقاب العلل والزحافات .
الفصل الثالث ــ فى ذكر القوافى وألقابها .
الفصل الرابع ــ فى اشتقاقات هذه الألقاب والمواضعات .
الفصل الخامس ــ فى نقد الشعر ومواضعات نقاده .

الباب السادس ـــ فى الأخبار ، وهو تسعة فصول :

الفصل الأول ـــ فى ذكر ملوك الفرس وألقابهم .

الفصل الثانى ـــ فى ذكر الخلفاء وملوك الاسلام ونعوتهم وألقابهم .

الفصل الثالث ـــ فى ذكر ملوك اليمن فى الجاهلية وألقابهم .

الفصل الرابع ـــ فى ذكر ملك معدا من ملوك اليمن .

الفصل الخامس ـــ فى ذكر ملوك الروم واليونانيين .

الفصل السادس ـــ فى ألفاظ يكثر جريها فى أخبار الفرس .

الفصل السابع ـــ فى ألفاظ يكثر ذكرها فى الفتوح والمغازى وأخبار عرب الاســـلام .

الفصل السابع ـــ فى ألفاظ يكثر ذكرها فى أخبار ملوك عرب الجاهلية .

الفصل التاسع ـــ فى ألفاظ يكثر ذكرها فى أخبار ملوك الروم .

المقالة الثانية ـ فى علوم العجم وهى تسعة أبواب :

الباب الأول ـــ فى الفلسفة وهو ثلاث فصول :

الفصل الأول ـــ فى أقسام الفلسفة وأصنافها .

الفصل الثانى ـــ فى جمل ونكت عن العلم وما يتصل به .

الفصل الثالث ـــ فى ألفاظ ومواضعات يكثر جريها فى كتب الفلسفة .

الباب الثانى ـــ فى المنطق وهو تسعة فصول :

الفصل الأول ـــ فى ايساغوجى .

الفصل الثانى ـــ فى قاطيغورياس .

الفصل الثالث ـــ فى بارى أرمينياس .

الفصل الرابع ـــ فى أنولوطيقا .

الفصل الخامس ـــ فى أدفوقطيقى .

نفصل السادس ـــ فى طوبيقى .

الفصل السابع ـــ فى سوفسطيقى .

الفصل الثامن ـــ فى ريطوريقى .

الفصل التاسع ـــ فى بيوطيقى .

الباب الثالث ــ فى الطب وهو ثمانية فصول :

الفصل الأول ــ فى التشريح .

الفصل الثانى ــ فى ذكر الأمراض والأدواء .

الفصل الثالث ــ فى الأغذية .

الفصل الرابع ــ فى الأدوية المفردة .

الفصل الخامس ــ فى أدوية مفردة مشتبهة الأسماء .

الفصل السادس ــ فى الأدوية المركبة .

الفصل السابع ــ فى أوزان الأطباء ومكاييلهم .

الفصل الثامن ــ فى النوادر .

الباب الرابع ــ فى الأرثماطيقى . وهى خمسة فصول :

الفصل الأول ــ فى الكمية المفردة .

الفصل الثانى ــ فى الكمية المضافة .

الفصل الثالث ــ فى الاعداد المسطحة والمجسمة .

الفصل الرابع ــ فى العبارات .

الفصل الخامس ــ فى حساب الهند وحساب الجمل ومبادىء الجبر والمقابلة .

الباب الخامس ــ فى الهندسة وهو أربعة فصول :

الفصل الأول ــ فى مقدمات هذه الصناعة .

الفصل الثانى ــ فى الخطوط .

الفصل الثالث ــ فى البسائط .

الفصل الرابع ــ فى المجسمات .

الباب السادس ــ فى علوم النجوم ، وهو أربعة فصول :

الفصل الأول ــ فى أسماء النجوم السيارة والثابتة وصورها .

الفصل الثانى — فى ذكر الافلاك وتركيبها وأحوال الكواكب فيها وهيئة الأرض وأقاليمها وما يتبع ذلك .

الفصل الثالث — فى مبادىء الأحكام ومواضعات أصحابها .

الفصل الرابع — فى آلات المنجمين .

الباب السابع — فى الموسيقى ، وهو ثلاثة فصول :

الفصل الأول — فى أسامى آلات هذه الصناعة وما يتبعها .

الفصل الثانى — فى جوامع الموسيقى المذكورة فى كتب الحكماء .

الفصل الثالث — فى الايقاعات المستعملة .

الباب الثامن — فى الحيل وهو فصلان :

الفصل الأول — فى جر الأثقال بالقوة اليسيرة وآلاته .

الفصل الثانى — فى آلات الحركات وصنعة الأوانى العجيبة .

الباب التاسع — فى الكيمياء وهو ثلاثة فصول :

الفصل الأول — فى آلات هذه الصناعة .

الفصل الثانى — فى عقاقيرهم وأدواتهم من الجواهر والأحجار .

الفصل الثالث — فى تدابير هذه الأشياء ومعالجاتها .

مقارنة بين مناهج التصنيف

ونظرة فاحصة مقارنة بين محتويات ومنهج كل منهما :

أولا — نجد أن المنهج لدى ابن النديم والخوارزمى يقوم على آساس واحد وهو العموميات يخرج منها الجزئيات ، وأن تقسيمات كل منهما وان اختلفت فى الترتيب الا أنها تبدأ بالقرآن والعلوم الاسلامية وان كان ابن النديم شاملا فان الخوارزمى يكاد يكون متخصصا ويعتبر كل منهما موسوعة فى هدف الكتاب . فالأول لا يقتصر على المصطلحات ، وان كانت بسيطة ، الا أن الثانى يركز على هذه المصطلحات وهو أشبه بقاموس تخصصى يحتاجه الباحث له للتعبير عن أساليب علمية أو نظريات ، أما الباحث فى مبتدأ بحثه وتخطيطه له فهو فى حاجة ماسة لابن النديم الذى يوسع مدارك مراجعه ، ويرشده الى مصادر بحثه فضلا عن أن كتاب الخوارزمى يسهم فى عمل المترجمين للعلوم من اللغات الأجنبية مثل

اليونانية واللاتينية والفارسية والهندية وغيرها الى اللغة العربية ؛ وفى هذا الأمر فهما متكاملان ، كل منهما يكمل الآخر ففى الوقت الذى ذكر الخوارزمى المصطلحات ، حصر ابن النديم من قاموا بالعمل منذ بداية الدولة الأموية مثل اصطفن القديم الذى نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها ، بالاضافة الى ذكر الكتب التى ترجمت من هذه اللغات (١) .

ثانيا — اذا كان كتاب ابن النديم تعبير صادق عن الحياة الفكرية ، فان الخوارزمى يعتبر فى أحد أبوابه تعبير عن الحياة الاجتماعية ، بل خاصة لأصحاب الديانات الأخرى مثل اليهود والنصارى ومذاهبهم .

ثالثا — بالنسبة للادارة الاسلامية ، فالخوارزمى اقتصر على اصطلحاتها ولكن ابن النديم أورد كثير من المخطوطات التى تناولت أمورها ، الواجبات والالتزامات ، وبقراءة بسيطة للكتب فى ابن النديم نجد أن هذه القمم من التراث لم تترك أمرا من أمور المحاسبات أو الادارة أو المستودعات أو الأسواق الا وتناولتها ومن هذه الكتب « الخراج » للاصمعى ، وكذا لابن العرمرم ، وأيضا كتب فيه قدامة بن جعفر ، وابن الماشطة ، وابن بشار الذى بلغ كتابه ألف ورقة ، وابن سريج والقاضى أبو يوسف .

هذا فضلا عن الكتب التى تناولت أسماء الخلفاء والكتاب المؤلفين مثل كتاب « أسماء الخلفاء وكتبهم والصحابة » لأحمد بن الحارث الخزار ، وكتاب « الكتاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء » لأبى على بن عيسى بن داود الجراح وكتاب « امتحان الكتاب » لابن خمارة ، وكتاب الدواوين لأبى اسحق بن أبى عوف .

على اننا يجب أن نستقرأ بعض الملاحظات التى توضح دور التراث العربى الاسلامى وتطوره منذ القرن الثانى للهجرة ، ولتوضيح أهمية هذا الدور من خلال المؤلفات المخطوطة . فهناك مؤلف هام فى علم المعاجم والعروض هو كتاب الخليل بن أحمد الفراهيدى الذى امتدت حياته طوال القرن الثانى من الهجرة / الثامن الميلادى .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٤٠ ، ٤٢٤ .

ومن أغنانا به الفهرست عناوين كثيرة للشعراء الذين قرضوا الشعر ونبغوا فيه مثل « أخبار حسان » للزبير بن بكار ، « وأخبار العرجى » لنفس المؤلف ، وكتاب « أشعار القبائل » لأبى الحسن أحمد ، و « أخبار الاحوص » لابن بسام، و « أخبار أبى تمام » لمحمد بن يحيى الصولى وجميعها تمثل مرحلة من مراحل جمع التراث وتدوينه ، وتصنيف الشعر وفهرسته .

واذا كان للفارابى (ت ٣١٩) كتاب فهرسه يسمى « احصاء العلوم » كما سبق الاشارة ، فان له أيضا كتب فى الفلسفة أوردها ابن النديم مثل «آراء المدينة الفاضلة » ، و « التنبيه على سبيل السعادة » ، « والثمرة » ... فى بعض الرسالات الفارابية ، وتحصيل السعادة للفارابى(١) . بمعنى أن الفارابى اشترك مع معاصره ابن الخوازمى فى تأليف المصطلحات المتخصصة ، ولكن ابن النديم المعاصر لهما أيضا أرخ وسجل لكتبهم التى لولاه لما وصلنا الى أسماء الفاقد منها .

وليس معنى حديثنا عن القرن الرابع باعتباره قمة العصر الذهبى الفكرى للعرب ، أن القرون التالية خلت من القمم الشامخة فى تأليف التراث وتدوينه ، ففى القرن الخامس مثلا رأينا ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ / ٩٥ م) أضاف لكتب الفلسفة الكثير من المؤلفات مثل « النجاة » ، و « كتاب الشفاء » ، وكتاب « الاشارات والتنبيهات » . وكذلك قدم لنا فى هذا القرن الامام الغزالى (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) الكثير من المؤلفات للرد على القضايا الفلسفية .

هذا فضلا عن مؤلفات الطب التى قدمها الكتاب والعلماء المسلمون ، ونالت شهرة واسعة حتى عصرنا الحاضر الحديث ، ومن أبرز هؤلاء الرازى وابن سينا والكرخى وعمر الخيام وابن الهيثم والبيرونى والشريف الادريسى وابن رشد وغيرهم ، حتى أن المؤرخين أطلقوا على الرازى أبو الطب العربى ، وجدير بالذكر والاهتمام العالم المسلم العربى ابن النفيس الذى نبغ فى أمراض القلب ، وعرف الدورة الدموية الصغرى (الرئوية) تعريفا دقيقا ، ومازالت كثير من مؤلفاته مطمورة لأن العالم لم يعرف قيمتها وقيمة أبحاثه الا فى السنوات القليلة ، أو يطمرها لديه ليستبقى الغربيون بعضها ويخرجونه وينسبونه لأنفسهم مثل وليم هارفى الذى نسب نفسه أمر الدورة الدموية الصغرى ، ومن كتب ابن النفيس

---

(١) توفيق الطويل : العرب والعلم فى عصر الاسلام الذهبى ص ١٠١ – ١٠٢

(٢) نفس المرجع ص ١٠٣ .

« الموجز فى الطب » ، و « شرح قانون ابن سينا فى الطب » ، و « تفسير العلل وأسباب المرضى » ، ومقالة عن الدورة الشريانية(١) .

وقدم التراث العربى دراسات ، وابتـكارات جديدة فى العلوم الرياضية كالحساب والهندسة والجبر ، فطور فى استخدام الأرقام ؛ ووضع أسس جديدة للهندسة والجبر ، ومن الذين أسهموا فى ذلك البيرونى ، والكاسى ، وابن أبى الصلت ، وابن الهيثم وغيرهم ، وخاصة محمد البغدادى الذى وضع كتاب هندسى يسمى « تقسيم أى تقسيم الى أجزاء متناسبة (٢) » .

فهرست حاجى خليفة

وبنظرة بسيطة الى آخر الفهرسات العربية (البيبليوجرافيات) الشاملة الكبيرة ، والتى خرجت فى القرن الحادى عشر من الهجرة (السابع عشر الميلادى) ، وهو كتاب « كشف الظنون » لحاجى خليفة ، نقرأ أسماء نحو مائتى علم أو ما يشملها التراث العربى الاسلامى تطورت عبر قرون متتالية ، يضيف كل منهما لمن بعده حصيلة . ومنها علوم : آداب البحث والمناظرة ، والآلات الرصدية ، وآلات الساعة ، والآلات الظلية ، وعلم انبساط الحياة ، وعلم التوازن والمقادير ، والباه ، والبرد ومسافاتها ، والبنكامات ، والبيزرة ، والبيطرة ، وتحسين الحروف ، وتدبير الدينة ، وتدبير المنزل ، وترتيب العسكر ، وتركيب المواد ، والتصوف وتعبير الرؤيا ، والجبر والمقابلة ، والجراحة ، وجر الأثقال ، والجغرافيا ، والجفر ، والجهاد ، والحروف والأسماء والحكمة ، والحيل الساسانية والرصد ، والرمل والرمى ، والرياضة ، والريانة ، والزيج ، والزايرجة ، والسياسة ، والسيمياء ، والشروط والسجلات ، والصيدلة ، والطبخ ، والطلسمات ، والطيرة ، والعدد وعقود الأبنية ، والفتاوى ، والفراسة ، والفلاحة ، والفلقطيرات ، والقرانات ، والقرعة ، وخلع الآثار ، وقوانين الكتابة ، وقواد العساكر والجيوش ، والكحالة ، وكشف الدك ، والكهانة ، والكيميـاء ، ومراكز الأثقال ، والمرايا المحرقة ، والمساحة ، والمعادن ، والمعمى ، والملاحة ، والملاحم ، والموسيقى ، والميقات ، والنبات ، ونزول الغيث ، والنيرنجات ، والوصايا ، والوضع ، والهندسة ، والهيئة .. وأسماء أخرى كثيرة .

---

(١) على عبد الله الدفاع : الوجيز فى التراث العربى الاسلامى ، ص ١٨١ – ١٨٢ .

(٢) قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى ، ص ٨٩ – ٩١ .

أى اننا يمكننا تقسيم ذلك وفقا للعلوم الحديثة ، وهذا التقسيم محاولة خاضعة للتعديل والتبديل :

- العلوم اللغوية والتعليم والكتابة ، مثل علم : الحروف ، وتركيب المواد ، والحروف والأسماء وقوانين الكتابة وغيرها .
- المواد المركبة (كالكيمياء ...) مثل علم : الزيج ، والزايريجه ، الصيدلة ، الكحالة ، وغيرها .
- العلوم الطبية وطب البيطرى : الباه ، البيطرة ، الجراحة .
- العلوم الرياضية والهندسية ، مثل علم : الجبر والمقابلة ، وجر الأثقال ،
- العدد ، مراكز الأثقال ، والهندسة ، والهيئة . وغيرها .
- الفلاحة والزراعة : مثل : علم انبساط المياه ، الفلاحة ، والنبات .. الخ ..
- المواقيت والفلك : مثل الرصد ، الميقات ، ونزول الغيث ، آلات الساعات ، الآلات الكلية ، الآلات الرصدية .
- الحسبة والتعامل اليومى للاسواق ، والادارة المحلية ، مثل علم : تدبير المدينة ، عقود الأبنية ، الفتاوى ، الفراشة ، المساحة ، الشروط والسجلات، الأوزان والمكاييل والمقادير .
- السلاح والحرب والجيوش ، مثل علم : البيزرة ، ترتيب العسكر ، قواد العساكر والجيوش .
- فن المنزل والديكور ، مثل علم : تدبير المنزل ، الطبخ ، وغيرها .

هذا فضلا عن علوم أخرى متخصصة مثل الملاحة ، والسياسة ... وغيرها .

على أن الأمر الهام أن حاجى خليفة قد تكفل فى كتابه العظيم « كشف الظنون » بتوضيح مدلولات العناوين ، وتقديم دراسات موجزة عنها .

فهرست سزكين

وآخر كتاب صدر فى هذا النوع (الفهرسة أو البيليوجرافيا) كتاب « تاريخ التراث العربى الأسلامى لفؤاد سزكين » ، والكتاب بدأ بمقدمة طيبة عن التأليف خلال فترات التاريخ الاسلامى مع تصنيف للموضوعات ، وأهم من ألف فيها وترجمة عن كل مؤلف ، وبيان بمؤلفاته الباقية ومقالاته الباقية المندثرة .

وقد ساعد فؤاد سزكين فى ذلك أنه عاش بين فهارس واحصائيات وكتب التراث العربى الاسلامى وأماكن توفرها ووجودها ، واطلع على بروكلمان فى مؤلفه « تاريخ الأدب العربى » واشترك فى ترجمة عدد من الكتب الى العربية ، فخرج كتابه شاملا ، وصار أكمل من كتاب بروكلمان ، ونهج أسلوبا جديدا عن حاجى خليفة ، والحقيقة أن كتاب « التراث العربى الاسلامى » شمل أسماء كتب التراث العربى الاسلامى شمولا كبيرا سواء المطبوع منها والمخطوط ، كما احتوى بيان أماكن وجودها فى مكتبات ومتاحف العالم كله ؛ وطبع مرتين ، الثانية منه قامت جامعة الامام محمد بن سعود بها ، وكانت هذه الطبعة طيبة وأنيقة ، ويسرت تداول الكتاب ، ولا يزال هذا الكتاب مصدرا يرجع اليه العلماء والباحثون المهتمون والدارسون فى أى نشاط من نشاطات التراث العربى الاسلامى فى الشرق والغرب[1] ، خاصة أنه استفاد من كتاب « الفيكونت دى طرازى » المسمى « خزائن الكتب العربية فى الخافقين » الذى أحصى المكتبات التى تحتوى على مخطوطات التراث ، وهى تناهز الألف وخمسمائة مكتبة[2] .

الا أن الكتاب « تاريخ التراث العربى الاسلامى » يحتاج منا الى وقفة أيضا ، لأنه يمثل أيضا مرحلة من مراحل تطور كتب الفهرسة ، وهو ما يخص التاريخ فى مراحل هذا التطور . فهو يذكر « أن علوم الأوائل ــ ويقصد بها العلوم العقلية من فلسفة وطب ورياضيات وهندسة وغيرها ــ كانت مهجورة فى عصر الخلافة الأموية ، ولما ظهر آل العباس كان أول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور ، وكان رحمه الله ، مع براعته فى الفقه مقدما فى علم الفلسفة وخاصة فى النجوم محبا لأهلها[3] » . وقد كان هذا سندا لبعض المستشرقين والمتحدثين بلسانهم مثل جرجى زيدان فى كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » ، كما هو بذلك يؤكد ما سبق ردده هؤلاء المستشرقين من حكم على العصر الأموى لأنه لم يصل منه كتب [4] .

---

(۱) أحمد حسين شرف الدين : تأملات ، ص ۱۷ ــ ۱۹ .

(۲) عبد السلام هارون : التراث العربى ، ص ۱۱ .

(۳) فؤاد سزكين : التراث مجلد ۱ ، جـ ۱ ، ص ۳٤ .

(٤) ارنولد (توماس) : تراث الاسلام ، ص ٥٦٨ .

والحقيقة أن الأمر ليس على هذه الصورة القاتمة ، فالعلوم فى العصر العباسى لا يمكن أن تنبع من فراغ بل من أصول ومكتوبة ، خاصة وأن الأمويين كانوا يستخدمون نبات البردى فى الكتابة ، هذا النبات التى كان يتوفر فى مصر وكان أحد مصادر دخلها الاقتصادى لفترة طويلة ، ان لم يكن لقرون .

فقد نقل عدد من المؤلفات اليونانية والسريانية من الألســن الأجنبيــة الى اللسان العربى ، وكان يقوم بهذا العمل العلماء والأطباء النصارى من السريان واليــونان الذين دخلوا فى خدمــة الأمويين وولاتهم ، ومنهم ابن أثال الطبيب النصرانى الذى قربه معاوية واصطفاه لنفسه ، وعبد الله بن أبجر الكنانى العــالم الطبيب الذى عاش فى الاسكندرية نصرانيا ، وأسلم على يد عمر بن عبد العزيز قبل أن يصبح خليفة ، فلما صار عمر خليفة قربه وأحضره الى دمشــق وأسس مدارس فى انطاكيا وحران ، وكان عمر يعتمد عليه فى صناعة الطب .

وأمر خالد بن يزيد بن معاوية حكيم آل مروان باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين من مصر ، وكانوا أيضا من فصحاء اللغة العربية ، فأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى الى اللســان العربى . ومنهم اصــطفن القديم (اصطفين) الذى قام بنقل بعض الكتب الطبية الى العربية (١) ، ويرى المستشرق الايطالى نللينو أنه ربما كان أول كتاب نقل من اليونانية الى العربية كتاب « أحكام النجوم » المنسوب الى هرمس الحكيم (٢) .

كتب الطبقات الفهرسية

واذا رجعنا الى كتب الطبقات المتخصصة مثل كتاب « طبقــات الأطبــاء والحكماء » لابن جلجل وكتاب « وفيات الأعيــان » لابن خلكان ، ليتأكد لنا قيام العصر الأموى بنقل العلوم من الألسنة المعروفة الى اللسان العربى ، وهذا النقل لابد أنه كان بناءا على رغبة فى العلم ، وكذا استخدمه بعد نقله الى العربية بواسطة علماء عرب مسلمين .

فابن جلجل فى مؤلفه التخصصى فى تراجم الأطباء والحكمــاء يشــير الى أمرين (٣) لهما أهميتها :

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٣٨ ، ٣٤٠ .
(٢) كرد على : خطط الشام ، جـ ٤ ، ص ٢٤٠ .
(٣) ابن جلجل : طبقات الاطباء والحكماء ، ص ٦٠ ــ ٦١ .

الأول — فى ترجمة ابن ايجر « انه وجد فى الاسكندرية طبيب مسيحى اسمه أدخر تتلمذ عليه شاب رومانى اسمه مورينوس ، وكان ذلك قبيل التحرير الاسلامى لمصر ، وتعلم منه صناعة الكيمياء هذا أخذ خالد بن يزيد ت ٨٥ هـ هذه الصناعة وألف فيها رسائله وكتبه .

واسم مورينوس معروف فى كتب الفهرسة والطبقات ، فهو صاحب الاسم فى رسالة « مقالتا مريانس الراهب لخالد بن يزيد فى الكيمياء (١) » كما أكد ذلك ابن خلكان فى ترجمة خالد بن يزيد (٢) .

الثانى — فى ترجمة ماسرجويه الطبيب أنه « الطبيب البصرى الذى عاش فى الدولة الأموية ، وتوفى أيام مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥ هـ) ، وترجم كتاب أهرن بن أعين القس الى العربية .. وكان أهرن من الأطباء الذين عاشوا فى الاسكندرية فى عصر هرقل وهذا يدلل على أن كتاب أهرن ترجم قبل مروان بن الحكم .

ويذكر ابن جلجل أن هذا الكتاب المترجم كان موضوعا فى أحد خزائن بنى أمية ، واستخار الله عمر بن عبد العزيز فى اخراجه لانتفاع المسلمين به ، وأخرجه وبثه فى أيديهم ، وهى كما نرى ، أصدق من رواية القفطى فى كتاب « التخصصى » أيضا « أخبار الحكماء » من أن أهرن ترجم الكتاب فى أيام عمر بن عبد العزيز(٣) .

ومما لا شك فيه أن الخلفاء الأمويين استمروا فيما بدأ به خالد بن يزيد وعمر بن عبد العزيز لأنه يمثل دور حضارى لدولتهم ، فضلا عن أنهم كانوا يقومون بتعريب كل شىء ليكون خاضعا لأهل الاسلام .

كما نود ألا نعيد ذكر العوامل المتكررة فى عدم وصول الكتب العلمية التى ترجمت أيام الدولة الأموية الى أيدينا ، ومنها :

أن دمشق نالت من التخريب الكثير ، وقصور ومنازل الخلفاء خاصة نال أكبر قدر من هذا التخريب فمن الكتب ما فقد ، ومن الخزائن ما خرب .. وكان هذا كفيلا بفقد المصادر الهامة التى تعبر عن الحياة الفكرية والعلمية فى الدولة الأموية .

---

(١) حاجى خليفة : المرجع السابق جـ ٢ ، ١٧٨٤ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٢١٢

(٤) القفطى : اخبار الحكماء ، ص

بالأضافة الى ما سبق فان تدوين الكتب والترجمة والتأليف صار واسعا فى العصر العباسى ، هذا العصر الذى كان متحاملا على الأمويين تحاملا شديدا خوفا من استردادهم لحكم الدولة تحت العصبية العربية ، التى أطاح بها العباسيون ، ودليله فى ذلك الثورات التى قامت فى دمشق فى أعقاب سقوطها على يد عبد الله ابن على ومن بعده ، وكلها كانت بأمل المناداة بعودة الحكم الأموى ، ومن هذه الحركات حركة هاشم بن يزيد الشيبانى ، وفتنة أبى الهيذام وحركة على بن عبد الله السفيانى وغيرها (١) ، فضلا عن قيام امارة أموية فى الأندلس ، أقامها أحد أمراء بنى أمية . ونتيجة لذلك قضى العباسيون وعفوا عن كل آثار تربط العلماء أو العامة بالعصر الأموى .

آثار الفهرسة

ولقد فرض علم الفهرسة أو البيبليوجرافيا نفسه وفنه على العلوم الأخرى، ولعل أبرز المؤلفات التى تأثرت به كتب التراجم العامة والمتخصصة ، العامة أمثال الكتب التى تحوى جميع التراجم لكل الطبقات مثل كتاب ياقوت « ارشاد الأريب » ووفيات الاعيان لابن خلكان والكتب المتخصصة مثل طبقات الأطباء والحكماء وغيرها وقد حوت تلك التراجم عدد هائل من الرجال ذوى الأثر الهام فى الدين والعلوم التجريبية والنظرية والأدبية وغيرها ، ولقد عبر الصفدى عن ذلك فى مقدمته « الوافى بالوفيات » .

« وأما كتب المحدثين فى معرفة الصحابة ، وكتب الجرح والتعديل ، والانساب ، ومعاجم المحدثين ومشيخات الحفاظ والرواة ، فانها شىء لا يحصره حد ، ولا يقصره عدو ، ولا يستقصيه ضبط ولا يستدنيه ربط لأنها كاثرت الأمواج أفواجا ، وكابرت الادراج اندزاجا » (٢) .

وترتب على التأثر أن خرجت فهرسة كتب الطبقات على نظم مختلفة .

(أ) الفرع الأول : وقد اتخذ هذا الفرع خطة الاعتماد على سنى الوفاة وهى الخطة الأشهر والأقدم . وقد اقتصرت المؤلفات فيها على ذكر « وفيات الشيوخ » الذى أخذت عنهم ومن نماذج هذا النوع (٣) :

---

(١) د. حسين سليمان : الدولة الاسلامية فى العصر العباسى ، ص ٨٣ وما بعدها .

(٢) الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ ١ ، ص ٥٥ .

(٣) شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ١ ، ص ٤٢٤ — ٤٢٥ .

ـــ البغوى ، أبو القاسم عبد الله بن محمد المرزبان (ت ٣١٠ هـ) وله تاريخ وفاة شيوخه .

ـــ ابن عقدة ، أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد (ت ٣٢٢ هـ) نقل عنه ابن نقطة فى كتابه (اكمال الاكمال) الذى مازال مخطوطا .

ـــ ابن الفرات ، أبو الحسن محمد بن العباس (ت ٣٨٤ هـ) وله وفيات الشيوخ نقل عنه ابن النجار محب الدين البغدادى المؤرخ فى كتابه « التاريخ المجدد لمدينة السلام » حيث ذكره فى ترجمة ابن عصمة .

ـــ الطحان ، أبو القاسم عبد الباقى بن محمد البغدادى (ت ٤٣٢ هـ) ، وقد ذكر له الأفوى كتابا فى الوفيات .

ـــ ابن خيرون ، أبو الفضل أحمد بن الحسن البغدادى (ت ٤٨٨ هـ) ألف كتابه « وفيات الشيوخ » من أول السنة التى ولد فيها سنة ٤٠٦ هـ حتى آخر زمانه ، وذكر موالدهم ، ونقل عنه ابن نقطة فى كتاب التقييد (وهو مخطوط بمكتبة الأزهر تحت رقم ١٣٧ ـــ مصطلح الحديث) ، وابن مكتوم فى تلخيص أنباء الرواة .

(ب) والفرع الثانى : [1] ويعتمد على الحروف الأبجدية الا أن مبدأ الاختيار فيها هو الذى كان يختلف ، ويختلف معه بالتالى التآليف . ونستطيع أن نجد على الأقل عشرة أنواع من هذه المعاجم ، يتفرع من بعضها بدورها فروع أخرى ، وسنذكر خمسة منها :

١ ـــ كتب معاجم الصحابة : ولعل أول من كتب فيها وصنف هذا النوع « تاريخ الامام البخارى » وابتدأه بالمحمدية تيمنا باسم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتاريخ مسلم (رواة الاعتبار) وتاريخ النسائى التمييز . ومن أمثلة هذا النوع :

ـــ ابن السكن سعيد بن عثمان بن سعيد (ت ٣٥٣ هـ) وهو على الحروف .

---

(١) شاكر مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤٣٠ وما بعدها .

ـــ الطبرانى . أبو القاسم اسماعيل (ت ٣٦٠ هـ) وكتابه « المعجم الكبير فى أسماء الصحابة .

ـــ ابن عبد البر القرطبى (وهو أندلسى ت ٤٦٣ هـ) وانتشر كتابه «الاستيعاب فى معرفة الاصحاب» فى المشرق أيضا .

ـــ أبى موسى الأسفراينى المدنى الاصبهانى (ت ٥٨١ هـ) وذيله على كتاب ابن منده .

ـــ ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) وكتابه « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » أوفى المؤلفات .

٢ ـــ كتب الانساب : صارت الى الأمكنة أو الحرفة أو الشهرة أو المذهب أو الولاء أو الصفات الجسمية والخلقية بعد أن تراجع النسب القبلى . ومن أمثلتها :

ـــ كتاب فى أسماء الرجال لأبى الحسن على بن عمر الدارقطنى البغدادى (ت ٣٥٨ هـ) ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب بالقاهرة (تيمورية ٤٥٦ تاريخ) .

ـــ كتاب المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وكناهم والقابهم وأنسابهم (وهو مطبوع) تأليف أو تصنيف أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى الأديب (ت ٣٧٠ هـ) .

ـــ كتاب المتفق والمفترق تصنيف الخطيب البغدادى المؤرخ (ت ٤٦٣ هـ) وهو كتاب كبير الحجم فى ٧٠٠ صفحة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب القاهرة .

ـــ ومن الأندلس كتاب « تقييد المحصل وتمييز المشكل » ويعنى ضبط رجال الصحيحين وصنفه أبو على الحسن بن محمد بن أحمد الغسانى الجيانى (ت ٤٦٨ هـ) .

ـــ ثم صنف ابن ماكولا الأمير أبو نصر على بن هبة الله (ت ٤٨٧ هـ) . كتابا زاد فيه على الجميع ، وهو كتاب حافل واسع على حروف المعجم

سـماه « الاكمال فى معرفة الرجال (أو دفع الارتيـاب عن المؤتلف والمختلف فى الأسماء والكنى والألقاب) وهو مجلدات عديدة طبـع بعضها فى الهند .

٣ ـ المعاجم البيوغرافية على أساس البلدان وهى التى تحولت فيما بعـد الى تواريخ بلدانية ، ولقد انتقلت فكرة التنظيم المعجمى الى الجغرافيا التاريخية فتحولت كتبها على شكل المعاجم ، مثل معجم البلدان لياقوت الحموى .

٤ ـ المعاجم على أساس العلوم ، تنظم فيها التراجم لرجال كل علم على الابجدية فضلا عن أنها نظمت على أساس المهن والحرف (القضاة ، الوزراء ، الولاة ... الخ) .

٥ ـ المعاجم على أساس المذهب ، واذا كانت المذاهب السنية الأحناف ، والشوافع والحنابلة والمالكية قد فضلوا طريقة الطبقات ، الا أن الذين اتبعوا هـذا النوع من المعاجم هم الشيعة .

نستنتج مما سبق أن أثر الفهرسة والتنظيم المعجمى امتد الى المؤلفات والفكر العربى الاسلامى منذ القرن الثالث الهجرى تقريبا ، بل انه نضج مع نضـوج فن الفهرسة نفسه فى القرن الرابع الهجرى . ويؤكد أن القرن الرابع الهجـرى يعتبر فترة ظهور الاهتمام بربط تصنيف العلوم بالأخبار الخاصة بحيـاة المشتغلين بكل فرع [1] .

ويتضح أيضا أن فى تراثنا من (المبادىء الانسانية) ، و (الفكر المتمدن) ، والعقل الواسع ، و (الخلق المتين) ما يرفع العالم العربى الاسلامى الآن الى أعلى درجات الحضارة والتمدن . ففيه من النتائج الفكرية ما هو حلقة هامة من سلسلة الحضارة الانسانية .

ومن الجلى أن فى تراثنا ما هو فى الخفاء كالمعدن النفيس تنتظر من يكتشفها ويخرجها الى النور .

---

(١) سركيس : المجلد الاول ، جـ ٤ ، ص ٢٨٦ .

البَابُ الخَامِسُ

التحقيق والاحيــاء

ـ مراحل تطوره فى التراث

ـ الوسائل التى أسهمت فيه

تحقيق النصوص وتوثيقها واحيائها فن عربى أصيل ، يتجلى فى معالجة أسلافنا بداية لرواية كتب الحديث واللغة والشعر والأدب والتاريخ والعلوم العلمية التطبيقية فى دقة وأمانة ونظام بارع (١) . وقد أنكر البعض هذا المعنى الاصطلاحى الدقيق ، وحاول أن يردها الى المعاجم وفقا لشرحها ، المعنى معجميا هو « احكام الشىء » ويقول المعجم الوسيط « كلام محقق : محقق الصنعة رصين ، وحقق القول والقضية والشىء والأمر أى « احكمه » غير أن معنى الكتاب المحقق : هو الذى صح عنوانه واسم مؤلفه ، ونسبة الكتاب اليه ، وكان متنه أقرب ما يكون الى الصورة التى تركها المؤلف ونرى أنه لا خلاف بين المعنى الاصطلاحى الأول وما جاء بالمعاجم ، بل ليس بينهما تضاد ، والمعجم انما أراد التفسير حرفيا ، والمعنى لم يخرج عن حرفية الكلمة بل وأضاف لها ما تطورت اليه عبر العصور الى العصر الحديث .

وتعددت تعريفات التحقيق بين العلماء والمتخصصين فى هذا الفن ، فعرفه أحدهم أنه : « الاجتهاد فى جعل النصوص مطابقة لحقيقتها فى النشر كما وضعها صاحبها ومؤلفها من حيث الخط واللفظ والمعنى (٢) . ويرى ثانى تعريفه أنه «اخراج الكتاب مطابقا لأصل المؤلف أو الأصل الصحيح الموثوق منه وبه اذا فقدت نسخة المصنف) (٣) . والرأى الثالث يرى : أن التحقيق يؤدى الكتاب أداء صادقا ، كما وصفه مؤلفه كما وكيفا بقدر الامكان ، فليس من حق المحقق أن يتلمس أسلوبا آخر بحجة رفع مستوى أسلوب اللغة ، أو يحل كلمة صحيحة بأخرى صحيحة أو مترادفة بدعوى أن أولاهما أولى ، أو أن يوجز عباراته ايجازا مخلا ، أو أن يخطىء المؤلف فى ذكر علم من الاعلام (٤) ، وانتهت الآراء أو الخلاصة منها الى التعريف أنه العلم الذى يبحث أو يدرس قواعد نشر المخطوطات ، والآراء جميعا تضع صورة مجسمة التحقيق ينبغى على المحقق أن يعيها قبل أن يبدأ عمله .

ونرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم علم الصحابة والتابعين كيف يتحرون الدقة ، ويحققون الكتب تحقيقا دقيقا ، ووفق أصولها . فقد كان الرسول صلى الله

---

(١) عبد السلام هارون :: التراث ، ص ٤٩ .
(٢) د. مصطفى جواد : أصول تحقيق النصوص ، ص ٥ .
(٣) د. حسين محفوظ : مقال فى « عالم الكتب » مجلد ١ ، ص ٦٥٠ .
(٤) عبد السلام هارون : تحقيق النصوص ، (طبعة ٤) ص ٤٦ ، ٤٧ .

عليه وسلم حين ينزل عليه الآيات القرآنية ، يحدد مكانة الجزء الجديد أو الآيات التى نزلت حديثا عليه من مجموع ما نزل عليه سابقا ، وكان يطلب من كاتب الوحى بعد املاء النص المقدس عليه من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقرأ له ما كتب حتى يستطيع أن يصحح ما كتبه الكاتب من أخطاء . وظل الوضع هكذا حتى وفاة المصطفى وانتقاله الى الملأ الأعلى .. وكان يعرض على جبريل مرة فى كل سنة (فى شهر رمضان) ما كتب من الوحى فى تلك السنة ، وعرضه الرسول عليه مرتين سنة موته(١) . وهناك رواية تذكر أن زيدا بن ثابت كاتب النبى صلى الله عليه وسلم كان حاضرا عند آخر تجمع للنص القرآنى(٢) . ولذلك فان أبا بكر رضى الله عنه عهد الى زيد بن ثابت بجمع القرآن فى عصره ، باعتباره كاتبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاضرا آخر تجميع للنص الذى تم مع جبريل عليه السلام . بل ان زيدا تتبع أيضا المكتوب فى الرقاع والعشب واللخاف (الحجارة) وصدور المؤمنين من حفظة القرآن ، وهكذا جمع القرآن فى طرس واحد ، وكتبوه فيما بعد فى الرق لطول بقائه(٣) وشكل عثمان بن عفان مجموعة من كبار الصحابة حفاظ المصحف وكتبته ، وهم زيد بن ثابت ، وسعيد بن العاصى ، وعبد الرحمن بن هشام ، وعبدالله ابن الزبير لينسخوا المصحف نسخة موحدة بعد أن أحضر المصحف المكتوب من عند حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها (٤) ، وهذا هو قمة التحقيق الدقيق .

وتعلمنا من هذا الأمر أن التحقيق هو أمانة أداء ، وأمانة ، وصبر .

والاحياء — أيضا — ليس أمرا حديثا ، بل هو عمل طبيعى مرتبط كل الارتباط بالتحقيق ، بدأته العصور الاسلامية للكتب والدراسات الاسلامية والعربية ، فضلا عما أحيته من الكتب الأجنبية الأخرى مثل كتب العريان والاغريق وغيرها ، ثم ورثته الأجيال على امتداد الدهر فى الشرق والغرب ، والاحياء يشمل صور شتى من نسخ أو طبع ونشر ، أو تفسير ، أو تلخيص ، أو نقد وتعليق .

---

(١) ابو بكر السجستانى :المصادر السابق ، ص ٥ .
(٢) يوكاى : المرجع السابق ، ص ٢٥٤ .
(٣) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٢ ، ص ٤٨٦ .
(٤) السجستانى : المصدر السابق ، ص ٥ .

ونحن فى دراستنا للأمرين فانها تقتصر على فترة ما قبل اختراع الطباعة واستخدامها بصورة منتشرة ، وفى ضوء التراث العربى الاسلامى .

مراحل التحقيق والاحياء

وقبل أن نبدأ بالدراسة ، نضع بعض الملاحظات الهامة . وتتلخص فيما يلى :

١ — أنه ليس لدينا مخطوطات بخطوط مؤلفى القرن الأول الهجرى وكذا النصف الأول من القرن الثانى . ولذلك فالاعتماد فى الحصول على معلوماتها من الكتب التى سمعت شهود العيان — والرواه ، بل ونبنى أية وثائق على هؤلاء الرواة وخاصة شهود العيان .

فقد عرفنا منذ بداية السنوات الأولى للاسلام وخاصة بعد الهجرة واكتمال الدعوة الاسلامية كانت هناك كتب مدونة سواء كان فى التفسير أو الحديث أو الفقه ، هذا فضلا عما يجب أن نعرفه أن كل من كان يوصف فى القرن الأول للهجرة وبداية القرن الثانى بصفة « عالم » : انما كانت تعنى مؤلفا أساسا ، أو مسجلا لما سمعه من الرسول ، ولكن لم تعنون كتاباتهم (أو كتبهم) بأسماء بعد ، بل اكتفى بعبارة كتاب فى الفقه أو التفسير أو الحديث : ويمكن التحقق منهم ومن مؤلفاتهم عن طريق عبارات عارضة فى مؤلفات أخرى ، بالاضافة الى الأسانيد التى جاءت فى الكتابات (أو الكتب) والتى تشير الى نصوص مدونة[1] .

وكانت العلاقات واضحة بين المصادر بعضها البعض ؛ فالمرويات بصفة عامة ، وما يخص العلوم الاسلامية بصفة خاصة مأخوذة عن رواة أو مصادر أقدم ، هى فى الغالب هذه الفترة الأولى : فانما تظهر بأسماء الرواة الثقات ، ونظرا لأن عهدهم — الرواة — بذلك الزمن ليس بعيد فقد عرفوا بعض شهود العيان والمصادر القديمة ، واستطاعوا أن يتعرفوا على أكثر الكتب ، اعتمادا على الأسماء الواردة فى الأسانيد ، ولم يعطونا لذلك الا اشارات عارضة فى حالات نادرة أو قليلة جدا[2] .

ويكون بناء الكتب ووثائقها من الكتب التى سبق واستعانت بها فى موضوعات تهمها ، وذلك بعد عمل مقارنة وبذل الجهد فى سبيل الحصول عليها . وأحيانا تكون الحرية كاملة لهذه الكتب الأخيرة فى التصرف فيها وترجمتها

(١) فؤاد سزكين : تاريخ التراث ، مجلد ١ ، جـ ١ : ص ١٤٤ .

(٢) فؤاد سزكين نفس المرجع والمجلد ص ص ١٤٩ — ١٥٠ .

بالاسلوب التى تراه الا اذا حققوا النقل ، ونصوا الى أن هذا لفظ المنقول ، وينتهون منه بلفظ « انتهى نصه » .

وهذه الحالة تستخدم حينما تكون المصادر الأصلية أو المخطوطات الأصلية مفقودة تماما ، فيما يصعب الحصول عليها .

٢ ــ أما فى حالة وجود كتب مطموسة المعالم أو تالفة نتيجة ظروف معينة مثل عبث أحد الأشخاص بها ؛ أو حوادث المت بحفظ الكتاب نفسه ، أو حوادث عامة كالحرائق والهدم ؛ أو التخلص عن عمد . وهذه الأمثلة متوفرة طوال العصور الاسلامية ، وسيأتى ذكر بعضها فى أماكنها .

فالأمر يحتاج الى محاولة البحث عن نسخ أخرى أو شواهد أخرى ، بمعنى أن تكون هناك أكثر من نسخة كتبت من كتاب واحد ، أو أمليت من صاحب الكتاب أو غيره ، وسبق اجازتها والاملاء الذى راجعه المؤلف لأية مخطوط أو منسوخ تكون مساوية مطابقة للأصل ، والنسخة ــ فى هذه الحالات ــ بعد فحصها وتصحيحها تصبح فيما بعد الأصل ، لأنه بهذا العمل قد تم استعادة أصل النسخة الأصلية .

وتصبح أهمية هذه النسخة لا ينازع فيها أحد لأنها النمط الأعلى من الكتاب أو الوثيقة(١) على أن هذا الأمر يستلزم منا أيضا :

(أ) أن نبرهن على وجود علاقات متبادلة بين الشواهد الباقية ، سواء فى الموضوع أو العدد .

(ب) أن نقارن كل موضوع من موضوعات النمط الأعلى مع الشواهد الأخرى حتى نستعيد هذا النمط بالصورة الأصلية الحقيقية .

(حـ) أن نتدارك ما يكون أحد الشهود أو النسخ الفرعية قد وقع فيه من أخطاء دون غيره .

ويمكن ، فى بعض الأحيان ، أن نبرهن ــ استنادا الى موضوع واحد ــ أن شاهدا مأخوذا من شاهد آخر ، اذا كان الخطأ فى كليهما مكرر وليس قائما

(١) سنيوبوس (ش) ولا نجلوا (ش) المدخل الى الدراسات التاريخية ترجمة عبد الرحمن بدوى ضمن كتاب (النقد التاريخى) .

على النمط الأعلى ، وعلى ذلك فالأقدم فى هذه الشواهد هو الأكثر اعتمادا عليه واهتماما به ، لقربه أكثر من الأحداث أو المؤلفين .

٣ ــ ان اصلاح النصوص أمر لازم فى النصوص القديمة من الطبقة الوسطى من العلماء الذين عاصروا أو عرفوا تطور عملية التنقيط والاعجام ، لأن هذا الأمر يحتاج الى عالم متمرس فى الخطوط القديمة . وفى هذه الحالة يصبح أمر نسخ المخطوطة أو الكتاب هو أيضا اعادة بناء لها ، أكثر يسرا ، خالية من الأخطاء الى حد كبير .

ولكل كاتب من الكتاب طريقة خاصة تستدعى خبرة خاصة ، لاختلاف بعضهم عن البعض فى رسم الحروف ، واختلاف طرق التنقيط خاصة فى الكتابة المشرقية والكتابة المغربية ، ووضع بعض العلامات لاهمال الحروف فى الكتابات القديمة خاصة ، وكذا فى الأعجام وغيرها من أمور القراءة والكتابة والحروف والأرقام(١) .

٤ ــ ان احياء التراث أو الكتاب فى العصور الاسلامية ، معناه قلة المتداول، واعادة النسخ بواسطة النساخ لاعداد من المخطوط . ولقد زاد هذا الأمر حينما كثر الطلب والالحاح للحصول على نسخ من المخطوطات بواسطة رجال العلم والطلبة والخلفاء وأهل اليسر من الطبقات الاجتماعية المختلفة .

ويقوم الوراقون بعرض النادرة أو المنسوخة باعداد فى حوانيتهم لتكون فى متناول الجميع ، بل ووجد دلالون يعملون على تسويق المنسوخات بحملها وبيعها فى الأمصار الاسلامية الأخرى ، وفى الأقطار أيضا يتم نسخها من جديد لكثرة الطلب عليها .

وعلى سبيل المثال أنه فى سنة ٣٩٥ فتحت دار الحكمة بالقاهرة وجلس فيها الفقهاء والناس وحملت اليهم الكتب فنسخ كل من التمس نسخ شىء(٢) .

٥ ــ أن تتكرر عدد نسخ المخطوطة الواحدة بخط المؤلف نفسه .

---

(١) عن تفصيلات ذلك يمكن الرجوع الى :
عبد السلام هارون : المرجع السابق ، ص ٥٣ ــ ٥٧ .
(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢١٨ .

وفى هذه الحالة يكون المؤلف قد ألف كتابا أكثر من مرة ، حيث يحتفظ بكل المخطوطات الى أن ينتهى الى نسخة أخيرة يقدمها للتلاميذ وجمهور المتعلمين ، كما فعل أبو عمر الزاهد (محمد بن عبد الواحد) (ت ٣٤٥) غلام ثعلب ، الذى ألف كتابه « الياقوت فى اللغة » وأملاه ستة مرات ثم رأى الزيادة فيه فزاد أضعاف ما أملا ، وارتجل يواقيت أخر الى أن أملى العرضة الأخيرة ، واختص بها وتفرد أبو اسحق الطبرى ، وقال « هذه العرضة هى التى تفرد بها أبو اسحاق الطبرى آخر عرضة ، اسمعها بعده ؛ فمن روى عنى فى هذه النسخة هذه العرضة حرفا واحدا ليس من قولى فهو كذاب على ، وهى من الساعة الى الساعة من قراءة أبى اسحاق على سائر الناس . وأنا أسمعها حرفا حرفا[1] » ، وأمثال هذه النسخ تسمى نسخة الأم[2] .

ومن أمثال هذه الحالة أيضا المسودات والمبيضات ، وهو اصطلاح قديم جدا ، ويراد بالمسودة النسخة الأولى للمؤلف قبل أن يهذبها ويخرجها سويه ، أما المبيضة فهى التى سويت وارتضاها المؤلف كتابا يخرج للناس فى أحسن تقديم .

ومن اليسير أن يعرف المحقق مسودة المؤلف بما يشيع فيها من اضطراب الكتابة ، وترك البياض ، والالحاق بحواشى الكتاب ، وأثر المحو والتغيير .. الى أمثال ذلك .

ومسودة المؤلف - ان ورد - نص تاريخى ، على أنه ان لم يخرج غيرها كانت هى الأصل الأول ، مثال ذلك ما ذكره ابن النديم فى الفهرست من أن ابن دريد صنع أدب الكاتب على مثال كتاب « ابن قتيبة » ولم يجرده من المسودة . وابن دريد أيضا أملى كتابه « الجمهرة فى علم اللغة » أكثر من مرة ، وفى كل مرة تختلف بالزيادة والنقصان لأنه أملاه بفارس وأملاه ببغداد من حفظه ، فلما اختلف الاملاء زاد ونقص ، ولما أملاه بفارس على غلامه تعلم من أول الكتاب والباقية التى عليها المعول هى النسخة الأخيرة ، وآخر ما صح من النسخ نسخة أبى الفتح عبد الله بن أحمد النحوى لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه[3] .

ومن الكتب ما لم يبيض الا بعد وفاة المؤلف ، فقد ذكر القسطلانى شرح شمس الدين البرماوى بصحيح البخارى المسمى باللامع الصبيح ، قال : « ولم

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١١٣ ، ١٢٤ .

(٢) عبد السلام هارون : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ، ص ٩١ - ٩٢ .

يبيض الا بعد موته » وفى هـذه الحالة فالمسـودة تصبح النص الأعلى ، ان لم تبيض ، فاذا بيضت وعثر البعض على المسودة ونقل منها ، اختلطت النسخ الأم ان لم ينص على ذلك فى المسودة والمبيضة .

وعلى ذلك فمبيضة المؤلف هى الأصل الأول ، واذا وجدت معها مسودته كانت المسودة أصلا ثانويا استئناسيا لتصحيح القراءة فحسب(١) .

ولقد كانت هذه المسودات ذا قيمة علمية كبيرة يعرفها العلماء وأصحاب الفكر من الرجال الموسرين والمحبين للعلم والثقافة ، فقد بيعت مسودة كتاب الأغانى ــ فى يوم ما ــ فى المزاد العلنى فبلغت قيمة ثمنها أربعة آلاف درهم ، وكان أكثرها فى قطع ، وبخط التعليق(٢) ، ولو كانت سليمة لبيعت بأضعاف هذا المبلغ .

٦ ــ هناك نصوص هامة فى بعض المؤلفات تحتاج الى مراجعة دقيقة وهى هامة فى المخطوطات ان اختلفت ، ويجدر الاشارة اليها ، من هـذه النصوص الوثائقية ما هو مكتوب على ورق البردى خاصة بعد فتح مصر ، ولقد أثبتت الحفريات التى أجريت فى مصر وفلسطين وجود وثائق بردية من عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد اكتشف فى بلدة أهنس فى مصر وثائق عربية يرجع تاريخها الى سنة ٢٢ هـ ، وهى محفوظة بالمكتبة الأهلية فى فينا فى مجموعة الأمير « رينر » ، وهى مكتوبة بالخطين العربى واليونانى ، وموضوعها حسابات وديون ، وفى فلسطين فى منطقة عليا الحافر اكتشفت خمس وثائق بردية بالخطين العربى واليونانى تتعلق بالضرائب سنة ٥٤ ، ٥٥ هـ وكذا اكتشفت برديات أخرى فى عهد كل من عبد الملك بن مروان يرجع تاريخها الى سنة ٦٥ هـ ، وظلت حتى أواخر القرن الخامس الهجرى . وجميع هـذه المخطوطات مكتوبة بالخطين العربى واليونانى ، ومحفوظة بدار الكتب المصرية ، وحقق بعضها ومازال الآخر رهن التحقيق .

هذه المخطوطات تعتبر أيضا بمثابة الام فى الوثائق ، وكذا ما استشهد بها من مخطوطات .

وتحقيق واحياء الكتب بدأ منذ القرن الأول للهجرة ، وهناك بعض الأمثلة التى تؤكد ذلك ، واتصف هذا القرن ــ فى التحقيق والاحياء ــ بصفات محددة ،

---

(١) والامثلة كثيرة يمكن الرجوع الى بعضها .

عبد السلام هارون : كتاب تحقيق النصوص ونشرها ، ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) عبد الله الحبشى : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

لعل أبرزها قائم على الرواية . على أنه قد استقر فيه أيضا على ضرورة مراجعة الرواية على كتاب(١) ، وحينما لا يتمكن الكاتب (المحقق) من الحصول الا على نسخة فريدة . فانه يعترف بها ويقوم بنسخها أى تحقيقها واحياءها لتكون دليلا لمن بعده ، ومعينا له فى العلم الذى يبحث فيه . وهذا الأمر كله بالغ التعقيد ، الا اذا كان الشيخ الذى يعتمد على النسخة لديه بعض المصادر الأخرى أو روايات تشير الى معلومات النسخة الوحيدة ، وحافظا لبعض المحتويات والمرويات الواردة فى الكتب والروايات .

ومن أمثلة التحقيق التى تمت فى القرن الأول للهجرة أن عبد الله بن العباس لجأ الى أبى الجلد جيلان بن أبى فروة المخضرم ليشرح له بعض غريب القرآن ، وكان أبو الجلد قد امتاز بقراءة الكتب وتأليفها(٢) .

وسمح الصحابى أبو هريرة للتابعى بشير بن نهيك بجواز الرواية عنه ، بعد أن سجل ما سمعه منه ، ويقول بشير : « كنت كتبت عن أبى هريرة كتابا ، فلما أردت أن أفارقه قلت : يا أبا هريرة ، انى كتبت عنك كتابا ، فأرويه عنك ؟ . قال : نعم(٣) » .

وكان جزء كبير من علماء النصف الأول من القرن الأول للهجرة يقومون بتحقيق نصوص كتاباتهم بأنفسهم ، حيث أن هذه الكتابات كان يسجلها عنهم تلاميذهم ومريديهم(٤) وهم يرون أن الأمانة الدينية كانت تستدعى التحقق والتأكد من النصوص بأنفسهم ثم تحقيقها واحياءها فى كتبهم . خاصة وأن الكتب التى كانت تكتب أو تنسخ من جديد أو تحقق كانت فى العلوم الاسلامية كالتفسير والحديث والفقه .

وسائل الاسهام فى التحقيق

وكانت الرواية والقراءة على العلماء من السمات الأساسية فى تحقيق الكتب واحيائها فى هذا القرن . فمما يروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، أنه جعل « القراءة على العالم بمنزلة السماع منه » وقال عبد الله بن العباس « اقرأوا على

(١) سزكين : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٠ .
(٣) ابن حجر : التهذيب ، جـ ٥ ، ص ٣٢٣ .
(٤) سزكين : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠

فان قراءتكم على كقراءتى عليكم[1] » .

ولقد ظهر فى هذا القرن مصطلح « حدثت » ، وكان مستخدما بالفعل ، فقد استخدمه المؤرخ المتأخر ابن جرير الطبرى للمصادر التى أخذ عنها بطريق الوجادة، وتعنى الاقتباس من كتاب موثوق ، استخدم كنسخة بخط المؤلف » ، بمعنى أن مؤلفى القرن الأول استخدموا مصطلح « حدثت » فى المعلومات المسجلة عن طريق الرواية ، ونقلها بعدهم الكتاب بطريق الوجادة[2] ، تأكيدا لصحة مصادرهم. وقد أدخل الطبرى على هذا النحو الكثير مما سجله فى تاريخه وتفسيره . بل أحيانا فان مؤلف الكتاب المستخدم للنقل منه يرجع الى زمن أقدم ، من هذا يتضح أن مصطلح « حدثت » سابقا لرواية الكتاب فى بضع مئات من الأسانيد ، وعلى سبيل ذلك « حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر عن أبيه ، عن ربيع بن أنس والمقصود بذلك كتاب « ربيع » فى « تفسير القرآن ».

وممن كان له السبق أيضا فى احياء الكتب وتعدد نسخها ، على بن عبد الله ابن العباس ، فقال موسى بن عقبة فى ذلك : « وضع كريب عندنا حمل بعير من كتب ابن عباس ، فكان على بن عبد الله بن عباس اذا أراد كتابا بعث اليه ، أرسل الى بصحيفة كذا وكذا ، فينسخها ويبعث بها » وكان على يعطيها لمن يطلبها بعد أن يراجعها .

ولقد فرض أمر التحقيق والاحياء للكتب القديمة نفسه على القرن الثانى للهجرة ، وورث هذا القرن الكثير مما استقر فى القرن الأول من الهجرة وزاد عليها ، فقد كان هناك نوعان من الكتب فى حاجة الى التحقيق .

النوع الأول : الكتب التى ألفت وحققت وصنفت فى القرن الأول للهجرة بدون اعجام . وكانت الكتابة العربية تكتب بلا نقط وتعجيم ، وظهرت عملية التعجيم والتنقيط فى القرن الثانى فى ولاية كل من الحجاج بن يوسف الثقفى وغيره ، أى فى خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ ــ ٨٦ هـ) واستمر وانتشر فى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ــ ٩٦ هـ) . وكان هذا الأمر يحتاج الى تمرس

---

(١) سزكين : المرجع السابق جـ ١ ، ص ١٢٥

(٢) الوجادة ، من فعل وجد ، وهى الوقوف على كتاب بخط محدث مشهور ، يعرف خطه ويصححه وإن لم يلقه أو سمع منه ، أو لقيه ولم يسمع منه هذا الكتاب ، ولذلك كان الاشياخ قديما وحديثا يقولون « وجدت فلان » و « قرات فى كتاب فلان بخطه » .

(منيرة ناجى سالم : تاج الاسلام أبو سعد السمعانى ، ص ١٣٩) .

فى القراءة القديمة ، وتحقيقها وفق لما توصل اليه علماء اللغة والنحو ، والذى كان من أول من برز فيهم أبو الأسود الدؤلى . وذلك لتكون الكتب ميسرة لمن دخل الاسلام وتعلم العربية فى هذه الفترة من الأجناس المختلفة .

النوع الثانى : الكتب الملاة بواسطة الشيوخ ، والمنسوخة بواسطة المؤلفين والمريدين وطلبة العلم .

وكلا النوعين يقوم التحقيق فيهما على مراجعة المشايخ فيما نسخ ، والموافقة عليه . وأخذ التحقيق مراحل ، الأولى كما سبق الاشـارة ، والثانيـة باقتباس الكتابات القديمة ونقلها داخل مصنفات جديدة كما فعل الموطأ والبخارى وغيرهما. وقد حفظوا لنا كتبا كثيرة فقدت ولا نستطيع الوصول الى النسخ الأصلية فيها ، واذا وجدنا نسخ منسوخة عنها بواسطة التلاميذ والمريدين فان الاقتباس يصبح نسخة ثانية لكل كتاب ، ويمكن فيه تصحيح المخطوط وتحقيقه تحقيقا سليما .

والأمثلة كثيرة على هذا الأمر ، فقد أحضر شعيب بن حمزة (ت ١٦٢ هـ) كتابا الى محمد بن المنكدر (ت ١٣٠ هـ) ، وسمح له أن يقرأ عليـه ، ثم أقر ابن المنكدر صحة قسم من محتواه ، وأنكر مواضع ، وهنا أمر ابنه بنسخة بعد التصحيح ، وسماع الشيخ له واقراره(١) .

وكان شـعيب بن حمزة ، من الذين يدققون فى الرواية ، ويهتمون اهتماما بالغا بتصحيح الكتب والدقة فى محتواها . وعندما كان على سرير الموت ، ذهب اليه بعض أصحابه وتلاميذه ، فقال لهم : « هذه كتبى وقد صححتها ، فمن أراد أن يأخذها منى فليأخذها ، ومن أراد أن يقرأ على فليقرأ(٢) » .

وقد كان الطلاب والباحثين والمهتمين يبحثون عن أهل العلم ليقرأوا عليهم الكتب التى حصلوا عليها ويحققوها مهما بلغت عليهم الشقة :

وقد سأل جرير بن حزم شيخه التابعى السختيانى (ت ١٣١ هـ) عن سبب بحث الناس عنه ومعهم كتبهم يراجعها لهم مع أنه كان يرفض هذا من قبـل ، فأجاب الشيخ أنه لم يغير رأيه ، فاذا كان قد نقلوا عنه مرة شيئا ، فلعلهم يقدمون اليه بذلك ليصححه » (٣) . كما حصل يحيى بن على التبريزى المعروف بالخطيب

---

(١) سزكين : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٠.
(٢) ابن حجر : التهذيب ، جـ ٢ ، ص ٤٤٢.
(٣) أحمد بن حنبل : العلل ، جـ ١ ، ص ٢٤ .

على نسخة من كتاب « التهذيب فى اللغة » تأليف أبو منصور الأزهرى فى عـدة مجلدات لطاف ، وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجـل عالم باللغة ، فدل على أبى العلا المعرى ، فجعل الكتاب فى مخلاة وحملها على كتفه من تبريز الى المعرة ليحققها(١) .

ومن خوف بعض العلماء أن ينحرف التلاميذ بكتاباتهم ، ما يروى عن أبى داود السجستانى (ت ٣١٦ هـ) . فعندما كف بصره ، وكان ذا ذاكـرة ممتازة حافظة ، ظل يروى أحاديثه من الذاكرة ، فكان يجلس على المنبر وابنه على السلم أدناه بدرجة ممسكا بكتاب فى يده ذاكرا الأحاديث المختلفة له عنـد طلبها ، ثم يلقيها أبوه بعد ذلك ، وكانت العبارة التى وردت فى المخطوطات للناقلين فيما بعد تقول « أملاه من حفظ » .

وعملية الرجوع الى المشايخ فيما كتب عنهم ، أو صنف مخطوطات هامة فى أى من المواضيع ، يعتبر من الأمور الأساسية الهامة بل والضرورية ليخـرج الكتاب محققا سليما، ينفع العلماء والناس، ومن خالف هذا الأمر يصبح خارجا على القاعدة ، غير أهل للثقة ، تحتاج كتبه الى مراجعة ، وكان العلماء لا يثقون بالرجوع الى الكتب مباشرة دون الرجوع أو الاستعانة بشيخ ، ويقولون فى ذلك « من كان شيخه كتابه كان خطأه أكثر من صوابه » . وقد رد الأزهرى ونقد العلامة « أحمد بن محمد البشتى » فى قوله فى مقدمة كتابه « التكملة » والتى نص فيها أنه رجع الى كتب دون العودة الى شيخ ، وذلك بقوله « وأخبارنا عنهم أخبار عن صحف ، ولا يزرى ذلك على من عـرف الغث من السمين ، وميز بين الصحيح والسقيم ، وقد حفل بمثل ذلك أبو تراب صاحب كتاب « الاعتقاب » فانه روى عن الخليل بن أحمد وأبى عمرو بن العلاء والكسائى ، وبينه وبين هؤلاء فترة ، وكذلك العتبى روى عن سـيبوية والأصمعى وأبى عمرو ، وهو لم يرد أحـد منهم » (٢) .

وقال الأزهرى فى الرد « وقد اعترف البشتى بأنه لا سماع له فى شىء من هذه الكتب ، وأنه نقل ما نقل من كتابه من صحفهم ، واعتل بأنه لا يزرى ذلك

---

(١) خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ٥ ، ص ٢٢٩

(٢) د. حسين سليمان : مخطوط رسـالة دكتوراه عن دمشق ، ص ٣٢٣ .

ـ والمراد بأبى عمرو هو الامام الاوزاعى (عبد الرحمن بن عمرو بن عمير) .

(٣) القفطى : انباه الرواه ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ .

بمن عرف الغث من السمين ، وليس كما قال لأنه اعترف بأنه صحفى ، والصحفى اذا كان رأسماله صحفا قرأه فانه يصحف فيكثر ، وذلك أنه يخبر بكتب لم يسمع بها ودفاتر لا يدرى أصحيح ما كتب فيهــا أم لا ، وأن أكثر ما قرأنا فى الصحف التى لم تضبط بالنقط الصحيح ؛ ولم يقــول تصحيحها أهــل المعرفة لسقيمة ، لا يعتمد عليها الا جاهلى (١) » وعلى ذلك فوصف من لا يعود الى شيخ لسماع الكتاب وتصحيحه وتحقيقه أنه « جاهلى » .

من هذا يتبين ضرورة وأهمية تحقيق الكتب التى لم يكن كتبت بالتعجيم ، والتنقيط .

ويتقدم عملية التحقيق واحياء الكتب فى القرن الثانى للهجرة ، فقد ترك لنا وأضاف أمورا جديدة ومنها المصطلحات الفنية التى لها دلالات ، وتوضح بألفاظها وعباراتها اتجاه الكتابة والنقل والاقتباس ، فان تحقيق الكتب القديمة ، وخاصة الكتب المدونة فى القرن الأول للهجرة ، كان لابد من وضــع مصطلحات محددة ذات معنى محدد لنقل هذه الكتب واعادة كتابتها فى كتب القرن الثانى للهجــرة بتحقيقها فى داخــل كتب هذا القرن الأخير ، أو باحياء الكتب نفسها . هــذه المصطلحات نشأت فى ختام القرن الأول ، وتوسع فيها فى القرن الثانى ، ويطلق عليها فى كتب علم الحديث اسم « ألفاظ » . ولعل أبرزها « حدثنا ، وأخبرنا » و « قرأت » . لم يكن هناك ثمة اتفاق فى استخدامها .

معانى الفاظ التحقيق

(أ) أما بالنسبة لعبارات « حدثنا » ــ و « أخبرنا » ــ و « سمعت » ــ و « قرأت » . لم يكن هناك ثمة اتفاق فى استخدامها .

١ ــ ففى حالة النقل بطريق السماع :

اعتاد بعض المحدثين أن يسبق قوله : « سمعت » .

واعتاد البعض الآخر بتقديم قوله : « حدثنا » .

٢ ــ أما اذا كان النقل بطريق القراءة ، فيقولون « أخبرنا » (٢) ، واستمر هذا الاستخدام الى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة ، وفضلت الأغلبية هذا اللفظ فى كل النوعين .

---

(١) القفطى : انباء الرواه ، جـ ٢ ، ص ١٠٠

(٢) سزكين ، المرجع السابق جـ ١ ص ١٤٤، ١٤٥ .

وقد وضع لنا الامام الأوزاعى (١) قواعد الاستخدام من خلال مناقشة مع أحد تلاميذه ، ونصحه بما ينبغى استخدامه من المصطلحات ، من خلال ما يلى :

ـــ ما قرأته عليك وحدك ، قل فيه « حدثنى » .

ـــ وما قرأته على جماعة أنت فيهم ، قل فيه « حدثنا » .

ـــ وما قرأته على وحدك ، فقل فيه « أخبرنى » .

ـــ وما قرأته على جماعة أنت فيهم ، فقل فيه « أخبرنا » .

ـــ وما أجزته لجماعة أنت فيهم ، فقل فيه « خبرنا » .

ـــ وما أجزته لجماعة أنت فيهم ، فقل فيه « خبرنا » .

ومع هذا فان جماعة كانت تستخدم لفظ « قرأت » عند القراءة ، بل ونادرا ما يستخدم الدارسون لفظ « أنبأنا » أو « نبأنا » .

(ب) وما ناقشه الامام الأوزاعى وأوصى به تلميــذه ، هى المصطلحات السائدة فى كل الامصار الاسلامية ، ولكن كان هناك من يستخدم الفاظ أخرى وفق الفعل نفسه ، ومنها :

ـــ من كان يأخذ بطريق القراءة يقول « قرأت » .

ـــ ومن كان يأخذ بطريق الأجازة فيعبر « أجاز » .

ـــ أما من كان يأخذ بطريق الكتابة . فيعبر « كتب الى » أو « من كتاب » .

(جـ) وهناك حرف جر كان يرد بدون فعل وهو « عن » . وهذا الحرف أيدته الدراسات الحديثة أنه يقوم بوظيفتين مختلفتين :

الأولى : الرواية بطريق الاجازة من جانب ، وينبيه الى عدم اتصال الاسناد من جانب آخر . فمثلا عبارة « قرأت على فلان عن فلان » وهى تعنى قرأت عنــد فلان الذى لديه اجازتى .

---

(١) طه واولى : عبد الرحمن الاوزاعى ، ص ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٢ .

وهو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمر ، يكنى أبا عمرو ، أخذ العلم من جهات متعددة وأكثر شيوخه اثرا فيه مكحول الدمشقى .

الثانية : ونجدها فى عبارة « قال : حدثنا وكيع عن على بن المبـارك عن يحيى بن معاذ بن جبل « وكلمة عن » تربط بين اثنين من المحدثين توفى أحدهما بعد الآخر بمائة وخمسين عاما ، ويطلق فى علم الحديث .

(د) بالاضافة الى العبـارات السابقة كانت هناك عبارات أخـرى [1] مثـل :

حدث ، وحدثت ، وأخبرت ، وروى .

ويمكن تطبيق القواعد السابقة عليها .

(هـ) ومن العبارات التى كان يستخدمها مؤلفو الكتب التاريخية والأدبية ما جاء مثلا عند الطبرى فى تاريخه « حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلامة ، قال: حدثنا ابن اسحق » .

وهذا يعنى أنه يقتبس اقتباسا حرفيا من كتاب المغازى لمحمد بن اسحق .

وكذلك فى كتاب الأغانى يقتبس عن طريق الاسناد ، ويسبق ذلك بعبـارة « أخبرنى أبو خليفة الفضل بن الحباب فيما كتب اليه محمد بن سلام » أو أخبرنى أبو خليفة اجازة عن محمد بن سلام من طبقات الشعراء للجمحى .

وأيضا : « حدثنا ابراهيم بن أيوب بن عبد الله بن مسلم من كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة .

وكل هذا اقتباس من الكتب .

وفى القرن الثالث للهجرة ، كان التحقيق والاحياء عن طريق الوجادة ، وتعنى استخدام الكتب بغض النظر عن معاصرته أو قدمه ، ويحصل على ذلك من يحوز نسخة آخر الرواة ، ويقدم لهذا الأمر باحدى الألفاظ « وحدث » ، أو « قال » أو « حدثت » وغالبا ما كان يستخدمها ويستعملها أصحاب المصنفات فى القرن الثالث مثل الطبرى وغيره .

فقد سأل ابراهيم بن أبى طالب مسلم « كيف استخرت الرواية عن سويد بن سعيد (ت ٢٤٠ هـ) فى الصحيح ، فأجابه « ومن أين كنت آتى بنسخة حفص بن

---

(١) سزكين : المرجع السابق ، مجلدا ١ ص ١٤٤ - ١٤٦ .

ميسرة (١) ندرك من هذه العبارة أن الاسناد لسويد بن سعيد عن حفص بن ميسرة .

على أن التحقيق والأحياء فى هذه القرون الثلاث لم يتطور ان لم يجد الوسيلة التى يسجل عليها المؤلف ، ولم يكن أمر التأليف يسيرا ان لم يجد هذه الوسيلة .

واذا كانت النصوص القديمة فيما قبل الاسلام والسنوات الأولى منه لم تكتب الا على الرقاع والعسب واللخاف وغيرها مما دعى الى احيائها وتحقيقها ، فان هذه المواد غير واقعية فى المؤلفات الأكبر التى تشمل تحقيق ما كتب فى هذه الوسائل ، بل ان الجلود أيضا (والمسماة بالرقوق) التى سجل عليها بعض الكتابات والأبحاث الاسلامية الأولى ، فضلا عن المصحف الشريفة الذى كتب فى عهد عثمان رضى الله عنه المسمى بمصحف الامام ، لم تكن هذه الجلود أيضا بالوسيلة المثلى التى يسجل عليها المؤلفات والأبحاث التى تسجل الكتابات الأولى أى تحققها ، وتضيف عليها .

وبعد أن فتح الله على المسلمين بتحرير البلاد فى الشام ومصر والعراق وفارس وخراسان وغيرها ، كان أمام المسلمين وسيلة هامة متبعة فى الشام ومصر بصفة خاصة وهى ورق البدى والمسمى « القرطاس » (٢) .

دور الورق

واستعمال البردى مادة كتابية قديما يعود الى الألف الثالث قبل الميلاد بمصر ، ومنها انتشر فى حوض البحر المتوسط ، وأخذه اليونان عنها ، وأطلقوا عليه اسم « بابيروس » نسبة الى مدينة جبيل السورية الواقعة شمالى طرابلس الشام ، وذلك أن تجارة البردى كانت وقفا على مدينة جبيل هذه ، ولما كان لفظ بابيروس يعنى عند اليونان الكتاب ، لذا انسحب الاسم ليشمل المادة المستعملة الكتابة ، وانتشر البردى فى جميع أنحاء العالم وبلغ أوجه فى الألف الأولى قبل

(١) ابن حجر : التهذيب ، ج ٤ ، ٢٧٥ .

(٢) القرطاس : كلمة من أصل يونانى تسمى خارطيسى Khartïs تطلق على الصحيفة المعدة للكتابة من ورق البردى ، ويذكرها القلقشندى بمعنى الكاغد ، ويرى أن كل كاغد قرطاس ، وذكرت فى القرآن الكريم فى موضوعين من سورة الانعام (الآيتان ٧ ، ٩١) .
محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ، ص ١٤١ .

الميلاد . ورغم منافسة الجلود فيما بعد خاصة فى العصور المسيحية وفى ظل البابوية ، الا أن استخدامه ظل قويا الى أن عادت البابوية لكتابة مواثيقها به .

أصبح البردى هذا تحت تصرف المسلمين بعد تحريرهم مصر ، التى صدرته لسائر العالم الاسلامى فيما بعد ، وصار مادة تجارية فى أنحاء هذا العالم الناهض كثير الطلب عليه ، وجاء ذكره فى كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » لابن البيطار ، فقد كان يتداول بين الناس عن طريق التجارة ، وكان الدرج يتألف من عشرين ورقة ولصق بعضها ببعض ، وتسمى الورقة الأولى « بروتكول » ومعناها « اللصاق الأول » وكانت من مميزاته أنه جاهز تحت الطلب ومرن ويمكن استعماله فى الشكل المناسب ، وتكتشف به أى محاولة للتزوير فى النص .

ولا شك أن المسلمين استخدموا البردى مادة لكتابة كتبهم فى القرون الثلاث الأولى للهجرة . هذا والمعروف حتى الآن مخطوط عربى مكتوب على ورق البردى قطعة من كتاب وهب بن منبه المسمى كتاب « المغازى » على الغالب . وقد اكتشفت هذه القطيعة فى مجموعة ملفات « سكوت رينهارت بيكر » وهى محفوظة فى مكتبة جامعة هايدلبرغ فى المانيا الغربية . وقد تم نسخ هذه القطعة سنة ٢٢٨ هـ/٨٤٢ م . ومن المهم أن نعلم أن هذه القطعة ليست بشكل ملف ، وانما بشكل الكتاب الكراس ذى الصفحتين المتقابلتين وعدد صفحاته سبع وعشرون (١) .

واذا كان القرن الثالث قد أحيا الكتب عن طريق الوجادة ، فانه ورث ما استقر عليه علماء القرن الثانى فى أمر الكتب وروايتها ، وكذا طريقة «المناولة» وهى أن يعطى الشيخ لتلميذه أصل الكتاب الذى يرويه ، أو يعطيه نسخة مقابلة عليه ويقول « هذه كتابى » ، وقد أجزتك روايته ، فقد أسار سفيان الثورى
عليه ويقول « هذا كتابى » ، وقد أجزتك روايته ، فقد أسار سفيان الثورى
(ت ١٦١ هـ) على تلميذه يحيى بن سعيد أن يذهب الى الكوفة ومعه كتبه منها وهذه مناولة .

والأمثلة كثيرة : فيروى ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنه لم يسمع عن الزهرى فقد اعطاه كتابا نسخة ، فأجازه الزهرى روايته .

---

(١) محمد ماهر حمادة ، المرجع السابق ، ص ١٤٤ — ١٤٥ نقلا عن ماكينشى . ر . س « الكتب والمكتبات في العهد الاموى » . المجلة الامريكية للغات السامية وآدابها مجلد ٥٢ يوليو ١٩٣٦ ، ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

وذكر أبو زرعة أن سالح بن الأخضر قد تلقى عن الزهرى كتابين أحدهما قراءة والآخر مناولة .

وسأل (الامام أحمد بن حنبل) أبا اليمان الحكم بن نافع (ت ٢٢٢ هـ) عن كيفية أخذه الكتب عن شعيب بن أبى حمزة (ت ١٦٢ هـ) فأجاب « قرأت عليه بعضه ، وبعضه قرأه علي ومنحنى حق روايته ، وبعضه أجازه ، وبعضه مناولة » . ولعل هذه الرواية توضح معظم الأساليب المتبعة فى تحقيق واحياء الكتب القديمة والمعاصرة لهم .

وحكى عن أن هارون بن معروف (وهو معاصر للامام أحمد بن حنبل) قال « قدم علينا شيخ (١) من الشام الى بغداد ، فكنت أول من بكر عليه ، فسألته أن يملى على شيئا ، فأخذ الكتاب يملى .

وكان هناك للأئمة الكبار والمؤلفين كتاب يكتبون لهم ما يملى عليهم ، أو يكتبون ما يمليه الامام أو ما يرويه ويكون الكاتب حاضرا . ومن هؤلاء الأئمة الامام الأوزاعى فى القرن الثانى للهجرة ، فقد كان الأمثل ابن زياد الفقيه الدمشقى كاتبا للأوزاعى ، ولم يكن هناك أوثق من الامثل بالحديث ، وكان أكثر الفقهاء علما بمذهب الأوزاعي وفتياه (٢) . وكان أحمد بن أحمد ، ابن أخى الامام الشافعى ، كاتبا لابن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب « الوزراء » : ومما لاشك فيه أن هؤلاء الكتاب كانوا بدورهم يناولون الكتب لمن أراد احيائها ونسخ صور منها ، كما أن هؤلاء الكتاب يقومون أيضا بتحقيق كتب مشايخهم ومراجعتها .

ويدرك الباحث أهمية الكتب واحيائها فى القرن الثالث الهجرى . فروى عن أبى العباس بن مسلم (ت ١٩٤ هـ) ، أنه كانت له تصانيف كثيرة فى الحديث بلغت السبعين ، وبعضها يتعلق بالقضاء ، فقيل أن من كتب مصنفات الوليد صلح لولاية القضاء (٣) .

ظهر عامل خطير له من الأهمية شأن كبير ، أسهم فى تحقيق الكتب واحيائها فى القرنين الأول والثانى للهجرة ، الا وهو « خزائن الكتب » . وهذا

---

(١) سزكين : المرجع السابق ، ص ١٢٤ وما بعدها .

(٢) ابن خلكان وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٣١٠ .

ـ الذهبى : سير أعلام النبلاء (مخطوط) جـ ٥ ، ورقة ١٢٧ شمال .

(٣) الذهبى : العبر ، جـ ١ ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥

الأمر كان واضحا فى السنوات الأولى للقرن الأول ، فممن كان له السبق فى الحفاظ على الكتب على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وكان لعلى بن عبد الله بن العباس السبق فى احياء الكتب وتعدد نسخها ، مما روى عن على بن عبد الله بن العباس ، فقد قال موسى بن عقبة فى ذلك ، أن كريب — غلام عبد الله بن عباس — وضع عندنا حمل بعير من كتب ابن عباس ، فكان على على بن عبد الله اذا أراد كتابا ، بعث اليه أرسل بصحيفة كذا وكذا فينسخها ويرسل اليه . وكان قد سبقه الى خراسان مولى عبد الله بن العباس وهو أبو عكرمة السراج يحمل من كتب وعلم ابن العباس ، فعرف الخراسانيون على عهده بيت العباس .

دور الخزائن

وعرف أن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، الخليفة الأول للخلافة الأموية ، كانت له خزانة خاصة ، يقيم عليها الغلمان لخدمتها وحفظها ، وكان يحفظ فيها « كتاب الملوك وأخبار الماضين » ، وكذا كتب أخرى . وهى تشتمل على أخبار العرب وأيامها ، وأخبار العجم وملوكها ، ويجب أن يستمع الى شىء منها كل ليلة ، حيث يأتيه الغلمان بالكتب ، ويقرأون له مما فيها عن سير الملوك وأخبار دولهم (١) . ويؤكد أمر الخزانات فى هذا العصر مارواه ابن السندى الذى زار خزانة القاهرة سنة ٤٣٥ هـ ، فقد رأى كرة من نحاس من عمل بطليموس كتب عليها حملت هذه الكرة من خزانة الأمير خالد بن يزيد بن معاوية (٢) ، وتوسع فى الأمر من بعده يزيد بن أبى سفيان .

ومما لا شك فيه أن الخلفاء الأمويين من بعد ، والأمراء منهم قاموا بتقليد هذا الأمر ، وأعطوه عنايتهم ، وستكشف المصادر فيما بعد هذا الأمر ، ولعل هذا الأمر يندرج على الشيخ العابد عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، الذى بذ العابدين فى زمانه ، وسبق المجتهدين فى عصره، وهو الذى قتله عبدالله بن على عند فتح دمشق للعباسيين لأنه رفض أن يتنازل عن أمواله ، وأغضب ذلك الخليفة

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ، ص ١٧٥ ، ج ٤ ، ص ٨٩ .

ويروى المسعودى فى هذا الامر أن معاوية كان ينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ عليه ذلك غلمان مرتبون ، وكلو بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار والسير وأنواع السياسات) .

(٢) كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

العباس أبو العباس وأمر عبد الله بن علي ألا يقتل أحد من الأمويين فيما بعد الا بعد الرجوع اليه فى أمره (١) . بل ولعل هذا الأمر ينطوى أيضا على أمراء الأمويين فى العصر العباسى ، وأبرزهم أن أحدهم كان أيام الرشيد كان كثير المال والأملاك مطاعا فى البلد ، له جماعة وأولاده ومماليك ومـوال يركبون الخيل ويحملون السلاح ويغزون الروم ، حتى آن الرشيد خاف سطوته (٢) .

وورث القرن الثالث أيضا هذا الأمر أو هذه الوسيلة ، وانتشرت حتى ظلت ظاهرة عامة ، سواء فى الجوامع والمساجد ، أو المنازل ، خاصة بعد النهضة الكبيرة التى أعلنها ورواها كل من الخليفتين هارون الرشيد والمأمون ، كما ورثها من بعد أو اقتبسها سائر الكتاب والموسرين والأمراء ، بل وأمراء الدويلات الاسلامية التى قامت فى المشرق ومصر والمغرب على السواء ، وصار التنافس بين الجميـع يتضمن ملكية الخزائن ، هذا ويجدر بنا الذكر قيام خزائن الكتب فى المـدارس العلمية التى بقيت ظاهرة طوال العصر الاسلامى على مر فتراته ، وانتقلت الى العصر الحديث . بل ان هذه الخزائن تطورت فى نهاية القرن الثانى وطوال القرن الثالث الى ما يعرف بدور الحكمة ، وهو ما سيأتى ذكره فيما بعد .

ومن أمثلة خزائن القرن الثالث خزانة الواقدى المؤرخ الكبير ، فقـد ترك بعد وفاته (٢٠٨ هـ) ستمائة قمطر كتابا ، كل قمطر حمل رجلين (٣) ، كما كان ليحيى بن خالد البرمكى خزانة كبيرة بها كتب متنوعة (٤) .

وكان لعـلى بن المنجم بكركر (من نواحى القفص) (ت ٢٧٥ هـ) قصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة أطلق عليها خزانة الحكمة، وفتحها للراغبين فى الدرس(٥).

ويبدو أن أمر الخزانة هذا كان هاما ، وخاصة مع المؤلفين والكتاب وأصحاب المصنفات ، فيروى ابن خلكان أن ابن شهاب الزهرى كان اذا حبس فى بيته وضع كتبه حوله واشتغل بها عن كل شىء من أمور الدنيا حتى قالت له امرأته ذات يوم « والله لهذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر » (٦) .

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، ص ١٤٧ / القاهرة ، ١٣٨٨ - ١٩٦٩ .
(٢) التنوخى : الفرج بعد الشدة ، جـ ٢ ، ص ٩٨ . القاهرة ١٩٥٥ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ، ص
(٤) الجاحظ : الحيوان ، جـ ١ ص ٦٠ .
(٥) ياقوت : معجم الادباء ، جـ ١٥ ، ص ١٥٧ .
(٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ، ص

وسوف نتناول أمر الخزائن بشيء من التفصيل فيما بعد .

ونعود الى موضوعنا الأساسى ، وهو احياء الكتب والذى نسميه فى العصر الحديث احياء التراث ، فانه الهدف منه قديما يتلخص فى أمرين ، الأول اعادة نسخ الكتب ، والثانى نشرها بين سائر الأمصار الاسلامية . ويدخل فى هذا الاحياء تحقيق المخطوطات القديمة أو ما سبق تحقيقه وذلك بأسلوب علمى غير تجارى . وقد سبق الاشارة أن التحقيق والاحياء ارتبط بنشر العلوم الاسلامية ، ثم تناول فيما بعد العلوم الأخرى . ولقد انتشر هذا العمل وارتبط منذ ظهور لفظ « الاجازة » سواء بالسماع والكتابة أو الكتابة فقط . والاجازة هى اجازة الشيخ لتلاميذه ومريديه أو طلاب العلم من البلاد الأخرى الذين ينتقلون اليه ، وجميعهم يطلب روايتها واملائها بعد اجازة الشيخ لها . وهو شيخ يمنح من يريد اجازة أو تصريحا برواية كتب معينة أو غير معينة ، وفى الأخيرة يقول « أجزت لك رواية كل ما رويته [1] » . وهذا ظهر منذ القرن الثانى للهجرة ، وتطورت فيما بعد ، واتخذت أشكالا أخرى ، وسنتولى تطورها فى الباب اللاحق . وكل ما يهمنا فى هذا المكان أن تطور أشكال الاجازة أكثر من احياء الكتب والتراث ، وزاد فى نشرها .

دور النسخ

ومن العوامل المساعدة أو الهامة فى زيادة احياء الكتب ، ظهور النسخ والنساخ . واختراع الورق كوسيلة للكتابة عليه وتطوره الى شكل الكراسة وظهور الوراق . فكان لأبى العلاء المازنى ينسخ الكتب لنفسه ، وكان لا يمل ولا يكل حتى أن أكوام كتبه قد ملأت حجرة حتى لامست سقفها .

ويعتبر القرن الرابع عصر نهضة لاحياء الكتب كما كان عصر نهضة للتصنيف والتأليف وتنوع العلوم والآداب ، وكثرة الأجازات وأنواعها وأشكالها ، وظهور التصانيف الفهرسية . بل اتخذ فيه ـــ والقرون التى تليه ـــ عمل الأحياء أشكالا مختلفة ومتنوعة أيضا .

فما يروى عن محمد بن بعرة أنه كان يمتلك خزانة كبيرة تحتوى كتبا كثيرة ، منها قطعة من الكتب الغريبة فى النحو والأدب والكتب القديمة ، وكان نفورا ضنينا بما عنده ، واستطاع ابن النديم أن يؤنسه اليه حتى أخرج قمطرا

(۱) شركين : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

كبيرا فيه نحو ثلاثمائة رطل جلود فلجان ، وصكوك وقراطيس مصرية ، وورق تهامي وصيني ، وجلود أدم ، وورق خراساني ، فيها نوادر كثيرة عن العرب ، وقصائد مفردات من أشعارهم ، وشيء من النحو والحكايات والأخبار والأسمار والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم . وكان كل جزء أو ورقة أمداح توقيع بخطوط العلماء ، واحد اثر واحد يذكر فيه خط من هو ، وتحت كل توقيع آخر خمس أو ست شهادات العلماء بعضهم لبعض (١) .

ومما ساعد على احياء وتحقيق الكتب ، ما تعارف عليه المسلمون من استعارة الكتب فترة من الزمن من مالكها ، يمكن للمستعير أن ينقل عنها مخطوط لنفسه .

ونظام الاستعارة شجع عليه علماء المسلمين مبكرا ، فقال القاضي وكيع : « أول بركة العلم اعارة الكتب » .

وعملية اعارة الكتب أو استعارتها كانت منذ القرن الثاني الهجري ، فقد قال ابن شهاب (ت ١٢٤ هـ) ليوسف بن زيد « اياك وغلول الكتب ، قال : وما غلول الكتب قال حبسها(٢) » .

وربما تلطف أحدهم بشعر رقيق لطلب كتاب استعارة من صاحبه ، وذلك مثل ما عمل منذر بن سعيد البلوطي ، فكتب الى أبي على القالي (ت ٣٥١ هـ) يطلب فيه كتابا بعنوان « الغريب المصنف » .

وكان أصحاب الكتب المعارة يسمحون بنقل نسخ أخرى للمستعير من الكتاب الذي استعاره ، ويعطيه لذلك مدة معلومة ، فالقاضي أبو الوليد الكناني اذا أعار كتابا لأحد انما يتركه عنده بعدد ورقاته أياما ثم لا يسامحه بعد ذلك ويقول ، هذه الغاية « ان كنت أخذته للدرس والقراءة فلن يغلب أحد حفظ ورقة كل يوم ، وان أردته للنسخ فكذلك ، وان لم يكن هذا ولا هذا فأنا أحوط بكتابي وأولى برفعه منك(٣) » .

ومن كان يضن باعارة كتبه خوفا عليها ، كان يستنسخ نسخة من الكتاب المطالب اعارته ، ويعطيها للمستعير ويحتفظ بالأصل عنده ، مثل القاضي أبو المطرف قاضي الجماعة في الأندلس « لا يعير كتابا من كتبه البتة واذا سأله أحد ذلك وألح

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان .
(٢) أدب الاملاء ، ص ١٧٥ — ١٧٦ .
(٣) الالمـاع ، ص ٢٢٤ .

عليه أعطى الكتاب للناسخ فنسخه وقابله ودفعه الى المستعير (١) .

وظلت اعارة الكتب من الأمور الذى يصف بها المستفيدين صاحبها بالسمات الحميدة ففى ترجمة العلامة الحسين بن محمد الطيبى (ت ٧٤٣ هـ) وهو من الذين عرفوا بذلك ــ ما وصفه ابن حجر العسقلانى بقوله : « كان ملازما لأشغال الطلبة فى العلوم الاسلامية بغير طمع بل يجذبهم ويعينهم ويعير الكتب النفيسة لأهل بلده وغيرهم من أهل البلدان من يعرف ومن لا يعرف(٢) » . وأيضاف ترجمة القاسم بن محمد البرزالى (ت ٧٣٩ هـ) وصفه لقوله « حصل كتبا جيدة فى أربع خزائن ، وكان باذلا للكتب وأجزائه (٣) .

وربما كانت الاعارة هامة لاحياء الكتب والتراث بطريقة غير مباشرة ، فكثيرا ما كانت تصاب الكتب بنكبات كبيرة كالحرق والتلف للخزانة التى أعيرت منها ، ولا يبق من كتب هذه الخزانة الا الكتب المعارة ، فتحتفظ بها ، ويصبح خسارة الكتب غير كبيرة اذا كان قد قام بنسخها المستعيرون لها من قبل . فقد كان ابراهيم بن أبى بكر المعروف بالفاشوشة قد احترقت كتبه ولم يبق منها له غير الكتب التى كانت عند الناس فى العرض أو العارية منها (٤) .

وكذلك عبد الوهاب بن جعفر الميدانى (ت ٤١٨ هـ) الذى كتب بنحو مائة رطل حين احترقت وأعادها ، والسبب أنه لا يبخل باعارة كتبه ، سوى كتاب واحد كان لا يسمح به فاحترق وقد استحدث نسخا من الكتب التى نسخت من كتبه سوى ذلك الكتاب المضنون (٥) .

وعادة ما كانت المكتبات تشدد فى اعارة الكتب أو تمنع خروج كتب معينة ولا تعيرها ، وعلى سبيل المثال مكتبة الحكمة بنيسابور (٦) ومكتبات الأوقاف وفى هذه الحالة ، فالاحياء يقتصر على القيام بنسخ الكتاب داخل الخزانة ، وكذلك الحال عند بعض الأفراد ، حيث يحرمها على المنتفعين دون سبب محدد ، حتى أن أحدهم قال : « اذا عانيت الموت ألقيتها فى البحر (٧) » .

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٣٢٧ .
(٢) الدرر الكامنة ، جـ ٢ ، ص ٦٩ .
(٣) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٦٦ .
(٤) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٨ .
(٥) لسان الميزان ، جـ ٤ ، ص ٨٦ .
(٦) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٣٤٩ .
(٧) السخاوى : الضوء اللامع ، جـ ١ ، ص ١٢ .

ويبدو أن المكتبات كانت تضع علامة على كتب خزنتها ، وكذلك فعل الخلفاء ، وذلك تمييزا لها عن سائر الكتب ، ودلالة على ملكيتها ، ويقول ابن اصيبعه فى ذلك « وكان كاتب حنين رجلا يعرف بالأزرق ، وقد رأيت أشياءا كثيرة من كتب جالينوس وغيره بخطه .. وعلى تلك الكتب علامة المأمون (١) » .

وعملية الاحياء الدائم للكتب انما تسهم كثيرا فى تطور الفكر والثقافة ، وندرة الكتاب المحققة تطرح مشكلة أمام الباحثين ، وتشكل عقبة فى سبيل استيفاء أبحاثهم بالصورة الطيبة التى يودونها ، بل انها أحيانا توقف البحث نهائيا ، وعن ندرة الكتب المحققة نعرض لمثالين ، أحدهما من المشرق والآخر من المغرب .

أما عن الأول ، فهو عن « كتاب العصا » لأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) ، وقصته عن هذا الكتاب أنه سمع رواية من والده جاء فيها على لسان أبى يوسف القزوينى ، مخاطبا أبا الحسن بن بوين ، حين أمسك من كتبه كتابا يسمى « العصا » لمؤلف ضاع اسمه قائلا « ما أحوجك أن يكون ما فى يديك فوقها » .

وظل أسامة ما يقرب من ستين سنة يبحث عن الكتاب المذكور ، فتطلبه فى كل من الشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر ، فلا يجد أحدا يعرفه ، وكلما تعذر وجوده ازداد اصرارا على طلبه ، الى أن كاد يتملكه اليأس ، وانتهى به المطاف الى جمع هذا الكتاب وترجمه بكتاب العصا . وعلق عليه بقوله « لا أدرى أكان ذلك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره ... ولا أرتاب أن مؤلف ذلك الكتاب وقع له معنى فأجاد فى تنميقه وتأليفه ، وأنا فاتنى مطلوب ففزعت الى تجويزه وتلفيقه (٢) .

ويرى المحقق الحديث أن ما كان يبحث عنه أسامة بن منقذ دهرا انما هو « كتاب العصا » للجاحظ ، وهو من مشتملات كتاب « البيان والتبين » للجاحظ ، وأن أسامة انما التبس عليه الأمر فظن ذلك الكتاب الذى دار حوله الحديث — كتابا مستقلا لمؤلف آخر غير الجاحظ ، على حين عرف هو كتاب « الجاحظ » ، وقرأه واقتبس منه كثيرا فى كتابه هذا . وكتاب الجاحظ كان محوره مزاعم

---

(١) ابن أبى أصيبعة جـ ٢ ، ص ١٤٤ .
(٢) عبد السلام هارون : نوادر المخطوطات — كتاب العصا ، ص ١٧٨ .

الشعوبية الذين ذكروا مثالب العرب ، وقد نهج أسامة فى صدر كتابه هذا منهجا مقاربا لمنهج الجاحظ ، ولكن الكتاب شأن كتب أسامة التى تأبى الا أن تحمل طابع تأليفه ، بسرد الأحداث والأخبار(١) » .

ورغم قلة تحقيق كتب أسامة ونسخها ، وهو من القرن السادس الهجرى ، فان الحظ حفظ لنا ثلاث نسخ كانت الثالثة أحدث النسخ المحققة ، والأولى : نسخة ليدن برقم ٣٧٠ وعليها تاريخ ١٠٩٤ أى حققت فى القرن الحادى عشر ، والثانية نسخة الأمبروزيانا ورقمها ١٢٥ ، وتاريخ نسخها ١٠٦٧ أى حققت أيضا فى القرن الحادى عشر . أما الثالثة فهى المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم (١٩٥٨١٣ ز) ولم تحدد تاريخها ولكنها مكتوبة بخط حديث فى كراسة حديثة ، ويبدو أنها نقلت من أصل آخر لم يكتشف عنه بعد .

أما عن المثل الثانى : فقد رواه الحضرمى عن رجل من أهل قرطبة وكان حادثا طريفا ولكنه أغضبه ، حدث له فى سوق باعة الكتب فى المدينة . فيقول : أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مرة أترقب فيه وقوع كتاب كان لى بطلبه اعتناء ، الى أن وقع الكتاب ، وكان بخط جيد ، ففرحت أشد الفرح ، وجعلت أزيد من ثمنه فيرجع على المنادى بالزيادة على ، الا أن بلغ فوق حده ، فقلت : يا هذا ، أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه الى مالا يساوى ؟ ! قال : فأرانى شخصا عليه لباس رياسة ، فدنوت منه وقلت له :

ــ أعز الله سيدنا ، ان كان لك غرض فى هذا الكتاب ، تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده فقال لى :

ــ لا أدرى ما فيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط ، جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق ، فهو كثير .

فقلت فى نفسى : نعم ان أمثال هذا الرجل يملكون ثمن الغالى من الكتب ، لك حكمتك يا ربى ، تعطى البندق لمن لا نواجز له(٢) .

---

(١) هونيكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٣٨٨ ــ ٣٨٩ .
(٢) عبد السلام هارون : المرجع السابق ، ص ١٧٨ ــ ١٧٩ .

والمثل الأخير يوضح قلة تحقيق هذا الكتاب ، أو عـدم تحقيقه ونشره فى الأندلس .

ومن الاسهامات الهامة فى تحقيق التراث ، ليس العربى الاسلامى فحسب ، بل حتى التراث الانسانى العالمى القديم الذى لم يكن الغرب يعرف قيمته ، الكتب اليونانية واللاتينية ، التى قام العرب المسلمون بتحقيقها واعادة نشرها فى كتبهم بعد وضع كل ما يرونه فى مكانه الصحيح ، فيصححون الأخطـاء ويردون على الفلاسفة ، ويضعون العلوم موضع التجريب ، فيخرجون النتائج العملية السليمة ، ويقدمون المعلومات مؤيدة بتجاربهم .

ولم يكن تحقيق هذا التراث الانسانى العالمى وليد القرون الأخيرة ، بل بدأ به الأمير خالد بن يزيد ، ثم انتشر بصورة كبيرة فى القرن الثانى الهجرى ، والذى بلغ أوجه فى عهد الخليفة هارون الرشيد والمأمون وغيرهم وكان هؤلاء الخلفاء الأمويين والعباسيين يحبون اقتناء المخطوطات التى لم تترجم أو تحقق بعـد ، ليضعوها أمام العلماء العرب والمسلمين لترجمتها والعمل فيها ودراستها ، وكمـا كانوا لا يبخلون بالأموال الطائلة فى سبيل الحصول على الكتب وتحقيقها ، ولم يدخروا وسعا فى سبيل ذلك ولا وسيلة لتحقيق هذا الأمر .

التحقيق فى الشرق :

فاذا الأمير خالد بن يزيد قد حصل على الكتب من الأراضى التى كانت تتبع الدولة الأموية آنذاك مثل الشام ومصر وغيرها ، فان هارون الرشيد والمأمون أحضروا الكتب من خارج هذه الأراضى .

ففى أيام هارون الرشيد ، حين استولت الجيوش الاسـلامية على عمورية وأنقرة ، وسعى البيزنطيون للصلح ، كان من أهم شروط الخليفة هارون تسليمه المخطوطات الاغريقية القديمة ، وعلى المنوال نفسه ، اتبع المأمون حين انتصر على الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث طلب المخطوطات التى لم تترجم العرب من قبل كشرط من شروط التعويضات التى تؤدى للمسلمين .

والامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع أرسل رسله فى مهمة دبلوماسية الى الخليفة عبد الرحمن الثالث طالبا منه عقد حلف بينهما ضـد خليفة بغـداد سنة ٩٥١ م / هـ وأرسل مع السفارة حقيبة كبيرة ملأى بالمخطوطات القديمة ، ومن بينهما كتاب ملحق لكتـاب « ديسقوريدس » فى الأدوية ، وكان كتـاب

ديسقوريدس الأصل قد سبق ترجمته وتحقيقه وترجمته فى بغداد بواسطة اصطفن ابن باسيل الذى كان ترجمانا أيام المتوكل ، وراجعه شـيخ المترجمين فى عصره حنين بن اسحق ؛ وكذا كتاب هورسيوس « تاريخ الروم(١) » وهو عجب .

ولأن الترجمة غفلت الكثير من المعلومات وخاصة أسماء العقاقير اليونانية كلها ، فقد قام ابن جلجل بتحقيق ما جاء بالكتاب وتفسير تلك الأدوية ليكمل عمل اصطفن بن باسيل ، ثم ألف الملحق فيما بعد ابن جلجل المعاصر لحادثة قسطنطين السـابع .

وظل أمر احياء التراث الانسانى قائما وسط العلماء العرب المسلمين حتى القرن الرابع الهجرى ، ومن المصـادر التى أمدت العرب بهـذا التراث بعض البنايات القديمة التى كانت فى بلاد فارس بمدينة « جى » ومن هـذه البنايات بناية ساروية ، وبها من الكتب الفارسية واليونانية ما كان مكتوبا على لحـاء شجر التوز ، وكذلك بناء آخر ذكره محمد بن اسحق ونقله ابن النديم . وكانت كلها تحتوى من كنوز الكتب والعلوم القديمة الكثير ، وقال محمد بن اسحق : أنه رأى بالمشاهدة أن أبا الفضل بن العمير أنفذ الى هاهنا كتبا منقطعة أصيبت بأصفهان ، فى سور المدينة فى صناديق وكانت باليونانية ، فاستخرجها أهل هذا الشأن مثل يوحنا وغيره(٢) .

هذا فضلا عما رآه وعثر عليه أبو اسحق بن شهرام فى مكتبة ضخمة فى بلاد الروم (البيزنطية) هذا المعبـد كان لليونانيين القدماء ، من عبـدة الكواكب والأصنام ، فسأل أبو اسحق ملك الروم أن يفتحه له ، ففتحه بعد الحاح شـديد وملاطفة ، فعثر فيه على الكثير من الكتب القديمة ما يحمل على عدة جمال قد تبلغ الألف جمل . ومما لا شك فيه أن العرب المسلمون عرفوا مكانه ، واستطاعوا أن يحصلوا منه على الكتب ، ويحققوها بعد ترجمتها .

كما استطاع العرب كذلك أن يكشفوا كثيرا من الكنوز التى تحتوى على الكتب فى بلاد أخرى ، كالاسكندرية حيث عثروا على قبو مظلم تسكنه الفئران والعناكيب ومن بين كتبه كتاب فى فنون الحرب ، وأيضا وجدوا مثل ذلك فى قدر مغلقة تحت دير سورى .

(١) ابن جلجل : طبقات الاطباء والحكماء ، ص ٢٢ .
(٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦ .

وأصبح المخطوطات التى لم تترجم هواية الأمراء والوزراء وسراة القوم ، واتبعوا سنة الخلفاء فى الحصول عليها من بلاد الاغريق وآسيا الصغرى ، وفى كل مكان وطئته أقدام الاغريق يوما ما ، والجميع يشتركون فى أسلوب حصولهم على هذه المخطوطات سواء بالشراء ، أو عن طريق البعثات أو عن طريق عملاء لهم فى البلاد (١) .

هذا على أن التحقيق اتخذ أشكالا أخرى فى القرن الخامس الهجرى . واستمرت مناهج هذه الأنواع أسلوبا ومنهاجا لكثير من الباحثين الاسلاميين . هـذا الشكل هو : الشرح والتعليقات ، والملخصات ، وكانت هـذه الشروح والمؤلفات دليلا على أن بعض الكتب قد ضاعت واندثرت لسبب أو لآخر ، ورغم أن هذه الأشكال من العيوب والسلبيات التى انتابت عمليـة تصنيف الكتب ، الا أنها احتفظت لنا بصورة مختصرة من بعض الكتب ، بل ان بعضا منهـا كان عاملا مساعدا فى تحقيق بعض الكتب فى العصر الحديث ، الذين وجدوا فسادا فى ورق الكتب الأصلية ، سواء فى الورق نفسه ، أو ضياع أجزاء منه ، أو توضيح معنى لكلمة تغيب عنا فى الوقت الحاضر . ولم تقتصر هذه المصنفات على علم معين بل امتدت الى أغلب العلوم . فنجد مثلا حماسة أبى تمام (ت ٢٣١ هـ) قد قام بشرحها فيما بعده كل من أبى بكر الصولى ، والمرزوقى ، وابن جنى ، والآمدى والتبريزى ، وأبو هلال العسكرى ، وابن سيده وغـيرهم ممن أحصى عددهم صاحب كشف الظنون ، وهم واحد وعشرين شارحا ، وذكروا أن أول شارح لها هو أبو رياش أحمد بن ابراهيم الشيبانى (ت ٣٣٩ هـ) ، واستمر هذا المنوال فى القرون التالية .

وممن شرح مقامات الحريرى (أبى محمد القاسم بن على — ٤٤٦ — ٥١٦ هـ) كثيرون منهـم قاسم بن حسين الخـوارزمى (ت ٦١٧ هـ) ، وناصر بن عبد السيد المطرزى (ت ٦١٠ هـ) ، وأبو البقـاء العكبرى (ت ٦١٦ هـ) ، وأحمد بن عبد المؤمن الشريشى (ت ٦١٩ هـ) . بل ان الأخير كان له شروح ثلاثة لهذه المقامات ، كبير ، وأوسط ، وصغير .

---

(١) هونيكة : المرجع السابق ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .
(٢) عبد السلام هارون : التراث العربى ، ص ٤٢ — ٤٣ .

وشرح كتاب « احياء علوم الدين » لأبى حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) الزبيدى صاحب تاج العروس (١٢٠٥ هـ) وطبـع هذا الشرح بفاس سـنة ١٣٠٢ هـ فى ١٣ جزء (١) .

أما الاختصارات فلها نفس النظام فى هذا القرن ، ومن المختصرات التى تمت كتاب « احياء علوم الدين » الذى اختصره أحمد بن محمد الغزالى (ت٦٢٢) ، وهو أخو أبو حامد ، واختصره أيضا السيوطى (٩١١ هـ) ، وآخر اختصار له الى اليوم ما نشره عبد السلام هارون باسم « تهذيب احياء علوم الدين » .

واختصر ــ فيما سبق فى القرن الرابع ــ عمر بن الحسين الخرقى (ت٣٣٤هـ) (الفقه على مذهب الامام أحمد بن حنبل) ، وكان الخرقى من سادات الفقهـاء والمحدثين(٢) .

وممن اختصر فى كتب التراث التاريخى : العظيمى محمد بن على بن محمد التنوخى (ت ٥٥٨ هـ) وقد كتب تاريخين أحدهما مطول والثانى مختصر باسم تاريخ حلب ، ولكن النظر فى الثانى (المختصر) يكشف انه تاريخ عام وهو مخطوط فى استامبول (مكتبة قرة مصطفى ٣٩٨) نشر الجزء الأخير منه كلود كاهن . وابن نظيف أبو الفضائل محمد بن على بن عبد العزيز الحموى (القرن السابع الهجرى) وله تاريخ عام واسع ، وأوجزه فى كتاب صغير اسمه « التاريخ المنصورى » طبع فى موسكو كما له موجزا آخرا باسم « مختصر سير الأوائل والملوك » (وهـو مخطوط) وأيضا ابن أبى الدم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن عبـد المنعم الحموى (ت ٦٤٢ هـ) ، وله موجز لتاريخه الكبير المقضى (أو المظفرى) ، يدعى فى المخطوطات أيضا باسم التاريخ المظفرى ولعل اسمه الشماريخ فى التاريخ وهو فى تاريخ الاسلام وعلى السنين ، ومنه مخطوطان فى الهند (مكتبة خدابخش ــ بتنه رقم ٨٦٨م ورقم ٢٨٦٩) ومخطوط فى بلدية الاسكندرية (رقم ١٢٩٢ ب)(٣).

وكتاب التاريخ فى هذا الأمر (الاختصارات) ، طرقه المؤرخون لمن يريد المعلومات السريعة المكثفة ، ولذلك سمى بعضهم كتبه باسم « باقة المستعجل » أو « مجمل التواريخ » أو « جمل تاريخ الاسلام » ، وهو يلبون فى ذلك مطالب

---

(١) النهبى : العبر ، جـ ٢ ص ٣٤٧ ، ٣١٥ .
(٢) شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ١ ، ص ٤٢٠ ــ ٤٢١ .

بعض الأمراء والعلماء الذين يحتاجون الى معلومات سريعة يضيق وقتهم عن أوسع منها ، وتقل حاجتهم الى أكثر منها ، ثم ظهور المختصرات فى العلوم الأخرى ، والهرب من نسخ المجلدات الواسعة ، فأوجدوا بذلك المختصرات فى التواريخ العامة أو التاريخ الاسلامى . وهو يعتمدون على المعلومات الواسعة فى التراث التاريخى الكبير ، ويقومون بتصنيف الكتب التاريخية المختصرة .

التحقيق فى الأندلس :

ومن الأندلس انتشرت عملية تحقيق الكتب بأنواعها ، وكان الحكم الثانى ابن عبد الرحمن الناصر (الذى أنشأ جامعة قرطبة فى المسجد الجامع) مغرما باقتناء الكتب ، فكان يكلف رجاله باقتناء الكتب من المخطوطات فى حوانيت الاسكندرية ودمشق وبغداد وشرائها ونسخها ، أى يعيد تحقيقها بالصورة التى يرتضيها الباحث المحقق ، حيث يعلق عليها فيما بعد ، وبهذه الطريقة تمكن الحكم الثانى من جمع أكثر من أربعمائة ألف مجلد[1] .

وكان الحكم يطلع بنفسه على بعض هذه المخطوطات ، ويكتب ملاحظات فى هوامشها مما جعل لها قيمة فى نظر العلماء المتأخرين ، والذين أضافوا هذه التعليقات عند تحقيق الكتب مرة أخرى . ولعل أبرز مثل قام به الحكم أنه أراد أن يحصل على النسخة الأولى لكتاب الأغانى التى كتبها أبو الفرج الأصبهانى نفسه ــ وهو من سلالة الأمويين ــ وكان يقيم اذ ذاك بالعراق فبعث اليه بها قبل أن يخرجه بالعراق ، فأرسل الحكم اليه ألف جنيه ذهبا[2] .

ومن المختصرات الهامة فى الأندلس كتاب « الكور على الدور ، والأمد على الأبد » وهو مختصر لكتاب « المقتبس فى تاريخ علماء الأندلس » الذى يقع فى عشر مجلدات لابن حماد الأندلسى وينسب المقتبس الى الشيخ الامام الحافظ أبن عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزانى وفقا لرأى اليافعى ، وقيل لأبى مروان حيان بن خلف (ت ٤٦٩ هـ) . والاختصار الذى سبق الاشارة ينسب الى المؤلف نفسه ابن حماد . وقام أيضا أبى عبد الله محمد بن فتوح الأزدى (ت ٤٨٨ هـ) باختصاره وسماه « مختصر المقتبس » وهناك فى كتب التواريخ مقتطفات من كتاب « نور المقتبس » وهو مختصر أيضا[3] .

---

(١) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٦ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ٢٥٠ .

ــ المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٣) حاجى خليفة . المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٩٢ .

وخرجت الينا أصناف أخرى من الكتب والمخطوطات ، نجم عنهـا صنف جديد ، والأول هو الملخصات ، فاستتبعه كتب الشروح . ومن أمثلة ذلك ملخص فى الجدل لأبى اسحق ابراهيم بن على الشيرازى الشـافعى (ت ٤٧٠ هـ) . وكتاب الملخص فى الحديث لأبى الحسن على بن محمد بن خلف القابسى المعافرى المالكى . الذى صار امام عصره فى الفقه والحديث ، ولد سنة ٣٢٤ هـ وتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، وجمع فيه من أحاديث فى الموطأ ، وقال أبو عمرو الدانى أنه جمـع خمسمائة وعشرين حديثا وشرح القاضى شهاب الدين محمد بن أحمد بن محمد الخويه الشافعى (ت ٦٩٣ هـ) خمسة عشر حديثا ، وقد أجاد وابان عن مزيد علم وغزارة فضل كما قال السبكى(١) واستمر هذا الأمر طويلا .

نكبات الكتب

وعلى الرغم من هذه الكثرة فى التحقيقات والنسخ ، فان النكبات للكتب صارت تتوالى عليها حتى خسرنا الكثير منها ، ولم يستطيع الاحياء والتحقيق من أن يحفظ لنا هذه الكتب أو مختصراتها أو شروحها . ومن أمثلة هذه الكتب :

ـ كتاب « الديارات » لأبى الفرج الأصبهانى (٢) ، وهو كتاب هام يلقى الضوء على دور الأديرة فى القرن الرابع الهجرى فى المجتمع ، وما تقدمه من خدمات وقد ذكره ابن خلكان والصفدى ، وحاجى خليفة ، ونقل عنه البكرى فى معجم ما استعجم ، وياقوت فى البلدان ، وابن فضل الله العمرى فى كتابه « مسالك الابصار فى ممالك الامصار » فى كل من أكثر من موضع .

ـ كتاب « أخبار الوزراء الى آخر أيام الراضى بالله » لأبى الحسن على بن الحسن الملقب بابن الماشطة ونقل عنه المسعودى فى مروج الذهب .

ـ وأجزاء من كتاب « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » لأبى بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولى الكاتب (ت ٣٣٥ هـ) ، وقد قال فيه المسعودى أن فيه غرائب لم تقع لغيره وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها(٣) .

ـ كتاب ابن بشار أحمد بن محمد بن سليمان الكاتب « فى مطالع القرن الرابع الهجرى » . فى الخراج وهو كتاب كبير فى نحو ألف ورقة رآها ابن النديم بخطه فى مسودتها .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨١٨ ـ ١٨١٩ .
(٢) ابن النديم : المصدر السابق ، ص ١٦٧ .
(٣) شاكر مصطفى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٠٨ ، ٣١٤ .

ـ كتـاب ابن سريح (اسحق بن يحيى بن سريح النصرانى ويكنى أبا الحسين) ، وكان عارفا بأمور الدواوين ومناظرة العمال وصناعة الخراج . وكتابه فى الخراج جزئين : الأول الخراج الصغير وجعله منازل كتاب عـلم المؤامرات بالحضرة[1] .

ـ كتب الكندى أبو عمر محمد بن يوسف التجيبى (ت ٣٥٠ هـ) صاحب كتاب الولاة والقضاة وهو يسمى « كتاب الخطط عن انشاء الفسطاط وأحيائها ومعاهدها وآثارها » ونقل منه المقريزى الذى قال عنه « أول من رتب خطط مصر وآثارها » .

ـ كتاب أخبار البرامكة لأبى حفص عمر بن الأزرق (القرن الرابع) ونقل عنه ابن العديم فى كتابه بغية الطلب .

ـ كتاب ابن زريق أبو الحسن يحى بن على بن محمد التنوخى (ت بعد ٥٠٨ هـ) ، وهو عن تاريخ دخول السلاحقة والصليبيين الى الشام . وقد ضاع أثره [2] .

ـ كتب كان يحفظها عمر بن الحسين الخرقى ، صاحب المختصر فى الفقه على مذهب الامام أحمد بن حنبل . وكان من سادات الفقهاء والعباد ، وخرج من بغداد مهاجرا لما كثر بها الشر والسب للصحابة ، وأودع كتبه فى بغداد فاحترقت الدار التى كانت بها ، وهدمت مصنفاته (ت ٣٣٤ هـ) .

ـ كتاب الرايات ، صنفه محمد بن موسى الرازى ، وهو مشرقى الأصل من مدينة الرى وفد على الأندلس سنة ٢٤٩ هـ ، واستقر فى قرطبة ، وهـذا الكتاب من أبرز المؤلفات التى كتبها ، فقد وبقى منه قطع متناثرة فى المراجـع التاريخية الأخرى ، وفيه ذكر دخول موسى من نصير .

بل ان الأمر المؤسف للتراث العربى ، أن بعضه صار ينقل ويحقق فى العصر الحديث من الكتب التى سرقت أو أهديت الى أوربا ، وخاصة الكتب التى حققت

---

(١) ابن النديم : المصدر السابق ، ص ١٩٥ .
(٢) شاكر مصطفى : المرجع السابق ، ص ٣٥٦ ــ ٣٥٨ .
(٣) الذهبى : العبر ، جـ ٢ ، ص ٢٧٥ .
ــ ابن كثير : البداية ، جـ ١١ ، ص ٢١٤ .

فى الأندلس ، بل لم يكن لها مخطوط آخر فى المشرق ، يمكن مراجعة ما تم تحقيقه بواسطة المستشرقين اليه .

ومن أمثلة ذلك أن كتب أحمد محمد بن موسى الرازى (٢٧٤ هـ — ٣٢٤ هـ) والذى كان ملقبا « بالتاريخى » لكثرة اشتغاله بالتاريخ والتأليف فيه ، جاء فى كتب التراجم لشارة الى أن أبرز مؤلفاته التاريخية هى :

— « أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم » .

— « كتاب فى أنساب مشاهير أهل الأندلس » فى خمسة أسـفار ضخمة ، وقد اعتمد ابن الأبار فى كتابه كثيرا على هذا الكتاب .

— « كتاب صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها » .

— « كتاب كبار الموالى الأندلسيين » .

قد ضاعت جميعا ، رغم أهميتها السياسية والاجتماعية والحضارية ، ولم يبق منها الا قطعة فى صفة الأندلس نقلها أول الأمر عن العربية الى البرتغالية بأمر الملك البرتغـالى ديونيس (١٢٧٩ — ١٣٢٥ م) قس يسمى « خيـل بيريز Jil Perez » وكان يساعده فى الترجمة جماعة من المغاربة يدعى أحـدهم « المعلم محمد Maese Mohamed » ، ويروى الدكتور حسين مؤنس عن دوزى وجايانجاس ان القسم الثانى فى ترجمته البرتغالية وعنوانه « تاريخ أسبانيا منذ وصول أشيان بن يافت اليها الى دون دودريجو (الملك لذريق) — انما هو من وضع خيل بيريز ، أما القسـم الثالث ، ويتناول تاريخ الأندلس من الفتح الاسلامى الى عصر الحكم المستنصر — ومن المؤسف أن هذا الأمر كله هـو مختصر لكتاب الرازى ، وقد نقلت هذه الترجمة الى الاسبانية تحت عنـوان Coronica de Moro Risis أى تاريخ الاسـلام للرازى ، وناقلها الى الاسبانية مجهول الاسم ، وربما كان عربيا أو من ، وقد نشر جاينجاس قسما من هذه الترجمة سنة ١٨٤٠ م ، أى فى القرن التاسـع عشر ، وأكمل نشرها فيما بعد رامون منندث بيدال فى « فهرس المدونات فى المكتبة الملكية بمدريد Cataloge de Coronicas de la Real Bilioteca (١) .

(١) جمال الدين الشيال : المرجع السابق ، ص ٣١ — ٣٢ .

بل ان كتـاب هورشيوس الذى يحـوى تاريخ الروم ، وأهـداه ملك القسطنطينية الى عبد الرحمن الناصر ، ترجمة علمـاء العرب والمسلمين ومنهم قاسم بن أصبغ البيانى ، الذى كان جزءا من جيل قاد العمل العلمى باخلاص ، ومن أصحاب الرحلات الطويلة الى المشرق للبحث والطلب والاطلاع وانتساخ أمهات الكتب والعودة بها الى الأندلس ، واستاذ أحمد بن محمد الرازى .

وقـد عاشت الترجمة العربية قرونا طويلة الى القرنين الثامن والتاسـع الهجريين (١٤ ــ ١٥ م) ونقل منه ابن خلدون فى تاريخه ، وذكر أنه أطلع عليه وكذلك فعل المؤرخ المصرى أحمد بن على المقريزى ، وظلت هذه الترجمة خافية عن العالم الى أن نبه اليها « سلفستر دى ساس » وهى النسخة الوحيدة ، التى قصر التحقيق والاحياء فى احيائها وتحقيقها مرات أخرى . وهذه النسخة الوحيدة توجـد الآن فى مكتبة جامعـة كولومبيا فى مدينة نيويورك تحت رقـم (X, 199 - 712 H) وتقع فى ١٢٩ ورقة وتنقصها بعض أوراق فى أولها وآخرها ، بخط أندلسى جميل[١] .

ومن الكتب التى اهتم بها المستشرقون ونشروها حتى صارت مرجعا لنا فى تحقيق الكتب اذا وجدت فى الأراضى الاسلامية أو العربية ، الكتاب التاريخى الوحيد الذى جلبه اربينوس من الشرق ، وهو الجزء الثانى من التاريخ العـام للمؤرخ القبطى المصرى المكين جرجس بن العميد (٦٠٢ ــ ٦٧٢ هـ) وعنـوانه « تاريخ المسـلمين من صاحب شريعة الاسلام أبى القاسم محمـد ال الدولة الاتابكية » وحاول اربينيوس ان يستعين بكتب ومراجع عربية أخرى ليحقق كتابه تحقيقا دقيقا ، ويخرج نصا صحيحا ولم يستطع اتمامه ، فاتمه تلميذه يعقـوب جوليوس » وظهرت أول طبعة لأول كتاب تاريخى عربى ١٦٢٥ فى ليدن ثم ترجم الى الفرنسية وطبع فى باريس ١٦٥٧ ، والى الانجليزية وطبع فى لندن ١٦٢٦ . بل ان الكتاب كان له ذيل لمؤرخ قبطى آخر هو الفضل بن أبى الفضائل يسمى « النهج السديد والدر الفريد فى ما بعد تاريخ ابن العميد » وطبع فى باريس بعناية بلوشيه[٢] .

---

(١) يرجع الى تفاصيل هذه الترجمة والمراجع التى ذكرتها فى جمال الدين الشيال : المرجع السابق، ص ٣٤ وما بعدها .

(٢) يرجع الى جمال الدين الشيال ومرجعه السابق وهوامشه ، ص ٩٣ .

الملخصات والشروح

واذا كانت موضوعات الكتب قد تطورت عبر القرون ، فقد صاحبها التحقيق فى هذا التطور وتابعها . واستمرت عملية الاحياء والتحقيق تأخذ طريقها فى تحقيق هذه الكتب الجديدة ، وخاصة الملخصات والشروح ، وقد كانت لهذه التحقيقات الأخيرة فضل كبير فى القاء الضوء على الكتب الأصلية ، بل ومرشدا لنا فى التحقيقات .

ومن مقتضيات التحقيق المتطورة فى العصور الاسلامية أن يفصل بين كل كلامين بدائرة ، أو ترجمة ، أو قلم غليظ حتى لا يستمر الكلام كله على طريقة واحدة ، ففيه عسر للفهم ، وضياع الوقت .

وكتابة الأبواب والأسماء والمذاهب وبعض الأقوال أو الأفعال أو الطرق . وكذلك اللغات ، والاعداد الى مثل ذلك . ومن استخدم ذلك عليه أن يبين المقصود من هذا ، وخاصة فى فاتحة الكتاب (مقدمته) ليفهم القارىء الهدف المنشود من الكتابة بهذا اللون(١) .

وقد رمز بالأحمر جماعة من المحدثين والفقهاء والأصوليين وغيرهم لقصر الاختصار ، ولذلك تفنن النساخون فى ذلك ، فنجد ناسخا يضع لكل ضبط لونا من الألوان، فاللازورد للشدات والجزمات ، واللك للضمات والفتحات والكسرات، والأخضر للهمزات المفتوحة(٢) .

ولم يترك العلماء المحققين أو المؤلفين مجالا يوضح سلامة الحرف أو الفعل أو الكلمة الا واستخدمها فيقول ابراهيم بن زكريا الزهرى :

« ان شيوخنا من أهل الأدب يتعالمون ان الحرف اذا كتب عليه (صح) بصاد وجاء ، أن ذلك علامة لصحة الحرف لئلا يتوهم عليه خللا ولا نقصا ، فوضع حرف كامل على حرف صحيح ، واذا كان عليه صاد ممدودة دون حاء كان علامة على أن الحرف سقيم اذا وضع عليه حرف غير تام ليدل على نقص الحرف على اختلاف الحرف ، ويسمى الحرف أيضا ضبة أى ان الحرف مقفل بها لم يفهم(٣) ».

وكان الخط الصحيح الثمين الواضح يعتبره المحققون وأهل العلم أشبه بالأصل المكتوب بخط المؤلف ، ومن ذلك النسخة التى كتبتها عائشة بنت الفقيه

---

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع مع المتكلم فى أدب العالم والمتكلم ، ص ١٩١ .

(٢) الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ ٣ ، ص ٣٥٢ .

(٣) ياقوت : ارشاد الاديب ، جـ ١ ، ص ٢١٦ .

عمارة بن يحيى عمارة (ت ٥٨٥ هـ) من كتاب يتيمة الدهر للثعالبى ، فلم يوجه اليها أية انتقادات مثل المخطوطات الأخرى(١) .

وليس معنى الصحة قاصرة على النسخ ووضوحه ، بل ان الأهم فى متطلباتها وموجباتها الاهتمام بالنص بصحيحه وتصحيحه (٢) . وكان العلماء يخافون على صحة النص ، فيقصرون نساخة كتبهم على واحد فقط ؛ أو يحضر بعضهم النساخين الى منزله مقيما فيه لينسخ ويراجعه أولا بأول . وقد أدرك النساخ أمر الاهتمام بالتحقيق نصا وكتابة ، فاحترفوا ببراعة واخلاص مهنتهم ؛ فأجادوا كتابة الخط بطريقة واضحة بحيث لا يطمس واوا ولا ميما . وكان هذا من مقتضات التحقيق ، ولذلك أثنى العلماء عليهم وشكروا لهم صنعهم ، ومن أبرز الذين أثنوا على النساخ أبو العلاء المعرى(٣) .

على أن الكثرة من العلماء قاموا بنسك الكتب لأنفسهم لكتبهم أو غيرها ولم يشتغلوا بما عداها ليضمنوا صحة التحقيق والحفاظ على النص ، أى حرصهم على الدقة والضبط والنص . ومن الذين قاموا بهذا العمل ابن الجوزى الذى قال « كتبت بأصبعى هاتين ألفى مجلدة(٤) » . وكذلك المؤرخ الكبير أحمد بن النويرى (ت ٧٣٣) الذى اشتغل بتحقيق ونسخ كتابه « نهاية الارب فى فنون الأدب » وكان يبيعه بألفى درهم .

الوراقة والنسخ

وبتطور انتشار الكتب تطورت صناعة الوراقين الى بائعين للكتب (الكتبيون) ، واشتغل هؤلاء الكتبيون بجميع ضروب العلم المعاصر لهم من نحو وصرف وأدب وقضاء وفقه ... الخ ... ولعل أشهرهم على الاطلاق ابن النديم صاحب الفهرست ، ومنهم أيضا الوطواط وهو جمال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى (ق ٧) الذى ألف « غرر الخصائص الواضحة وغرر النقائض الفاضحة » وكتاب « مباهج الفكر ومناهج العبر » واشتهر بدمشق محمد بن شاكر الدارانى الذى كان فقيرا ثم رزق منها مالا طائلا(٥) .

---

(١) عبد الله الحبشى : الكتاب فى الحضارة الاسلامية ، ص ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٣) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٨٩ .

(٤) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٢ .

(٥) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكاملة ، ج ٣ ص ٤٥١ طبعة حيدر آباد .

ومن الوراقين الكتبية القضاه محمد بن الليث الأصم ، قاضي مصر سنة ٢٢٦ هـ من قبل المعتصم[١] ، وخليفة قاضي مصر حمزة بن علي الغلبوني أبو الحسن علي (أحمد) بن أبي الفضل بن أبي القاسم الوراق الدارقزي الفقيه المعروف بابن عربية . ومحي الدين عبد القادر النبراوي الحنبلي بمصر وكان أعرف الناس صناعة التوريق والقضاء والفقه[٢] .

وكان الوراقون المحدثون هم الفئة الغالبة لاقبال الناس عليهم ، وذكرهم كثيرين مسجلين فى كتب الطبقات والتراجم عند البغدادى والسمعانى وغيرهم .

ومن الوراقين العلماء والنحاة والأدباء ما شكر ذكره دائما أبو حيان التوحيدى والوراق يسمى على بن عيسى بن على الرمانى أبو الحسن ، وكان اما فى العربية علامة فى الأدب والنحو ، ومن أكثر العلماء استخراجا للعويص من الكلمات وايضاحا للشكل ت ٣٨٤ هـ . ومن المتبحرين النحاه أيضا محمد بن عبد الله أبو الحسن الوراق الذى صنف فى النحو كتابا حسنا ت ٣٨١ هـ[٣] .

ومن الأندلسيين محمد بن حمدون الغافقى القرطبى الوراق ، وعلى بن عبد الله بن موسى بن طاهر الغفارى السرقسطى النحوى وكان حسن الوراقة بارع بارع الخط[٤] .

وكان هناك فروق بين خطوط الوراقين وخطوط المصنفين للكتب نفسها ، فقد ذكر ابن عساكر فى ترجمة الحسين بن أحمد النيسابورى الحافظ قال : أفنى عمره فى جمع المسند الكبير ... وقع خطه فى ألف وثلاثمائة جزء ، ويقع فى خطوط الوراقين فى ثلاثة آلاف ، وكان مسند أبى بكر الصديق رضى الله عنه بخط المترجم فى بضعة عشر جزءا بعلله وشواهده ، وكتبه الوراقون فى نيف وستون جزءا[٥] .

وكان للمحدثين قلم مختزل دقيق الحروف متراص تسهل معه مقاربة السطور وتوفير الورق والرق لغلائهما فى كل وقت ، وكان يسمى بالمقرمط .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٤٤٩ .
(٢) الذهبى : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٥٩ ، ٢٦٤ .
(٣) ياقوت : ارشاد الاديب ، ج ٥ ، ص ٢٨٠ — ٢٨٢ .
(٤) السيوطى : بغية الوعاة ، ص ٢٩ ، ٣٤٠ .
(٥) ابن عساكر : التاريخ — تهذيب بدران ، ج ٤ ، ص ٣٥٢ .

والمكروه فى التحقيق والنسخ والاحياء ، الكتابة بالخط الدقيق والرقيق ، أى الرفيع الصغير ، وكذلك تضييق الفراغ بين السطور ، لأن ذلك يرهق كبـار السن ، والضعاف فى النظر ، وخاصة من كبار السن . ولذلك كان وضوح الحرف بكل اشارته هاما فى النسخ . ولكن كانت هناك ظروف تفرض نفسـها للكتابة بالخط الصغير ، ومنها الحالة الاقتصادية للمؤلف أو الناسـخ ، أو طالب تحقيق النسخة ونسخها ، فان كان يسير العيش يكتب بخط كبير ، وان كان فقير الحال فانه يكتب بالخط الرفيع(١) .

ويرفض العلماء تحقيق الكتب بخط التعليق ، وهو خط الحروف التى ينبغى تفرقتها واذهاب أسنان ما ينبغى اقامة سنه وطمس ما ينبغى اظهار بياضه ، وكذا خط الشق ، وهو خفة اليد وارسالها مع بعثرة الحروف وعدم اقامة الأسنان .

ورغم ان ابن النديم كان يكتب بقلم جليل ليكون أكثر وضوحا ، ولتكون الصفحات أكثر عددا فيزداد من أجر التاسخ . ولكن ــ على الأرجح ــ أن هـذا الخط كان أقل جودة من خط العلماء(٢) .

ولم يكن أمر التحقيق قاصرا على وسيلة واحدة ، بل يستخدم كل الوسائل المتاحة كلها لتحقيق الكتب عليها ، والمتوفرة فى مكان التحقيق سواء فى المشرق أو المغرب الاسلامى .

على أن الأمر الهام هو أن التحقيق لم يولد أو يتطور ، ان لم يجد الوسيلة التى يسجل عليها المؤلف ولم يكن أمر التأليف يسيرا ان لم يجد هذه الوسيلة .

واذا كانت النصوص القديمة فيما قبل الاسلام ، والسنوات الأولى منه لم تكتب الا على الرقاع والعسب واللخاف وغيرها ، فان هذه المواد غير واقعية فى المؤلفات الأكبر التى تشمل تحقيق ما كتب فى هذه الوسائل ، بل ان الجلود أيضا (والمسماة بالرقوق) التى سجل عليها بعض الكتابات والأبحاث الاسلامية الأولى. فضلا عن المصحف التى كتب فى عهد عثمان (رضى الله عنه) المسـمى بمصحف عثمان أو مصحف الامام ، لم تكن هذه الجلود بالوسيلة المثلى التى يسجل عليها المؤلفات والأبحاث التى تسجل الكتابات الأولى أى تحققها ، وتضيف عليها .

---

(١) الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ .
(٢) الحلوجى : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

وبعد أن فتح الله على المسلمين بتحرير البلاد فى الشام ومصر والعراق وفارس وخراسان وغيرها ، كان أمام المسلمين وسيلة هامة متبعة فى الشام ومصر بصفة خاصة وهى ورق البردى والمسمى بالقرطاس(۱) .

واستعمال البردى مادة كتابية قديمة يعود الى الألف الثالث قبل الميلاد بمصر ، ومنها انتشر فى حوض البحر المتوسط ، وأخذه اليونانيون عنها ، وأطلقوا عليه اسم بابيروس نسبة الى مدينة جبيل السورية الواقعة شمال طرابلس الشام ، ذلك أن تجارة البردى كانت وقفا على مدينة جبيل السورية هذه .

ولما كان لفظ ببيروس يعنى عند اليونان الكتاب ، لذا انسحب الاسم ليشمل المادة المستعملة للكتابة ، وانتشر البردى فى جميع أنحاء العالم وبلغ أوجه فى الألف الأول قبل الميلاد ورغم منافسة الجلود له فيما بعد خاصة فى العصور المسيحية وفى ظل البابوية ، الا أن استخدامه ظل قويا الى أن عادت البابوية لكتابة مواثيقها به .

أصبح البردى هذا تحت تصرف المسلمين بعد تحريرهم مصر ، التى صدرته لسائر العالم الاسلامى فيما بعد ، وصار مادة تجارية فيه ، وجاء ذكر ذلك فى كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » لابن البيطار ، فقد كان يتداول بين الناس عن طريق التجارة ، وكان الدرج يتألف من عشرين ورقة ملصق بعضها ببعض وتسمى الورقة الأولى « بروتكول » ومعناها « اللصق الأول » وكانت ميزاته أنه جاهز تحت الطلب ومرن ويمكن استعماله فى الشكل المناسب ، وتكتشف به أى محاولة للتزوير فى النص . وقد سبق الاشارة الى استخدامه فى عصر الراشدين ، كما استخدمه الأمويون اعتبارا من عهد معاوية بن أبى سفيان (رضى) ، فكان يكتب الخلفاء عليه فى قرطاس ثلثى طومار (۲) (والطومار الورقة الكاملة) ، بل ان دوادين الشام كانت مسجلة فى قراطيس . كما عثر على قطعة من كتاب « المغازى » لوهب بن منبه مخطوطة عليه .

---

(۱) القرطاس كله من أصل يونانى تسمى خارطيس Hhartis تطلق على الصحيفة المعدة للكتابة من ورق البردى ، ويذكرها القلقشندى بمعنى الكاغد ويرى آن كل كاغد قرطاس ، وقد ذكرت فى القرآن الكريم فى موضعين من سورة الانعام : آية ۷ ، ۹۱ .

(۲) ماهر حمادة : الكتاب العربى ، ص

وظل البردى يستخدم الى أن ظهر الورق الخراسانى ، الذى صنع فى عهد الأمويين ، هذا الورق الذى صنع على مثال الورق الصينى ، ويصنع من الكتان وقيل أن العمل به كان قديما عن ذلك . وقد عمله صناع من الصين على مثال الورق الصينى وله أنواع ؛ وان كان أهل بغداد استمروا فى الكتابة فى الطروس وهى جلود لينة تسحوا ويكتب فيها ، وتصنع من جلود دباغ النورة (٢) .

ولكن التجارة كانت تحمل معها حضارات الأمم التى تتعامل معها فنقل التجار أمر صناعة الورق الصينى من سمرقند بعد أن نقل صناعتها الى هذه المدينة أسرى سمرقند عن معركة تمت فى نهاية الدولة الأموية سنة ١٣٣ هـ تقريبا . ثم انتقلت هذه الصناعة بعد ذلك الى سائر العالم الاسلامى ، كنتيجة طبيعية لزيادة الطلب عليه من المؤلفين والمحققين والنساخ وغيرهم، فذهبت الى المغرب والأندلس واشتهرت الأندلس بجودة ورقها وغزارة انتاجه منها ، وكانت مصانع الأندلس تنتج جميع أنواعه بما فيها الملون منه .

ومن شواهد التحقيق بعد انتشار الورق ، مثل واضح تحت أيدينا فى العصر الحديث ، فالمعروف حتى الآن أن أقدم مخطوط عربى مكتوب على ورق هو كتاب « غريب الحديث » لمؤلفه أبى عبيدة القاسم بن سلام ، وتاريخه ذي القعدة ٢٥٢ هـ وهو موجود فى حوزة جامعة ليدن ويوجد نسخة أخرى أحدث يعود تاريخها الى سنة ٣١١ هـ محفوظة بمكتبة الجامع الأزهر فى القاهرة(٢) .

وانتشار صناعة الورق ونشرها كان لها أكبر الأثر فى تقدم التحقيقات واحياء الكتب ونشرها ، وقد هذبت شكل الكتاب وطورته حتى أخرجته فى شكل هندسى مستطيل أو غيره محدد ، يسكن حمله والانتقال به ومصافحته بصورة أيسر . بل وبظهور الورق ظهرت جماعة جديدة هى جماعة الوراقين الذى كانوا يقومون بالتجارة فى الورق ويعملون بالنساخة وغيرها .

وبانشغال العلماء بدراساتهم وتلاميذهم ، تركوا أمر التحقيق الى النساخ والوراقين .

وكانت الفترة الأولى من صناعة الورق تشمل استخدام المحققين لكافة الوسائل ، واحتفاظ العلماء بما لديهم من نصوص على أنواع الورق المختلفة

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٣٢ .

(٢) ماهر حمادة : الكتاب العربى ص ١٥٣ .

والجلود وغيرها . ولدينا مثل يوضح لنا ذلك ويبين لنا التطور المختلف والمتوالى فى استخدامات الوسائل المستخدمة فى الكتابة ، بل يؤكد أن العلماء لم يتوقف انتاجهم وتحقيقاتهم على واحد من هذه الوسائل ، ويستخدمون ما يتوفر لديهم أو لدى الأماكن التى يعيشـون فيها ، مثل ما فعـل أهل بغـداد الذين كانوا يستخدمون الجلد رغم وجود الورق الخراسانى .

أما عن المثال الذى أشرنا اليه ، فقد جاء فى ابن النديم ، أنه كان فى مدينة الحديثة (فى العراق) رجل يقال له محمد الحسين بن بعرة ، وكان جماعة للكتب وله خزانة لم ير لأحد مثلها كثرة . هذه الخزانة تحتـوى على بعض من الكتب الغريبة أو قطع منها فى النحو واللغة والأدب والكتب القديمة . وكان محمـد الحسين هذا نفورا ضنينا بما عنده ، وخائفا من بنى حمدان على ثروته ، فأخرج مرة قمطرا كبيرا فيه نحو ثلثمائة رطل جلود فلجان ، وصكوك ، وقراطيس مصرية وورق تهامى ، وورق صينى ، وجلود أدم ، وورق خراسانى ، فيهـا نوادر عن العرب وقصائد مفردات من أشعارهم وشىء من النحو والحكايات والأخبـار والأسمار والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم ، وكان على كل جزء أو ورقة امداح توقيع بخطوط العلماء واحدا اثر واحـد ، يذكر فيه خط من هو ، وتحت كل توقيع آخر خمسة أو ستة من شهادات العلماء بعضهم لبعض [1] .

ومن جملة ما رآه ابن النديم فى هـذا القمطر مصحفا بخط خالد بن أبى الهياج صاحب على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ورأى فيها بخطـوط الحسن والحسين بل وبخط على نفسه . وكذلك أمانات وعهود بخط بعض كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ، هذا فضلا عما رآه من خطوط العلماء فى النحو واللغـة وأصحاب الحديث .

وشاهد ابن النديم أربعة أوراق من الورق الصينى فى النحو عن أبى الأسود الدؤلى فى الفاعل والمفعول بخط يحى بن يعمر .

ويحى بن يعمر من تلاميذ أبى الأسود ، وأنه توفى سنة ١٢٩ هـ ، وهـذا دليل على أن الورق الصينى كان مستخدما ولو بصورة نادرة فى العالم الاسلامى وربما جلبه التجار .

---

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٦١ .

ان كل ما له علاقة بالكتب تطور بشكل أنيق جدا ، وبصورة جيدة تيسر تداولها وتحقيقها ، وقد أحيطت الكتب بضروب الرعاية والعناية ، ونشرت بين الناس ، وجميع ذلك كان هدف واهتمامات الثقافة الاسلامية(١) .

ومن أبرز التطورات التي دخلت على الكتاب ، الكيفية ، والشكل الخارجي أما عن الكيف هنا فالمقصود به عـدد أوراق الكتاب أو الجزء الواحـد منه ، والشكل الخارجي يشمل التجليد الخارجي .

فقد صار حصر الكتب بعدد الأوراق . والورقة كما قال محمد بن اسحق انما تعنى الورقة السليمانية التي يوافقها ابن النديم . والورقة السليمانية تعنى عشرون سطرا في الصفحة ولكن ليس معنى ذلك أن مقدار الورقة في المخطوطات القديمة على نفس المنوال ، بل تتفاوت من كتاب الى آخر أو من صـفحة الى أخرى (٢) . ثم نتج عن ذلك المجلد الذي يتكون من عـدد معين من الورقات ، وتقدير المجلد عشر ورقات ، وعلى سبيل المثال كتب ابن أبي العتاهية ، عن أبي محمد اليزيدي نقلا عن أبي حمدون الطبيب ، قريبا من ألف مجلد ، فيكون عشرة آلاف ورقة ، فكأن المجلد أطلق قديما على ما يسمى بالكراسة .

صناعة التجليد

وظهرت ونمت صناعة هامة تخص كتب التراث،أسهمت في زيادة الطلب على التحقيق والنسخ . هذه الصناعة التي كانت تقوم أساسا على حفظ الكتب ومتونها الداخلية بالصورة السليمة، فضلا عن قيامها بجذب طبقة جديدة من راغبي خزانات الكتب والحافظين لها احساسا بالثراء أو الامتياز ، بالاضافة الى زيادة انتباه الطبقة المثقفة والمتعلمة للحصول على الكتب بصـورة تضمن لهم استخدامها استخداما مستمرا دون تأثير على ورق الكتاب ، وكذا حاجة العلماء والقضاة في الحصول على الكتب اللازمة التي تحفظها من كثرة استعمالها .

وهذه الصناعة أسهمت في تطور اخراج الكتاب ، الا وهي صناعة التجليد التي بدأت بسيطة ، ثم تخصص فيها عمال واهتم بها أصحاب حـوانيت الكتب

---

(١) محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .
نقلا عن مقالة أولنايتو « المكتبات العربية في العصر العباسي » مجلة الثقافة الاسلامية ، مجلد ٣ ، (١٩٢٩ م) ، ص ٢١٢ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٢٧ .
- ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

والوراقون فانفقوا عليها ليطوروها ، فتطورت بصورة سريعة ، وبفن متقدم ، وأصبحت ملازمة لمصانع الورق . وتأثر عمالها فى فنونهم وأعمالهم بفن التجليد الصينى بعد أن طوروه لعمل غلافات الكتب العربية والاسلامية (١) ، ثم استقلوا بتفوق فى صناعة التجليد حتى صار نموذجا رائعا لفن الصناعة العربية الاسلامية.

ولم يعرف العرب فى الجاهلية فن التجليد لعدم وجود الكتب بصورة الكراس لديهم وأقدم التجليدات الاسلامية هى عبارة عن أسلوب بدائى يتمثل فى شد جسم الكتاب الى غطاء خشبى دون تغطية ذلك الغطاء بجلد وذلك باستعمال خيط متين . بعد ذلك أستعيض عن الخيط المتين بقطعة من الجلد تلصق على دفتى الكتاب ، وأخيرا غطيت دفتا الكتاب بغطاء من جلد مع زخارف وتزيينات خارجية وداخلية من حرير أو قماش . وهناك مثل فريد للغطاء الخشبى فى دار الكتب المصرية ، عبارة عن قسم من مصحف مخطوط أبعاده ٣٤×٢٣ سم بخط الامام جعفر الصادق سنة ١٠٠ هـ ، ويحتوى النصف الأول من المصحف وعدد أوراقه ٢٠٩ ورقة من جلد الغزال .

وعرفت مصر فن التجليد قبل معظم بلاد العالم الاسلامى حيث كان الأقباط يحفظون كتابهم المقدس وقد استخدموا البردى بعد الخشب وهذا ما يؤكده كتاب مقدس عثر عليه فى الفيوم ومحفوظ فى مجموعة راينر البردية فى فينا .

ثم تأثر عمال التجليد الاسلاميون ــ فيما بعد ــ بصناعة التجليد فى البلاد المحررة القبطية والفارسية والبيزنطية والنصرانية وغيرها ، واعتبر عمل المجلد الاسلامى من فنون الكتاب الاسلامى والتحقيقات الأولى لاعادة تحقيقها فيما بعد أى حفظ أوراقها من التلف فضلا عن مظهرها الخارجى الذى كان له دوره فى ابراز الكتاب ، والتأثير فى سعره(٢) .

ومرت مراحل تجليد الكتب لدى المسلمين بثلاث مراحل :

الأولى : هى الطبيعية التى تزين غطاء الكتب بمناظر طبيعية مأخوذة من العمارة .

---

(١) كريستى (أرنولد برجز) : مقال الفنون الفرعية والتصوير والعمارة ، ترجمة زكى محمد حسن ، وهو من كتاب تراث الاسلام ، جـ ٢ ، نشر لجنة الجامعيين ، ص ٨٨ وما بعدها .

(٢) محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ، ص ١٨٦ ــ ١٨٧ .

الثانية : المرحلة الهندسية ، وهى فن تزيين غطاء الكتب بمناظر مأخوذة عن العمارة والأعمدة وغيرها أو على ما شابه ذلك من الأشكال الهندسية من المربعات المتداخلة التى تشكل محاورها نجمة .

الثالثة : الاضافات الجديدة التى أضافها المجلدون المسلمون لحفظ الكتب المحققة وأوراقها من الداخل .

على أن هناك أمرا هاما يجب الاشارة اليه عند اختتام دراستنا عن التحقيق والاحياء للكتب والمخطوطات .

فالمؤلفين الذين كتبوا فى فترة ما ، بعد أن أدركوا سعة العلم والاطلاع سمحوا لقراءهم بالاصلاح والتصحيح فيما يلحظونه فى كتبهم ، فجاء فى نهاية كتاب « عيون الأثر » لابن سيد الناس ما نصه « قد انتهى بنا الغرض فيما أوردناه الى الى ما أوردناه ، ولم نسلك بعون الله فيه غير الاقتصاد الذى قصدناه ، فمن عثر فيه على وهم أو تحريف أو خطأ أو تصحيف ، فليصلح ما عثر عليه من ذلك ، وليسلك سبيل العلماء فى قبول العذر هناك ، ومن مر بخبر لم أذكره ، أو ذكرت بعضه ، فليضعه بحسب موضعه من التبويب أو نسقه فى الترتيب (١) . أى أن ابن سيد الناس اشترط أن يقوم بذلك العلماء أو من سلك أسلوبهم .

وهذا يعنى أن العلماء تركوا لتلاميذهم من أهل العلم أيضا التصرف حسبما يرونه سليما . ولكن هذا كان له أثره السىء فيما بعد . فمن الأخطار التى وقعت فيها التحقيقات القديمة متبعة هذا الأسلوب ، ما تنبه له بعض المحققين المحدثين(٢)

ففى تحقيق كتاب الحيوان للجاحظ حديثا ، لاحظ المحقق أن هناك عبارة مقحمة فى نسختين من أصول الكتاب ، ونص العبارة « كنت بعجب بطن عقرب اذ كنت بمصر ، فوجدت فيه أكثر من سبعين عقارب صغار ، كل واحدة نحو أرزة حرره أبو بكر السروكتى » .

وعلق الباحث أن الأسلوب ليس للجاحظ ، والجاحظ لم يدخل مصر ، وعبارة « حرره أبو بكر السروكنى » شاهد على أن العبارة مقحمة بلا ريب .

---

(١) عيون الاثر ، جـ ٢ ، ص ٤٣١ .

(٢) عبد السلام هارون : تحقيق النصوص ، ص ٧٢ .

وحينما دخل التحقيق للكتب مرحلة التدهور ، نتيجة للظروف المختلفة التى تعرض لها العالم الاسلامى ، انهارت كل العمليات التى ترتبط به مثل الوراقة والتجليد وغيرها ، ونجد ذلك لدى ابن خلدون الذى عاش فى الفترة من ٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ ، فقال فى مقدمته الشهيرة « ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله . وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية ، فينسخها طلبة من البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف ، فتستغلق على متصفحها (أى تبدو مبهمة) ولا يحصل منها فائدة الا فى الأقل النادر[١] .

واذا كان ابن خلدون تكلم فى ذلك عما حدث بالمغرب ، فالواقع أنه ابتداء من القرن الثامن الهجرى ظهر فى المشرق ولكن بصورة أخرى نتيجة الظروف الاقتصادية ، ثم امتد فيما بعد الى سائر أنحاء العالم الاسلامى ، فانشغل العلماء بالنسخ من أجل قوت يومهم وانصرفوا عن التحقيق والتأليف والدراسة وفى هذا يقول ابن رجب الحنبلى « وقد وصلنا الى زمان تقطعت فيه هذه الأسباب ، حتى لو احتاج العالم فى هذا الزمان المظلم أن يجتهد فى كسب ان قدر عليه ، وان أمكنه نسخ بالأجرة ، ويدبر ما يحصل عليه ويدخر الشىء لحاجته تعرض لئلا يحتاج الى نذل » [٢] .

من هؤلاء العلماء الذى فضل النساخة باعتبارها أقرب الحلال عند الحاجة أبو الفتح بن سيد الناس (ت ٧٣ هـ) ، وعلان الشعوبى صاحب كتاب المثالب ، والعلامة أبو سعيد السيرفى ، والحسن بن عبد الله المرزبانى (ت ٣٦٧ هـ) وغيرهم [٣] ، ومنهم من أجبرته الحاجة الى ذلك قبل أبو بكر بن على الحداد (ت ٨٠٠ هـ) قد أصيب بكثرة الأولاد والفقر فامتهن حرفة النساخة ورفض هدايا السلطان المتكررة اليه .

ولم يكن هذا الأمر بجديد على العلماء ، فقد كان هذا سنة العلماء حين يتعرضون للفاقة ، فهذا الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠ هـ) كان ينسخ فى مدة سنة ثلاثة كتب ضمن اشتغاله بالعلم وهى كتاب اقليدس والمتوسطات والمجسطى .

---

(١) المقدمة ، ص ٣٨٢

(٢) الحبشى : المرجع السابق ، ص ٦٤ نقلا عن كتاب ابن رجب الحنبلى : الآداب الشرعية ، ص ٢٤٨ .

(٣) ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ، جـ ٢ ، ص ٢١٨ .

ويستكملها فى مدة السنة ، فاذا شرع فى نسخها جاء من يعطيه مائة وخمسين دينارا مصرية ، وصار ذلك كالرسم الذى لا يحتـاج فيه الى مفاوضة أو معـاودة أو مناقصة ، ويجعل هذه الدنانير مؤنته لسنة كاملة (١) .

الخلاصة أن تحقيق متن الكتاب تحقيقا أو تحسينا أو تصميما ، انما هـو أمانة الأداء التى تقتضيها أمانة الاعتقاد، وأمانة التاريخ . فالكتاب حكم على المؤلف وحكم على عصره وبيئته ، والتصرف فى ألفاظه أو بعض مضامينه عدوان على المؤلف الذى له وحـده حق التبـديل والتغيير حتى ولو كان خطأ . ومن ذلك ما ذكره الأزهرى ، صاحب التهـذيب فى مقدمة معجمه ، عن ذكر أبا عمـرو الشيبانى أنه اسحاق بن مراد ، وأراد المحقق فى العصر الحديث أن يصحح الخطأ وفقا لكتب التراجم ولكنه وجد القدماء سجلوا هذا الخطأ قديما ، وكذلك الأزهرى ، فـلم يجد المحقق مندوحة من أن يبقى الاسم على خطئه كما هو (٢) .

فالتحقيق أمر جليل ، يحتاج الى جدية ومزيد من الجهد والعناية أكثر مما يحتاج اليه التأليف (٣) ، ولقد قال الجاحظ « ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفا أو كلمة ساقطة ، فيكون انشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعنى أيسر عليه من اتمام النقص حتى يرد الى موضعه من اتصال الكلام ، فاذا هـذا شأن مؤلف الكتاب نفسه ، فان المسئولية تصبح أكبر على المحقق قديما وحديثا .

* * *

وبعد ، فلنا كلمة نختم بها هذا الباب ، ونأمل أن تلقى عناية ووعيا . وهى .

لما كانت الشعوب الاسلامية عامة ، والعربية خاصة ، فى العصر الحديث ، تعتبر من الشعوب ذات العمق والمد الحضارى فى أعماق التاريخ الانسانى ، وذلك بما لها من دراسات وأعمال دينية وأخلاقية وحضارية وثقافية وعلمية ، واقتصادية ، أى فى شتى التخصصات ، أى بما لديها من مقومات الحياة بصفة عامة ، تسجلت جميعها فى كتب وصحف ، بذل فيها علماؤها وكاتبوها ومحققوها وناسخوها جهدا كبيرا عبر أكثر من ثمان قرون ، لذلك صار لهذه الشعوب الاسلامية والعربية مميزات تنفرد بها عن غيرها من شعوب أخرى كثيرة .

---

(١) القفطى : تاريخ الحكماء ، ص ١٦٧ .
(٢) عبد السلام هارون : تحقيق النصوص ، ص ٤٧ .
(٣) عبد السلام هارون : المرجع السابق ، ص ٥٢ — ٥٣ .

وعندما أراد الغرب أن يضع أقدامه على أعتاب التقدم والفكر والدراسة ، كان طبيعيا أن يبدأ بدراسة هذه المصنفات من التراث ، الذى احتفظت بكثير من مخطوطات اليونان وغيرها . هؤلاء الدارسين وجدوا فى التراث العربى الاسلامى ما هو أكثر تقدما وفكرا وشمولا وقيما مستمدة من الدين الاسلامى الحنيف ، تصلح لبناء الانسان عامة ، ومن ثم المجتمعات والشعوب . لذلك أسرعوا بتحقيق المخطوطات العربية ، ثم ترجموها ونقلوها الى لغاتهم . .

ولكن التعصب الذى ساد بعضهم دينيا وقوميا ، فضلا عن جهلهم بأسرار ومعانى اللغة العربية الواسعة جعلهم يسيئون لهذا التراث فى التحقيق ، واصطناع مفاهيم غريبة رغم استفادتهم فعلا منه .

ولقد بذل الرواد الأوائل المسلمون فى العصر الحديث جهدا كبيرا وشاقا مبتغين وجه الله ومؤمنين بتراثهم وحضارتهم ، فى تحقيق بعض التراث ، حقيقة أن المستشرقين كانوا من الرواد الأول ، منذ وقت مبكر — كما سبق الاشارة — الذين عكفوا على اخراج كنوز التراث العربى الاسلامى فى المجالات المختلفة فى الدين والأدب والعلم، وحققوها تحقيقا علميا مضبوطا، الا أن الرواد المسلمين ابتداءا من الصف الأول ، والذين كانوا من الباحثين المتعمقين الدارسين ، استطاعوا أن يتصدوا لهؤلاء البعض من المستشرقين ، والكشف عن زيف الكثير من آرائهم ، ووضع الحقائق فى نصابها السليم بالتفسير والتعليق فى التحقيق ، بل حتى فى الترجمة كما هو واضح من التعليقات المختلفة على مواد دائرة المعارف الاسلامية .

ومع هذا الجهد من الطرفين ، والذى ارتفع بين الباحثين فى العالم الاسلامى والغربى ، فان أعدادا ضخمة جدا من هذا التراث المخطوط لا تزال تقبع فى خزانات الكتب فى جميع أنحاء العالم ، الشرقى منه والغربى ، بل للأسف فى كثير من خزانات العالم الاسلامى والعربى .

ولا شك أنه من الواجب على العالم الاسلامى والعالم العربى خاصة أن يعمل على تحقيق هذا التراث المخطوط ، واخراجه الى النور والطبع والتداول بين

دارسيه ومثقفيه ومفكريه ، كما يجب أن يسهم كل بدوره حسب امكانياته فى احياء التراث ، بل ويشكلون قوة كبيرة واعية تسهم فى الاحياء ، ويعمل القائمون على التحقيق والمفكرون الذين يعتنقون الاسلام واقعيا وايمانا أن يناقشوا هؤلاء الذين يتسمون بالتقدميين ، وينسلخون من كيانهم بالمناداة على الانسلاخ من التراث ، ويزعمون أن الرجوع اليه يجعلنا سجناء الماضى ، رغم أنهم تلاميذ أوفياء للفكر المادى الغربى ، هذا الفكر الذى ما زال ينهل من التراث حتى وقتنا الحاضر ، وليس فى العلوم الانسانية النظرية فحسب ، بل حتى فى العلوم الانسانية العملية ، ولعل قضية النظرية والعملية هذه من صنع المادية ، فلا يستطيع الانسان أن يعمل أو يقوم بأى تجربة عملية قبل أن يفكر ويتأمل بطريقة فكرية نظرية مطلقة ، ولا يستطيع أن يدرك قيمة نتائج التجربة دون أن يكون على علم بتطورها التاريخى وأثرها الاجتماعى وتأثيرها الجغرافى ، وحساباتها ، وكيفية تعميمها ..الخ.

ومما لا شك فيه أن دعوى هؤلاء المتسمين بالتقدميين تنقصها البينة ، وذلك نتيجة جهلهم بهذا التراث ومكوناته وغزارة معلوماته التى تهم حياتنا المعاصرة ، هذا فضلا أن معلوماتهم ما هى الا قشور مبتورة مشوشة أخذوها — غالبا — من مراجع استشراقية أو غير موثقة ، وفاقد الشىء لا يجب أن يضع نفسه فى مكان العطاء ولو بقليل .

والدعوة الى احياء التراث ليس تخلفا ، وانما عودة الأمة الى أصالتها ، ولعل هؤلاء المتنكرون لتراثهم يستمعون لصوت غربى باحث ، يقدم بحثه بدراسة دون النظر الى أى اعتبارات ، وهو (توينبى) اذ يقول « ان أى انفصال يحدث بين واقع حضارة ما وبين جذورها التاريخية ووحدتها العضوية ، سيؤول بها حتما الى الضعف والسكون والعجز عن استجاشة طاقاتها الخلاقة لمجابهة التحديات المتزايدة وهكذا تجد نفسها — وقد أصابها الشلل — تنساق نحو التدهور والسقوط .

ولعل هؤلاء أيضا — تلاميذ المستشرقون — يدركون الخطر من دعواهم ، والتى رآها توينبى فى بعض الحضارات التى تعانى النزع الأخير فى سقوطها ليعفى

عليها الزمن كما غفى عما سبقتها وعدد هذه الحضارات التى تنازع النفس بسبع منها الحضارة العربية الاسلامية ، وان الحضارة المادية الأوربية تعمل بجهد كبير نحو هذا الأمر ، هذا ما ذكره توينبى فى كتابه « دراسة فى التاريخ » فهل يعى هؤلاء هذا الرأى . ليس أمامنا ـ بعد مناقشتهم ـ الا القول (اللهم أهد هؤلاء فانهم لا يعلمون) .

كل ما يمكن أن نختتم به هذا الباب هو أن نشارك من يرون أن الدعوة الى احياء التراث ، وهى دعوة راقية وسامية فى أهدافها ومفاهيمها ، هى دعوة حضارية ، هى دعوة بعث لأمة ظلت ما يقرب من ثمانية قرون سادة العالم علميا وفكريا وحضاريا .

الباب السادس

مراحل تكوين التراث

- قضية المعلقات
- التراث فى العهد النبوى والراشدين
- التراث من القرن الثانى الهجرى
- الكتابة فى العصر الجاهلى والاسلامى
- المهن الجديدة المساهمة

قد لا نكون مبالغين اذا قررنا أن البذرة الأولى فى تكوين التراث العربى الاسلامى نشأت مع نزول أول آية من آيات القرآن ، ودليلنا على ذلك أن أول كلمة من آية نزلت هى « اقرأ ... » وهذا يعنى أن الاسلام يطلب الاهتمام بالعلم قراءة وكتابة . وكلمة « اقرأ » انما تعنى القراءة تلاوة لا يستوجب مكتوبا ، أو تلاوة شيء مكتوب والأولى خص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثانية تستوجب ممن آمن وأسلم أن يتعلم الكتابة ليقرأها (وهذا يعنى كل من المسلمين على قدر طاقته وظروفه) .

الكتابة فى العصر الجاهلى

وهناك فراغ فى أذهان كثير من الباحثين حول الخط العربى وادعاء تأخر القراءة والكتابة حتى جعلوا منها قضية يبذلون جهدهم لاثباتها بهدف عدم وجود مخطوطات قديمة ، وهذا ما يستدعى منا وقفة هامة لما هذا الموضوع من أهمية فى مراحل تكوين التراث العربى الاسلامى .

فاذا نظرنا الى الأبحاث التى تتناول أمر الخطوط ، لوجدنا أنها أكدت وجود آلاف من النقوش للخط العربى بأنواعه منها القديم ، ومنها القريب من عصر النبى (صلى الله عليه وسلم) .

ولا يعنى وفرة السجلات المنقوشة على الحجر وغيره أنه لم تكن هناك سجلات أخرى منسوخة على مادة أيسر كالبردى أو الرق أو سعف الخيل . فقد أشار الى ذلك الباحثين القدامى منهم والمحدثين ، ومما أشار اليه المحدثون النصوص الحميدية الواردة فى كتاب الأغانى ، والتى نقلت من مواد يسهل حملها ونقلها ، ومن الأدلة أيضا ما أورده الدينوى (١) من أن هناك رجل فى أواخر الدولة الأموية من حفدة أبرهة بن الصباح آخر ملوك حمير كان يحتفظ بنسخة من حلف اليمن وربيعة فى الجاهلية ، وكانت مكتوبة بالشعر المنثور ، وقد كتب الحلف عند ملك اسمه تبع بن ملكيكرب . كما أشارت بعض المصادر الى أن عرب الحيرة المناذرة كانت لديهم « كتب » تحوى أخبارهم وأنسابهم .

---

(١) الدينورى : الخبار الطوال ، ص ٣٢٦ .

المهم اننا نستنتج أن العصر الجاهلي الذى كان فترة طويلة الامـد عاصر التطورات الحضارية القديمة ، سواء فى اليمن أو البتراء وتدمر والحيرة ، ومن الطبيعي أن يكون لهذه الحضارات سجلات مهما اختلف هدفها ، وهذه السجلات تكون مكتوبة ومدونة في سجلات منقولة وتأثر عرب الجاهلية بهـذا الأمر ، وان لم يكن منتشرا . وأن التدوين كان فى سجلات لديهم ، ويؤكد ذلك ما جاء بكتاب الله الكريم النزل (قالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا)(١) . وأيضا ما جاء بقول الله تعالى فيه (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا) (٢) وقوله تعالى (والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور) (٣) وقوله تعالى (ن والقلم وما يسطرون) (٤) . والآيات تشير كلها الى معرفة العرب بالكتـاب ، ومن ثم كان للعرب مدونات ومسجلات ، وان كانت مفقودة ربما يجود بها الحفريات والزمن فيما بعـد .

ويقتصر أمر دراستنا على مدونات العرب قبل الاسلام بهذه الصورة الموجزة ولكن نهدف من وراء الاشارة اليه الى أنه مدخل الى دراستنا لمسجلات ومدونات العرب المسلمين ، العرب بالمعنى الواسع للكلمة وأبعادها ، أى كل ما يتخذ العربية لغة تعبير وثقافة وعلم ، ويتعامل بها كجزء من شخصيته وشخصية مجتمعه .

ولكن الموضوع يفرض علينا مناقشة القضية التى أثارها بعض المستشرقين من أبناء العرب جريا وراء المستشرقين من أبناء الغرب ، بل وحقدا لما فى نفوسهم من أمر ما ، هذه القضية هو أنه لم تكن هناك قراءة وكتابة لعرب الحجاز خاصة ، وعرب الصحراء وأنحاء الجزيرة عامة باستثناء الاطراف . ويحددون عرب الحجاز لأمرين، باعتبار أن عـرب الحجاز أكثر العرب تحضرا ، فضلا عن أن الاسـلام نزل فيهم وانتشر من خلالهم . وبجهد عدد كبير منهم . واستطاع جرجى زيدان وأمثاله من

---

(١) سورة الفرقان آية ٥ .
(٢) سورة الاسراء ، آية ٩٠ - ٩٣ .
(٣) سورة الطـور آية ١ - ٢ .
(٤) سورة القـلم آية ١ .

النيل والاساءة الى العرب من خلال ما كتبوه فى هــذه القضية ، أو مارسوه فى كتاباتهم الأخرى .

والقرآن الكريم البليغ ــ باعتراف أهل الحجاز أنفسهم ــ نزل على أهل الحجاز أولا ، وجميع الآيات المشار اليها آيات فى سور مكية كلها ، أى نزلت فى مكة ، فضلا عن أن هذا القرآن لا ينزل على قوم بدائيون . وقد نزل بلغة قريش (لسان) اللغة العربية التى يستخدمها أهل الحجاز ، حتى أن عثمان بن عفان فى وصيته للجنة جمع المصحف أشار الى العودة للغة قريش فيما يختلفون فيــه فلا يعقل أن يعرف أهل الحجاز ألفاظ (اكتتب ، وتملى ، نقرأه ، كتاب مسطور ، رق منشور) وهم لا يعرفون الكتابة والقراءة حتى وان لم تكن ذائعة الانتشار بل ان القراءة مقترنة باستخدام القلم .

حقيقة أن الغموض يسدل أستاره على بداية التدوين أو التسجيل قبل الاسلام وان اتضحت من الأخبار والحقائق التى ناقشت تدوين تاريخ الجاهلية وأشعارها أن أقدم أخبار هذه الفترة لا يتجاوز القرن السابق لمبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم تذكر ــ للأسف ــ أسماء الكتب أو المدونات المتداولة فى هذا العصر ولكن بشىء من الدراسة والملاحظة نجد فى المصادر القديمة ــ نقلا ــ أن هــذا الشاعرأو العالم أو الخطيب أو غيره . كان ممن يقرأ فى الكتب القديمة أو يجمعها(١) ومن هؤلاء أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وقس بن ساعدة الأيادى .

واذا كانت اللغة العربية ــ كحقيقة واقعة نزل بها كتاب الله ــ قد مرت فى طريق طويل حتى وصلت الى ما وصلت اليه بما هو ظاهر فى الشعر الجاهلى قبــل الاسلام ، وذلك من مستوى رفيع ، وفى الصورة المتداولة التى وصلتنا بها من أبيات موزونة وكلام مقفى ، وتذوقها العرب حتى كثر فيهم الشعراء النابغون والفصحاء القوالون ، فمن الطبيعى أن يسير مع هذا الأمر عملية التسجيل والكتابة ولو بشكل أقل حركة ، والا ما عرفنا حروفها ومفرداتها التى مما لا شك نمت معها لأن اللغة عامة والشعر والكلام المقفى خاصة هو الوسيلة التى اعتمد عليها التراث

(١) فؤاد سزكين : تاريخ التراث ، المجلد الاول ، ج ٤ ، ص ٢٧ .

الذى تركه العرب فى العصر الجاهلى لتخليد مآثرهم وحياتهم المختلفة ، بل وكانت قريش ــ زعيمة الحجاز ــ خاصة فى الفصاحة والحكم واللسان ما ليس لغيرهم ، ولذلك كانت العرب تدين لها ، وتعترف بالسبق لها ، فضلا عن ان أبرز فترة نضج فيها الشعر والنثر هى فترة عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف حيث قصدت القصائد وطول الشعر (١) .

ولا شك أن هناك من قريش من كان له حاجة فى تسجيل الشعر أو المعاملات التجارية أو الرسائل ، ولكن كانت مهنة الكتابة ــ شأن المعلم ــ مهنة ارتزاق لصغارى القوم حتى كان يعبر بها البعض ، لأنها من المهن الدنيا . وهذا ما كان ينسب للحجاج وأبيه والأخير عاش قبل الاسلام .

فاذا انتقلنا الى معرفة الكتابة والقراءة خارج الحجاز ، فمما لا شك فيه أن الجزيرة العربية لم تكن معزولة عن العالم الخارجى ، من سكنها من عرب الأطراف أو الصحراء أو اليمن أو الحجاز . ويروى لنا التاريخ عددا من هذه العلاقات التى كانت قائمة بين زعماء العرب وملوك الدولتين المتحضرتين فارس والروم فضلا عن الحبشة ومصر ، فكان لغيلان بن سلمة الثقفى فضل السماح للتجار العرب بالمتاجرة مع بلاد فارس بصفة رسمية بعد أن كسب تقدير كسرى لحكمته فى القول ، ووصل شدة اعجاب كسرى أنه بنى لغيلان قصرا وقلعة على الطراز الفارسى فى الطائف (٢) وكان بنى مالك الثقفى علاقات تجارية وسياسية وثيقة مع المقوقس فى مصر (٣) . كما كانت وسائل الكتابة متوفرة فى مصر وفارس من ورق البردى أو الورق الخراسانى أو غيرها ومهما بلغت أسعارها فان التاجر الذى فى حاجة اليها يهون عليه الشراء ولو القليل لادراك حاجة له ، وليس أفخر للعربى ، ولا اعتزاز قدر اعتزازه تسجيل بعض الأشعار فى الصحف والتى كانت على درجة من الشهرة أو البلاغة أو الفخر لقبيلته .

---

(١) محمد بن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢٦ .
(٢) الاصبهانى : الاغانى ، جـ ١٣ ، ص ٤٧١٨ــ ٤٧١٩ (طبعة الشعب) .
(٣) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٣٣٧ ــ ١٣٣٩ .

ولقد كانت سوق عكاظ سوقا أدبية وتجارية ، ولكنها اشتهرت بصفتها الأولى حتى كانت مؤتمرا ثقافيا لسائر القبائل العربية ، فكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم ، كما ينشر الشعراء أشعارهم وقصائدهم ، ولم يرد ذلك عن سوق سواها ، حتى سماها صاحب الأغانى « كانت تعرض أشعارهم على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه عنها كان مردودا فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمى ، فأنشدهم قصيدته : هل ما علمت وما استودعت مكتوم ـ فقالوا : هذه سمط الدهر . ثم عاد اليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته : طحا بك قلب فى الحسان طروف ـ فقالوا : هاتان سمط الدهر (١) » .

وهذا شاعر عربى وليس بقرشى . ومهما قيل فى ملكة الحفظ فلا يمكن الا ولمثل هذا الشعر من يسجله من أبناء القبيلة ، سواء كان فى مصر أو اليمن ، فى الحضر أو الصحراء . فقد كان هناك أيضا ما يعرف زبر حمير وكتبها ، وهو مكتوبا . بل وهناك الأشعار التى كانت تعلق على أستار الكعبة أو فى جوفها ـ وهذا الموضوع سوف نأتيه بعد .

وفى الأطراف كان عرب الشام النازلين الطرف الشمالى من الجزيرة وهم الغساسنة الذين كانوا يعملون لصالح البيزنطيين ، وقد ظلوا متعلقين بالبداوة ، وقد ظلوا على عروبتهم ، هم وسائر القبائل العربية النازلة فى هذه البلاد ، ويبدوا ذلك من تمسكهم بمظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية ولا سيما اللغة العربية نفسها ، حقيقة أنها لم تكن بلغة قريش الصريحة البليغة ، وذلك لما بها من بعض التراكيب والمفردات الآرامية لغة الغساسنة الطقسية (لغة الطقوس) ، والتى كانوا يزاولون بها عبادتهم الدينية المسيحية . وعلى ذلك فهناك أمرين :

الأول : آن الغساسنة كانوا يكتبون الطقوس المسيحية التى يعتنقونها باعتبارهم من اليعاقبة ولذلك كان لديهم التسجيل على وسائل الكتابة التى يستخدمها البيزنطيون وشعوبهم ، وهذا يفيد كتابة اللغة العربية المستخدمة لدى الغساسنة (٢) فى كثير من حياتهم الاجتماعية والثقافية .

(١) الاغانى ، جـ ٢١ ، ص ١١٢ (تحقيق ساس) .
(٢) فؤاد البستانى : مقال دور النصارى ، مجلة الشرق ، السنة ٣٦ ، طبع ٩٣٨ .

الثانى : أن الاختلاط فى اللغة والذى كان موجودا لدى الغساسنة كان السبب الرئيسى والجوهرى الذى أدى الى عدم خروج شاعر عربى منهم ، بل من جميع القبائل العربية النازلة فى الشام والتى اختلطت عربيتها بالآرامية وغيرها ، لأن الشعر العربى يخرج ويبنى على العربية الخالصة بل وأحيانا يهذب ببعض كلمات من لسان قريش لكى يكون مقبول قبولا عاما لدى السنة العرب جميعا فى سائر الجزيرة .

فالشعر نبيل المبنى ، محكم اللفظ ، يضبطه ايقاع متناسب الأجزاء ، وينتظمه نغم ظاهر للسمع ، مفرط الأحكام والدقة فى تنزيل الألفاظ ، وجرس حروفها فى مواضعها منه ، لينبعث من جميعها لحن تتجاوب أصداؤه ، منحدرة من ظاهر لفظه ومن بطن معانيه(١) .

ولا يتذوق هذا التذوق الا أصحاب البلاغة من العرب ، وقد كان الغساسنة يهتزون لسماع هذا الشعر وخاصة المدائح ، لذلك قصدهم الشعراء من نجد والحجاز واليمامة ، وتبارى فى منازلهم حسان والأعشى والنابغة . ولن يضير هؤلاء الغساسنة ، بل ومن المستحسن لديهم أن يسجلوا هذه الأشعار ، حين يتركهم هؤلاء الفطاحل يستمعون اليها من قارىء لهم لتلقى على آذانهم ، خاصة وأنه لم يقم منهم شاعر يملأ فراغ هذا الطرب ، ويثير التذوق لدى هؤلاء العرب ، هذا فضلا أنه لا يستطيع أن يسجل هذا الشعر العربى ويفهم معانيه الا عربى يكتب العربية الخالصة . ويمكن أن يكون من بين مواطنى غسان أو من آخرين يستأجرونهم ويوظفونهم لكتابة هذه الدرر ، أى كانت لهم كتبا مكتوبة بالعربية وكتبا مكتوبة بالآرامية تشمل على ثقافة أدبية عالية ، بل ومما لا شك فيه أنهم لم يقفوا عند حد التملك ، بل أضافوا اليها من ثقافتهم(٢) .

كما وجدت كتب مدونة لدى المناذرة فى الحيرة ، وكانت تشمل بعض المقيدات التاريخية وهذا لا مراء فيه ، فان سكان الحيرة فى العصر الجاهلى كانوا يرسلون أبناءهم الى الكتاب ـــ وهو مكان تعليم الصبية ـــ ليتعلموا القراءة والكتابة

(١) محمود شاكر : معالم الشعر الجاهلى ، مجلة العرب ، الرياض ، مجلد ١٠ جـ٦ ، ص ٣٤٨ .
(٢) جب : دراسات فى حضارة الاسلام (خواطر فى الادب العربى) ، ص ٢٩٧ .

العربية ، فاذا ما حذقوها بعثوهم الى كتاتيب أخرى لتعلم الفارسية ، والكتاب كان موجودا فى أراضى الجزيرة عامة وفى الحجاز خاصة كما أثبتت الدراسات (١) . والأوس والخزرج كانوا يتعلمون الكتابة على يد بعض اليهود القاطنين بيثرب ، وكان بالطائف بعض الكتابة لتعليم القراءة والكتابة ، بل ان بعض أهل مكة والطائف كانوا يبعثون أبناءهم الى كل من الحيرة وغيرها ليتعلمون ما ليس متوفرا فى بلدهم . فقد قيل أن قريش أخذت الكتابة من أهل الحيرة (٢) .

ومما يؤكد توفر الكتابة وتسجيلها فى صحف ، هو أن ابن عباس كان يحتفظ بكثير من الصحف التى تسجل الفن الشعر الجاهلى ، والذى كان يستخدمه فى تفسير كلمات بعض معانى القرآن الكريم ، ولا يمكن أن يكون تفسير المفردات والمعانى ، وخاصة اذا كانت قرآنية ــ تعتمد على شعر مروى يحتمل كثير من القول ، وانما يؤكد أن هذا الشعر الذى يستند اليه ابن عباس كان مسجلا ، بل ان ابن عباس كان حين يختلط عليه أمر ما فى هذا التفسير يرجع الى مسجلاته من هذا الشعر .

ومما يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قول مأثور « الشعر ديوان العرب » أى أنه يوصى باستخدام الشعر فى تفسير ما يغمض عن العرب من القرآن والحديث ، وعلى ذلك فان الكتاب لم يتوانوا فى تسجيله حتى يستخدموه فى التفسير خاصة وأن عهد عمر رضى الله عنه اتصف بخروج العرب من الجزيرة للجهاد فى سبيل ، وقيامهم بنشر الدعوة الاسلامية ، ولابد لهم أن يكونوا على وعى بما يفسروه . ونهج كبار المسلمين الأوائل من الصحابة وغيرهم هذا النهج ، حقيقة أنهم كانوا يستمعون الى التراث القديم من أيام العرب وأشعارهم ويفحصونه جيدا ، ويحصلون على أصدقه وذلك ليفسروا بهاألفاظ القرآن والحديث ، والذى يكتب ــ مما لا شك فيه ــ كان يسجل ما يساعده على الهدف الأساسى ، وهو التفسير .

---

(١) جب : المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

ــ الاصبهانى : الاغانى ، ص ٨٣ .

(٢) السيوطى : المزهر ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ .

فاذا انتقلنا الى استعراض أمر التدوين والكتابة فى الحجاز ، فانه يمكن القول أنه لا يعقل أن يكون أهل المدن الحجازية ، أصحاب الرحلات التجارية ، والتى تتبادل من خلالها الأفكار والحضارة ، أن يضلوا الى درجة عموم الأمية المبالغ فيها فى الكتب الحديثة ، ولم يكن لهم خط أو حظ فى الكتابة والقراءة بمقدار ما كان لبنى قومهم الذين يحيطون بهم من الجنوب والشمال ، ويختلطون فيهم ، بل ان مراجعة النقوش الصفوية انتهت الى أن حروفها مماثلة أكثر من غيرها للحروف العربية الأولى .

بل ومن المؤكد فيه أن التدوين والكتابة كان متوفرا عند البعثة النبوية ، والا فكيف تسجلت الآيات القرآنية عند نزولها على النبى صلى الله عليه وسلم وقراءتها على أتباعه ليحفظوها . بل وان الخط العربى كان محددا وفق لهذا الدليل، فلم يرو أن لوح من القرآن عند أحد الصحابة يختلف عن خط لوح آخر لدى أحد الصحابة الآخرين .

قد تكون الكتابة غير ميسورة بشكل عام فى القبائل الضاربة عرض الصحراء الطويلة الكبيرة ، الا أن أهل الحضر مثل مكة والطائف لا ينطبق عليهم هذا ، بل ان الكتابة كانت طيبة فيهما لحاجة أهلها الى تسجيل المعاملات المالية والاتفاقيات وبعض الأشعار ولا يقل عما كان لدى عرب الشام أو اليمن بكثير ، بل وكما سبق القول لم يكن أمر وسائل الكتابة من الورق — سواء البردى أو غيره — بعزيزا على أهل اليسر من المدينتين .

وسوف نضرب ما تمكننا منه دراساتنا حتى الآن لنؤكد هذا الأمر ، فالمغيرة بن شعبة الذى عاش فترة كبيرة فى الجاهلية كان يعرف الكتابة . كما كانت الكتاتيب منتشرة فى مدينتى الحجاز الأولى ، وأمية بن أبى الصلت قرأ فى كتب الأديان السماوية كالمسيحية واليهودية ، وكذا كان ورقة بن نوفل . بل وقيل أن أمية ابن أبى الصلت أدخل كلمات وألفاظا الى اللغة العربية ، استعملها العرب من

بعده وعلى سبيل المثال عبارة . (باسمك اللهم ، وساهور ، وسلطيط[1]) . وممن قرأ فى الكتب أيضا عبد الله بن جحش الأسـدى وكان عبد الله بن جارية الثقفى داعية عن أهل العلم [2] .

وممن كان يعرف الكتابة والتدوين قبل الاسلام بعض الصحابة الذين حسن اسلامهم واستخدموا قدرتهم على الكتابة فى خدمة الاسلام فيما بعد ، ومن هؤلاء أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن رواحة ، ومحمد بن مسلمة ، وعمرو بن العاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وعبد الله بن زيد ، وسعيد بن العاص ، وحويطب بن عبد العزى العامرى ، وأبى سلمة بن عبد الأسر ، وحاطب بن عمـرو بن عبد العزى العامرى وعبد الله بن سعد بن أبى السرح وأبا عيسى بن عبد الرحمن جبير [3] . وغيرهم ممن يمكن معرفته من المصادر التاريخية بشىء من الدقة والجهد مثـل اسيد بن عمر أبى العيص [4] . والخلفاء الراشـدون ثبت كتابتهم أمام النبى ، والآخرين كتبوا المصحف فى ألواحهم .

ولم يقتصر أمر الكتابة فى عصر ما قبل الاسلام على الرجال فحسب ، بل كان هناك من النساء من يستطيعون الكتابة والتدوين والقراءة ومنهم الكاهنـة الخنعمية التى سبق الاشارة اليها ، وكذا الشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب ، وأخت عمر بن الخطاب[5] التى أسلمت وكان معها كتاب تحفظ منه آيات القرآن الكريم . وعائشة بنت سعد التى ذكرت أن أباها هو الذى علمها الكتابة ، وكريمة بنت المقداد كريمة موسى بن يعقوب [6] .

---

(1) ابن هشام : سيرة النبى ، قسم ١ ، ص٢٢٧ .
ـ الاصبهانى : الاغانى ، ج ٤ ، ص ١٣٢٥ (الشعب) .
(2) ابر هشام ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ ، ٢٣٤ .
ـ الطبرى الرسـل والملوك ، ج ٣ ، ص ٤١٠ ، ٤١٥ .
(3) ابن عبد البر : الاستيعاب ، ـ ١ ص ١٩ ـ٣٠
ـ الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ج١ ص ٣٨
(4) ابن النديم : الفهرست ، ص ٨
(5) ابن سعد : الطبقات ، ج٣ ، قسـم ١ ، ص ١٩٢ .
(6) البلاذرى : فتوح البلدان ، ج٣ ، ص٥٨١

وإذ كان معظم من سبق ذكرهم من أهل مكة وما جاورها ، فان المدينة كانت أيضا ممن انتشر فيها الكتابة ، ونذكر على سبيل المثال ممن كان يعرفها والقراءة : سعد بن عبادة بن دليم ، والمنذر بن عمرو ، وأبى بن كعب ، ورافع ابن مالك ، وأسيد بن حضير ومعن بن عرى البلدى ، وبشير بن سعد ، وسعد ابن الربيع ، وأوس بن خولى ، وعبد الله بن أبى ، وسويد بن الصامت ، وخضير الكتائب(١) .

واذا نظرنا فى المؤثرات التى كانت تؤثر فى الحياة الاجتماعية ، وفى مجتمع أهل الحجاز قبل الاسلام ، فنجد أنها جميعا تؤكد انتشار القراءة والكتابة فيه .

ومن العادات المؤثرة أمر الكهانة ، وكان للكهنة أثره فى حياة الناس ، كما أن لحياة الصحراء دورها وأثرها الكبير فى اعتقاد العرب فى كهانها . وحتى يزاول هؤلاء الكهنة دورهم بذكاء كان معظمهم يعلم القراءة والكتابة ، ولعل أبرز هؤلاء الكاهن عمرو بن أمية من بنى علاج من ثقيف ، وهو الذى فسر لهم سقوط النجوم يوم نزول الدعوة على الرسول ، بأن الله أراد أمرا جللا(٢) ، ومن النساء الكاهنات كاهنة خثعم ويقال لها فاطمة بنت مر المتهودة ، وهى من أهل تبالة ممن قرأ الكتب (٣) .

وكان العرب يستقسمون بالازلام ، وكان فى الكعبة سبعة أقداح يستقسمون فى كل قدح بما كان مكتوبا فيه . وكانوا يكتبون أسماء الله على السهام لأغراض سحرية حتى أن أحدهم لم يبق على اسم علمه الا وكتبه فى كل قدح ، لكل اسم قدح . وهذا يوضح أن الكتابة كانت معروفة بشكل اوسع يعرفها الكثير خاصة وأنهم كانوا دائمى استخدام هذه العادة ، والكتابة لكل اسم جديد على قدح .

فاذا انتقلنا الى الأثر الثالث ، وهو أمر تأريخ معاملاتهم عند تسجيلها لتنظيمها ، أو تأريخ تعهداتهم ورسالتهم ، فقد ذكر الأزرقى أنهم كانوا يؤرخون

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٨٣ .
(٢) ابن هشام : سيرة النبى ، قسم ١ ، ٢٠٤ - ٢٠٧
(٣) الطبرى ، الرسل والملوك : جـ٢ ، ص٢٤٤

فى كتبهم وديونهم بعام الفيل . وواضح من العبارة كتبهم الخاصة بالمعاملات التجارية وغيرها مما يوضح أن أمر الكاتب كان منتشرا بين أهل التجارة وغيرها[1] .

أما عن سبل تعليم الكتابة والقراءة ، فقد سبق الاشارة الى أمر «الكتاب» الذى كان معروفا فى مدن الحجاز الثلاث ، وكان هناك معلمين يقومون بهذه المهمة بين طبقات الناس عامة والاشراف خاصة ، بل ان من المعلمين من كان يخرج من طبقة السادة الأشراف ، وهم كثيرين نذكر منهم على سبيل المثال : بشر بن عبد الملك السكونى أخو اكيدر صاحب دومة الجندل ، وسفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة[2] ، وغيلان بن سلمة بن معتب الثقفى الذى ملك لب كسرى الفرس وبنى له قصرا فى الطائف بعد أن أعرب بحكمته ، وعمرو بن زرارة بن عدى بن زيد ويسمى (الكاتب) . وكذلك يمكن تطبيق ذلك على سائر الطبقات ، فمما يعرف أيضا أن يوسف بن الحكم الثقفى والد الحجاج ابن يوسف كان يقوم بمهنة التعليم خلال وجوده بالطائف ، وتعلم ابنه الحجاج منه المهنة[3] .

ولم يقتصر أمر التعليم على حواضر الحجاز الثلاث ، بل كان منتشرا فيما جاورها وغيرها فهناك رجلا من طابخة طلب تعلم الخط ، وعلمه رجلان من أهل وادى القرى ، وتردد الأخير على موطنه وادى القرى ثم أقام بها ، وعلم الخط قوما من أهلها (٤) . وكان هناك أيضا يهوديا من ماسكة يعلم الصبيان القراءة والكتابة فى يثرب (٥) . ولعل هناك بعض عرب يثرب وغيرها كانوا يتعلمون فى « بيت المدارس » اليهودى الذى كان يتدارس فيه اليهود التوراة وشروحها ، ويعلمونها ، وكان من الطبيعى أن يسبق ذلك تعليم القراءة والكتابة كما يهدف اليهود من ذلك نشر دياناتهم بين العرب .

---

(١) الازرقى : تاريخ مكة ، جـ ١ ، ص ١٢٦ .
(٢) ابن حبيب المحبر ص ٤٧٥ .
(٣) وقد أخرجت الطائف فى العصر الجاهلى عددا غير قليل من الكتبة .
(أمين مدنى : العـرب قبل الاسلام جـ ١ ، ص ١٤١) .
(٤) البلاذرى : فتـوح البلدان ، ص ٥٧٩ وما بعدها .
(٥) ابن حبيب : المحبر ، ص ٤٧٥ .

وفى كتب السيرة القديمة يجد الفاحص المتمعن روايات كثيرة فيها قرائن على المام أهل المدن الحجازية بالقراءة والكتابة بمقياس غير ضيق ، وأن الصبيان كانوا يتعلمون فى الكتاتيب وكان هناك من البدو من كان يلم بذلك . ولعل مصادر البلاذرى الرواة أو غيرهم كانوا يقصدون بقلة الكتبة بين البدو الضاربين فى أعماق الصحراء ، واختلطت عليهم الروايات ونسبوها وعمموها على أهل الحجاز ، ولم يفندها البلاذرى .

بل ان هناك من العرب من كان يعرف بجانب الكتابة بالخط العربى خطوط أخرى مثل الخط المسند ، وبالآرامية والفارسية والحبشية والرومانية ، وذلك مثل تميم الدارى وورقة بن نوفل، ولقيط بن يعمر الايادى وعدى بن زيد العبادى(1).

ولم تكن الكتابة والقراءة وليدة الفترة قبيل الاسلام ، بل انتشارها كان فيها . ومما نص عليه كتاب مكة لعمر بن شبة ، أن عمر كتبه بخطه ، وذكر أن علماء مضر قالوا ان الذى كتب الخط العربى الجزم رجل من بنى مخلد بن نضر بن كنانة ، فكتبت من بعده العرب . وقيل أن الذى حمل الكتابة الى قريش بمكة أحد هؤلاء : أما أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، واما حرب بن أمية . بل يروى أنه لما هدمت الكعبة قبيل البعثة بسنوات لاعادة بنائها وجدوا فى أركانها حجرا مكتوبا فيه « أن السلف بن عبقر يقرأ على ربه السلام ». فاذا صحت الرواية الأخيرة فهذا يعنى أن عرب الحجاز كانوا يستخدمون الكتابة على الحجر ، وأن ما جاء من « الابلاغ » ، ويعنى الابلاغ أيضا عند العرب ان هذا الأمر بطريقة الخط والتسجيل .

نخلص من هذا ، أن الكتابة والقراءة كان منتشرة فى البيئة التى نزل فيها القرآن ، سواء فى مكة أو يثرب بل وفى كل الأماكن المحيطة بها مثل الطائف وغيرها .

واذا وصلنا الى هذه النقطة ، فهذا يعنى أنه كانت لديهم تسجيلات ، ومما لا شك فيه أن بعض هذه المدونات التى كانت تخدم أغراضهم قد وصلتنا عن طريقة الاحتفاظ بها وتوريثها لتكون محققة لما هو مطلوب منها . فيروى أن خزانة المأمون كانت تحتفظ ببعض منها وهى تعتبر من نفائش المدونات . فكانت لديه

(1) الاصبهانى : الاغانى ، ج ٢ ، ص ١٠١

مدونة كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم فى جلد أرم فيه ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميرى من أهل (وزل) وهو مبلغ ألف درهم فضة كيلا بالحديدة (وسيلة كيل) ، وشرط فيه أنه متى دعاه بها أجابه ثم أعقب ذلك بالتأكيد بلفظ « شهد الله والملكان » .

ومن الآثار والتراث المكتوب الذى نقل الينا بعد الاسلام ، خطبة قس بن ساعدة الأيادى فى سوق عكاظ قبل البعثة النبوية بأربعين سنة ، وهذه الخطبة لم تخضع لأى استبدال فى الألفاظ أو تغيير فى وضع الكلمات ؛ لذلك وصلت الى العصر الاسلامى مدونة ومكتوبة . فالمعروف ـ كما سبق الاشارة ـ أن قس من الذين يعرفون القراءة والكتابة ، والمعروف أن العرب لا تحفظ الا نص الشعر ، أما النثر فهى تتصرف فيه أحيانا ، أما خطبة قس بن ساعدة لم يطرأها أدنى تغيير فى عباراتها ، وهى تفيض وعظا وتحذيرا بل وأتبعها بشعر ليفهم السامعين والعرب ما الهدف من الخطبة الفلسفية المنطقية البسيطة « أيها الناس .. اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ـ ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة وأنهار مجراه .. ان فى السماء لخبرا ، وان فى الأرض لعبرا ، فما بال النـاس يذهبون ولا يرجعون .. ؟ أرضوا فاقاموا .. أم تركوا فناموا ؟ ..

وينهى خطبته بقسما بالله لا اثم فيـه بقوله : ان لله دينا هو أرضى لـكم وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه .. انكم لتأتون من الأمر منكرا .

هذه أقوال مدونة ومكتوبة ، كانت ضمن التراث العربى قبل الاسـلام ، ونقلت بعد الاسلام حتى ان الرسول عليه الصلاة والسلام روى الكلام هذا ، ومدح موقف قس ، وهذا شرف تعجز عنه الأمانى وتنقطع دونه الآمال » [1] ثم دعى لهبالرحمة « يرحم الله قسا ، أنى لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة واحدة ».

ومما لا شك فيه أن الكتاب سجلوا هذه الخطبة فى مدوناتهم حتى وردت لنا نصا سليما ، واستمرت حتى الآن .

---

(1) الجاحظ : البيان والتبين ، جـ ۱ ، ص ۳۱ .

ولم يقتصر أمر ما ورد الينا من مدونات قبل الاسلام على خطب العرب وأشعارهم المكتوبة ، أو على مدوناتهم التجارية والتى كانت مكتوبة بلغة قريش بل وردت لنا كتب أخرى مدونة باللغات العربية الأخرى وبالأقلام العربية الاخرى ومن هذه الكتب كتب زبر حمير التى كان يحتفظ بها أحد العرب اليمنيين فى العراق والتى سبق الاشارة اليها . وكانت خزانة المأمون مدونات بالقلم الحميرى(١) .

الكتابة فى الاسلام

بل أن هناك من الكتب التى ظهرت فى القرن الأول الهجرى مما يعتمد على مدونات قبل الاسلام وكلا منها يتناول تاريخ الحميريين والأول هو « أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » تأليف عبيد بن شريه الجرهمى والكتاب الثانى « كتاب الملوك » لوهب بن منية وذكر الأخير أنه ضم فى كتابه مؤلفات سابقيه(٢).

واذا نظرنا فى كتب الانساب ، فمن المرجح أن أكثر مشهورى النسابين قد ألفوا كتبا فى الانساب معظمهم عاش قبل الاسلام ، ومنهم المخضرم وأقدمهم سطيح الذئبى (ت ٥٥٢ هـ / ٤٧٢ م) وكان عرافا وحكيما . ولم يكن يعتمد على الذاكرة فقط فى حفظ هذه المعارف وغيرها ، وينطبق على ذلك قصص الأيام التى لا يمكن أن تكون من مخترعات كاتب فى بغداد أو دمشق . فقصص الأيام وتراث الانساب ، باضافة الى بعض الأشكال التاريخية التى كانت مهدها أواسط الجزيرة العربية والحجاز خاصة كانت مسجلة بفعل وتأثير بعض الأقطار المجاورة التى كانت أقرب للتأثير الثقافى مثل اليمن والشمال (٣) .

أما عن الخطوط التى ظهرت فى هذا الوسط فقد كان أولها المكى ، ثم تلاه المدنى — وكلاهما فى (ألفاته) تعويج الى غية اليد وأعلى الأصابع وفى شكله انضجاع يسير (٤) .

ولم يمنع أمر صعوبة الوسائل المستخدمة فى الكتابة العرب من عدم التسجيل ، فقد كان لديهم العسب واللخاف والاقتاب وعظام الاكتاب والجلود التى كانت تدبغ فى الطائف . ورغم صعوبة الكتابة عليها فقد استخدموها فى الكتابة ، وورثها اللاحقون من السابقين .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ٨ .
(٢) الكتاب المذكور فى المتن .
(٣) روزنتال : علم التاريخ ، ص ٣١ ، ٣٥ .
(٤) ابن النديم : الفهرست ، ص ٨ .

واذا كان البلاذرى قد أشار الى قلة الكتاب فى قريش حين قام فيها الاسلام وحدد عددهم بسبعة عشر(١) ، فقد ثبت من المصادر التى بعده والأسماء السابق ذكرها عدم دقة المعلومات .

واذا كان ابن سعد قد نحى نحوه فى ذكر هذا الأمر ، فان أحـد الباحثين المحدثين الذى فحص كتاب ابن سعد عن الطبقات خاصة ، والمصادر الأخرى عامة ورد عليه ، بعد دراسة متأنية لكتابه ، بقوله : وابن سعد يسمى عددا كبيرا من الرجال كانوا يكتبون فى الجاهلية ، ولكنه لا يكاد يذكر ذلك حتى يعقب عليه بقوله : (وكانت الكتابة فى العرب قليلة) عند ذكر ترجمة كل الذين يكتبون فى العصر الجاهلى . فان عـدد الذين ذكرهم ابن سعد من الكثرة بحيث لا يصح له أن يكرر عبارته تلك كلما ذكر قارئا جاهليا (٢) .

ومن المؤسف أن هناك فراغا عند كثير من الباحثين حول هذا الأمر ، وكلهم يعتمدون على رواية البلاذرى دون الفحص والدراسة ، وهذا ما دفع الى الاساءة الى العرب عامة ، وتهدف الى الاساءة الى الاسلام بأسلوب خفى ، وممن كان له دور فى ذلك جرجى زيدان الذى أراد أن يعطى شيئا من التعليل المنطقى فى محاولة للتأثير على الفكر ، حيث أرجع تأخر الخط والقراءة والكتابة فى الحجاز وعرب مضر بسبب البداوة الغالبة عليهم (٣) ، والكتابة من الصنائع الحضرية ، ورغم ما على ذلك من كثير من الملاحظـات ، فاننا سنكتفى بما تنـاوله بعض الباحثين المحدثين الذين بحثوا القضية ، وردوا ردا علميا مفندا للروايات هذه :

أولا ــ كلمة القراءة ومشتقاتها وردت قبل الاسلام ، وكرمها الاسـلام فى القرآن الكريم حينما نزلت بها أول آية من آياته « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » (٤) .

ثانيا ــ المقرون بالقراءة الكتابة ووسائلها ، وقد عرفت الكتابة عند العرب بالقلم ، وجاء فى قوله تعالى : « ن والقـلم وما يسطرون » (٥) والسطر هنـا الكتابة .

---

(١) فتوح البلدان ، جـ ٣ ، ص ٥٨٠ .
(٢) ناصر الاسد : مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٤٢ ، ٤٣ .
(٣) جرجى زيدان : التمدن الاسلامى ، جـ ٢٣ ، ص ٥١ .
(٤) سورة العلق ، آية ١ ــ ٤ .
(٥) سـورة القـلم ، آية ١ .

وجاء فى قوله تعالى « أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » (١) . الآية تعبر عن مقترحات الوثنيين أو العرب الجاهلين ، ونستنتج منها بوضوح أن الأمة التى لا تعرف الكتابة ولا القراءة لا تطلب أن ينزل عليهم كتابا ، والأمة التى لا تملك الا القليل من أهل القراءة أو الكتابة لا تطلب الكتاب كدليل عام لها ، كما جاء ذلك فى آية أخرى من آيات كتاب الله الكريم « بل يريد كل منهم أن يؤتى صحفا منشرة »(٢) ، أى يطلبون الكتب ليقرأوها جماعية أو فرادى ، بل يطمع كل منهم أن ينزل عليه كتابا خاصا به من السماء . فهل بعد ذلك يمكننا أن نقبل أن الكتابة والقراءة كانت قليلة فى بيئة ينزل عليها القرآن ، وما يتضمنه من تصوير كامل لهذا المجتمع المنتشر فيه القراءة والكتابة ، بجانب ملكة الحفظ .

ثالثا ــ القرآن الكريم ذكر أدوات الكتابة المألوفة فى هذا المجتمع ، والتى يعرفها جيدا هذا المجتمع ، والا لما ذكرها القرآن ، ومن ذلك ما جاء بقوله تعالى فى القرآن « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم » (٣) ، « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعد سبعة أبحر » (٤) ، « وكتاب مسطور فى رق منشور » (٥) .

وهذه الآيات جميعا تؤكد معرفة العرب بوسائل الكتابة ، بل لا تقتصر على ما سبق ذكرنا له ، وتمتد الى أكثر من ذلك ، حيث تعرف الجلود ، والقرطاس (الورق من بردى أو غيره) والوسيلة المستخدمة فى الكتابة وهو القلم ، والسائل المستخدم وهو الحبر .

---

(١) سورة الاسراء ، آية ٩٣ .
(٢) سورة المدثر ، آية ٥٢ .
(٣) سورة الانعام ، آية ٧ .
(٤) سورة لقمان آية ٢٧ .
(٥) سورة الطور ، آية ٢ ، ٣ .

كل ذلك أمكننا التوصل اليه من كتب التفسير ، وما توصل الى استنتاجه والخروج به بعد أبحاث دقيقة لبعض الباحثين(١) .

التشكيك فى الكتابة والرد عليه :

وبعد هذا ، فيمكننا الرد على أحد الباحثين المحدثين(٢) الذى تأثر بالفكر الذى يقرر أن القراءة والكتابة فى عرب الحجاز كانت قليلة ، بل وصلت نتائجه الى التشكيك الذى يصل الى حد النفى فى وجود مدونات للشعر الجاهلى ، بل ومعلقات علقت على أستار الكعبة ، ونستند فى ذلك على رأيه فى قوله « فاما قول من قال أنها علقت فى الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة ، ويرجع ذلك الرأى الى عدد من الأسباب واضحة فيما يلى :

أولا — أن حماد الرواية هو الذى جمع السبع الطوال وشهرها فى الناس ، وأن ابن الكلبى هو الذى زعم أنها علقت على الكعبة ، وكلاهما متهم مشكوك فى روايته . فحماد اتهمه الأصمعى والمفضل الضبى ، وابن الكلبى كذبه صاحب الأغانى فى أكثر من موضع ، ووصفه السمعانى بأنه يروى الغرائب والعجائب والأخبار التى لا أصول لها .

ثانيا — أن الكتابة بماء الذهب لم تكن معروفة فى الجاهلية ، وأن العرب لم يعرفوا القباطى — وهى الأقمشة التى كان أقباط مصر يتخذون منها ثيابهم — الا بعد الفتح الاسلامى فى عهد عمر .

ثالثا — ان هناك خلافا على تلك المعلقات — فالبعض يعدها سبعا ، والبعض يكملها عشرا وبين أولئك وهؤلاء اختلاف كبير ، بل ان الخلاف ليمتد الى أصحاب الرأى الواحد ، فأبو عبيدة يعتبرهم سبعة ، ويعد منهم الأعشى والنابغة بينما يسقطهما البغدادى ، ويثبت مكانهما عنتر والحارث ، ولو كتبت فعلا ماوجدنا مثل هذا الخلاف .

---

(١) انظر :

— محمد عزه دروزة : مقال نظرة فى رواية تاخر الخط العربى ، مجلة مجمع اللغة العربية ، سنة ٦٤ / ١٩٦٥ م ، ص ٢٧٩ وما بعدها .

— أمين مدنى : سلسلة العرب فى احقاب التاريخ ، رقم ٢ ، التاريخ العربى ومصادره ، ص ١٤١ .

— ناصر الاسد : مصادر الشعر الجاهلى .

(٢) عبد الستار الحلوجى : مقال تراثنا المخطوط ، مجلة الدارة ، العدد ، ص ١٦٤—١٦٥

رابعا ــ اننا نجد فى تلك القصائد اختلافا فى رواياتها لأبياتها لا يقل عن الاختلاف فى رواية غيرها من الشعر الجاهلى ، ولو قد كتبت فعــلا وعلقت فى الكعبة لاحتفظت بنصوصها الأصلية دون تحريف أو تبديل .

خامسا ــ ان كتب التاريخ والسيرة لم تذكر شيئا يفيد أن الكعبة كان بها قصائد معلقة عندما دخلها النبى صلى الله عليه وسلم غداة الفتح العظيم ، وأن الرسول قد أبقى عليها أو أمر بانتزاعها باعتبارها شعرا وثنيا يجب أن يتطهر منه بيت الله الحرام .

سادسا ــ ان مواد الكتابة وأدواتها فى العصر الجــاهلى لم تكن تسمح بكتابة نصوص طويلة كالمعلقات فكم من الحجارة والعسب والجلود يكفى لكتابة سبع قصائد فى أقل الروايات ، تربو الواحدة منها عمل مائة بيت ، ثم ما الداعى الى هذه المشقة وهذا العناء الشديد فى كتابة طويلة كهذه وهى لا تمس معتقداتهم فى كثير ولا قليل ؟ .. وهبهم وجدوا فى أنفسهم مبررا لهذا العنت الشــديد ، وهبهم جمعوا من الحجارة والعظام والعسب والجلود ما يكفى لكتابة كل هذه الأشعار ، فهل يعقل أنهم كانوا يعلقونها فى الكعبة أو بين أستارها أو حتى على جدرانها ؟ وكيف ؟ .

والنتيجة التى نخرج اليها ــ فى رأى الباحث ــ مما تقدم هى أن الشــعر الجاهلى لم يدون فى الجاهلية وانما ظل يحفظ فى الصدور ويجرى على الألسنة شفاها ، حتى دون فى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى .

ونحن نختلف مع الباحث فى جميع ما أورده ، ولا نرى فى مصادره ما يراه ونرجع ذلك الى أمور شخصية خاصة بين الرواة والشــعراء يتداركها الباحثون المتخصصون (١) . ونعتمد فى اختلافنا على دراسة جيدة قدمها فؤاد سزكين تحت مجلد كبير يسمى « التراث العربى والاسلامى » ، فضلا عن الاعتماد على بعض الدراسات الحديثة الأخــرى التى أمكن الاطلاع عليها ، ونلخص الاختــلاف فيما يلى :

---

(١) ناصر الاسد ، المرجع السابق ، ص ٤٣٨ ، وما بعدها

أولا : ان أمر وضع حماد الرواية للمعلقات أمر غير مقبول فكريا ، والا أصبح حماد نفسه ضمن الشعراء الفطاحل الأفذاذ الذين يؤلفون سبعمائة بيت من الشعر على الأقل ثم ينسبونها لآخرين لا تربطه بهم رابطة سوى العروبة وكان أولى الناس أن ينسبها لنفسه ليكون من عداد هؤلاء الشعراء الفطاحل ، كل ذلك من أجل أن يقال له أنه كان يحفظ الشعر القديم . وكل ما يمكن قوله أنه كان يخرج بالشعر من كتب قديمة كانت لديه وصلت من طريق أو آخر ، فان لكل معلقة قافية تلتزم بها ، هذه القافية أشبه بالوقفات الموسيقية ، وبالايقاع الموسيقى فى الوقت الحاضر ، فاذا أخطأ العازف فى استخدامها انكسرت النغمات الموسيقية ، أى انكسر الشعر . هذا فضلا عن تسلسل الرباط بين الابيات فى المعلقة الواحدة رغم أنها قد تتحدث فى أمور مختلفة ، فالشعر عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون ، واليه يصيرون (١) .

والمعلقات قمة الشعر الموزون والكلام المقفى ، وشعرها بحكم اللفظ يضبطه ايقاع متناسب الاجزاء وينظمه نغم ظاهر للسمع مفرط الاحكام والدقة فى تنزيل الالفاظ ، وجرس حروفها فى مواضعها منه ، لينبعث من جميعها لحن تتجاوب أصداءوه منحدرة من ظاهر لفظه ، ومن باطن معانيه ، كما أن تقسيم كل قصيدة منها متعانق الاطراف ، متناظر الأوصال ، تحدده قواف متشابهة البناء والألوان متساوية الأزمان (٢) . وهذا لا يتأتى لانسان أن يصنعه منفردا فى سبع معلقات وأكثر أو أقل . بل ويمكننا القول أن حماد كان يحتفظ بكتبء ن هذه القصائد السبع ، فقد ثبت من الدراسات الحديثة التى قامت أول الأمر على التشكيك فى أمر وجود الشعر الجاهلى كله ، ومن ثم المعلقات ، أنها انتهت الى أن استخدام الشاعر لبعض القوافى النادرة يدل على أنه يلاحظ العين أكثر مما يلاحظ الاذن(٣) أى يتم عن طريق القراءة مع السماع .

ثانيا ـــ ان عملية التشكيك فى رواية حماد أو الكلبى ، فان الكاتب أحسن بعبارته « متهم » ولم يطلق عليه التأكيد ، والمتهم برىء حتى تثبت ادانته . وقد

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، جـ ١ ، ص ٢٤ : طبعة ١٩٧٤

(٢) محمود شاكر : مقال الشعر الجاهلى ، مجلة العرب ، مجلد ١٠ ، جـ ٥ ، ٦ ـ ص ٣٤٨

(٣) د. شوقى ضيف : تاريخ الادب العربى (العصر الجاهلى) الطبعة التاسعة ، ص ١٣٩ نقلا عن (كرنكو) مقال The use of writting. ونشرت مع مقالات اخرى فى كتاب Volume of Oriental studies to E.G. Broune. Lditor by J.W. Arnold.

ناقش هذا الأمر أحد المتخصصين (١) فمن التراث العربي الاسلامى وانتهى الى أن الاتهامات كانت صادرة من المنافسين له فى مدرسة البصرة ، ومع ذلك فقد أرغمهم انتاجه على وضع أحكام ايجابية كثيرة تشهد بمكانته . فعالم كبير هو أبو عمرو ابن العلاء (ت ١٥٩ هـ) يفضله على نفسه (٢) . وهذا توثيق حماد ، لأن لرأى أبى عارو قيمة خاصة اذ أن أبا عمرو بصري ، بل رأس علماء البصرة ، وهو ثقة مأمونا ، معنى ذلك أن أبا عمرو ــ ومن فى منزلته من الطبقــة الأولى ، كانوا يقدرون حمادا حق قدره ، ويوثقونه ويعدلونه (٣) ، علما بأن الفضـــل فى تقــدم البصرة على الكوفة فى الرواية كان أبا عمرو ، وهو الذى قال : ما سمع حمــاد الرواية أحرفا قط الا سمعته ، وحماد كان رأس رواة الكوفة ، والمنافسة تفعــل الكثير خاصة اذا علمنا أنه كانت بين البصرة والكوفة جفوة سياسية ، وأبا عمرو هذا ممن نقل عن حماد رغم أنه وصف بأنه « كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس ، وكانت كتبه التى كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له الى قريب من السقف (٤) » هذا الرجل حاول البعض فى تشكيك رواية له (٥) .

أما تشكيك الأصمعى له ، فان الأصمعى نفسه نقل عنه الكثير من الشعر ، وخاصة الجانب الأكبر من شعر امرىء القيس (٦) ، وكذلك فعل المفضل الضبى راوى الكوفة الثقة . ولا يعنى تشكيكهما له أنه كان فى كل رواياته كاذبا ، والا لما نقلا عنه .

ثالثا ــ على أن الأمر الذى جعل الكثير يتهمون روايات حمــاد بالكذب راجع الى حياته الشخصية واستند بعد ذلك الكتاب على هذه الحياة خاصة وأنها فى القرن الأول للهجرة ــ وشككوا فى معظم رواياته ، فقد كان حماد فى أول أمره

---

(١) فؤاد سزكين : التراث العربى الاسلامى ج ٢ ، الفصــل السادس (التــاريخ الثقافى) ، ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨ .

(٢) الاصبهانى : الاغانى ، جـ ٦ ، ص ٧٣ .

(٣) ناصر الدين الاسد : المرجع السابق ، ص ٤٤٧ ــ ٤٤٨ .

(٤) الجاحظ : البيان والتبين ، جـ ١ ، ص ٣٢١ .

(٥) الاصبهانى : الاغانى ، جـ ١ ، ص ٣٢١ .

(٦) أبو الطيب اللغوى : مراتب النحويين ، ص ٧٢ .

بتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد ، فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك ، وترك ما كان عليه فبلغ فى العلم ما بلغ [1] ، وقد قال عنه الهيثم بن عدى « ما رأيت رجلا أعلم بكلام العرب من حماد » وقد وصفه ــ بناءا على حياته الشخصية الجاحظ فيما بعد بالفسق والمجون والفساد ولكنه لم ينكر عليه دوره فى الرواية حيث وصفه أيضا الراوية البارع [2] .

وحتى ابن سلام البصرى الذى كان من المتشككين فيه لم ينكر عليه دوره فقال « كان أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ويزيد فى الأشعار ، ولم يأت فى القول ما ينكر عليه الرواية ، بل ان المعاصرين له ومن بعده يطلقون عليه اسم الراوية علما .

وهناك ملاحظة جديرة بالالتفات ، فيبدوا أن كل من كتب فى الشعر الجاهلى وروايته ، أو معظم ، قد أتهم من آخرين ، فالشاعر يزيد بن زياد بن مفرغ الحميرى (ت ٦٩ هـ) قد جمع سيرة تبع وأشعارها واحتفظ الاصبهانى باقتباسات هامة منه ، كما نقل الكثير عن النابغة الجعدى من كتاب الأحول بن سنان بن مرثد ولذلك كان الاصبهانى أيضا متهما من آخرين .

رابعا ــ انتهى الباحثون ــ المستشرقون والعرب ــ مثل ليال Ch. lyall وكرنكو F. Krenkow ، وليفى دى فيدا G. leri Vida وبلاشير BR. وغيرهم من المستشرقون ، وكذا ناصر الدين الأسد فى كتابه « مصادر الشعر الجاهلى » ويوسف العشى فى كتابه « نشأة تدوين الأدب العربى » الى آراء جديدة ، تتلخص فى أنه كان هناك تدوين للشعر قبيل ظهور الاسلام . وأن الافادة من الكتابة فى تدوين الشعر العربى القديم كانت معروفة ، وأن كثيرا من الشعراء كانوا يكتبون ، فكان منهم من يدون شعره بنفسه ويهذبه

(١) الاصبهانى : الاغانى ، جـ ٦ ، ص ٨٧ .
(٢) الجاحظ ، الحيوان ، جـ ٤ ، ص ٤٤٧ .

ويصقله ، وأن بعض الأشعار ما كانت ترسل مدونة فى رسائل الى الملوك ، ورغم أن القراءة والكتابة لم تكونا من دواعى الفخر عند البدو ، فان بعض الشعراء كانوا يملون شعرهم (١) ، أمثال أوس بن حجر ، وزهير بن أبى سلمى ، وكعب ابن زهير ، والحطيئة جميل بثينة وغيرهم ، وأن كثيرا من اختلاف النصوص ترجع الى طبيعة الخط العربى ، وما تتعرض له النصوص من تحريف وتصحيف .

وعلى ذلك فان العرب أفادوا فى وقت مبكر من الكتابة فى تدوين الشعر على نحو أكثر انتشارا مما يظن كثيرون . ولقد رجح بعض الباحثين أن القسم الأكبر مما وصل دون فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى .

والامل معقود على طبع ما لم يطبع من أقدم الكتب الاساسية فى الشعر الجاهلى وروايته مثل كتابى ابن اسحق « أخبار كليب وجساس » ، و « كتاب حرب البسوس بين بكر وتغلب » وكذا فى كتب الانساب مثل « كتاب النسب » لابن الكلبى « وأخبار ربيعة وأنسابها » والذى روى فيه عن التابعى خراش ابن اسماعيل العجكى الشيبانى ، أو حول هانى بن المنذر الكلاعى الذى نسب اليه كتاب بعنوان « نسب حمير » (٢) .

كما نرى أيضا أمرا ، وهى أنه كان للشعراء رواة حقا ، ولكن ما يجيزه أئمة العرب من قصيدة كانوا يرون تسجيلها وتعليقها على أستار الكعبة .

ونصل من ذلك أن هناك أخبارا كثيرة عن رواية الشعر العربى القديم فى صدر الاسلام توضح أن التدوين كان أمرا شائعا ، وظل الاهتمام بشعر الجاهلية متصلا فى عصر الراشدين ، بل ان هناك نصوصا من العصر الأموى تشهد بوجود مدونات من شعر الجاهلية ، فقد كان لدى الفرزدق ديوان لبيد ودواوين جاهلية أخرى .

---

(١) فؤاد سزكين : محاضرات فى تاريخ العلوم العربية والاسلامية ص ١٦١ - ١٦٢ . منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية ، سلسلة « ١ » المجلد الاول .

(٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

- سزكين : التراث ، مجلد ١ ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

وما ينطبق على الشعر ينطبق على المناسبة التى قيلت فيه ، أى رواية الكثير من أسباب أحداثه ومؤثراتها ، أى على الروايات بصفة عامة .

وإذا قلنا وسلمنا أن الفرزدق كانت لديه دواوين من الشعر ، فان هذا يعنى أن هنالك كتب تراث ورثناها من العصر الجاهلى والعصر الاسلامى الأول .

وعلى ذلك فاننا يمكن أن نسلم بأن حماد الرواية كان يروى من كتب يملكها ودليلنا على ذلك قصة دخوله الرواية والأدب العربى السابقة ، من أنه حصل على جزء من شعر الأنصار من صحف الرجل الذى سرقه ، وكان لهذا الشعر أثره فى تغيير حياته من الصعلكة الى العلم . وهنالك رواية أخرى مؤكدة عنه . فقد أرسل الخليفة الأموى الوليد بن يزيد (ت ١٣٦ هـ) فى طلب حماد ، فاعتقد حماد أنه سيسأل عن الشعراء الذين كانوا من قبيلته أو من القبائل التى تربطه بها أواصر القرابة ، فنظر حماد فى « كتاب قريش وثقيف » ولكن الخليفة سأله فى أشعار « بلى » . وكانت لدى حماد الكثير من الكتب التى تسجل ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وانسابها ولغاتها حتى أن أبو العباس ثعلب أن الوليد استعارها منه ومن جناد ثم ردها اليهما فيما بعد [1] ، وكلاهما من أعلم الناس بأشعار العرب وأيامها [2] . ولقد استأذن من حماد وابن الكلبى الكثير من المؤلفين فيما بعد ، واذا كان الطبرى المحدث المؤرخ دقيقا فى كتاباته فانه قد استفاد من كتابه عن أخبار العصر الجاهلى والمسمى « كتاب حماد » من خلال مقتبسات هشام بن محمد الكلبي ، وكذلك أبو الفرج الاصبهانى فى كتابه الأغانى ، ولكنه كان تارة يذكره باسم « كتاب حماد » وتارة باسم « خبر حماد » . وقد استفاد من أخباره الكثيرين من بعده ومنهم الآمد فى كتابه المؤتلف والمختلف الذى وضع المفضل الضبي وحماد فى مستوى واحد عند الاستعانة بأشعارهما وأخبار حماد .

على أى فان ذلك يوضح أن اختلافات رواية حماد لا يمكن أن تكون اختلافات كبيرة بالدرجة التى يتصورها البعض [3] وقد يكون ذلك لوقوع بعض الكتب فى يديه لم تصل الى غيره من المعاصرين له .

---

(١) الاصبهانى : الاغانى ، ١٧٤/٥ .
ـ ابن النديم : الفهرست ، ص ١٣٤ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥
(٣) فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربى مجلد ١ ـ ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ .

خامسا ــ اذا كان الباحث لم يدرك ما كان يقصده التفكير الاستشراقى من أمر الشعر والرواية فانها تشير الى أن هدفهم كان الحديث ، ولكن الباحث المتخصص فؤاد سزكين وصل الى نتيجة هامة فيقول « كان الراوى يقوم برواية شعر وصل اليه مكتوبا أو يدونه هو بنفسه ، وقد يكون محفوظا فى ذاكرته على نحو كامل . وهكذا فان دور الراوى للأحاديث مواز لدور راوية الشعر . وهذه الرواية لم تكن شفوية فحسب ، بل كانت تعتمد أيضا على النصوص المكتوبة ».

ان أثر المدونات فى رواية الشعر ثابت ، ولدينا نصوص كثيرة من العصر الأموى تثبت ذلك . وكان حماد الراوية يعود الى كتبه . ومن هذا الجانب يتفق تدوين الحديث مع تدوين الشعر ، فقد كان كل منهما يعتمد على الرواية الشفوية المدعمة بنصوص مدونة .

وثمة فرق بين تدوين الحديث مدعما بالاسناد الذى يشير الى المصادر ، واهمال ذكر سلاسل الرواة بالنسبة للشعر . ومع هذا فثمة نصوص بها سلسلة اسناد تذكر رواة القصائد ، وتعود بأقدمهم الى الجاهلية . وان الفرق الملحوظ بين تدوين الحديث مدعما بالاسناد ، وعدم وجود الاسناد على هذا النحو فى تدوين الشعر قد يرجع الى أن الشعر الجاهلى أبعد زمنا من الحديث النبوى . والاسناد علم اسلامى لم يظهر الا فى الاسلام ، وفى الحديث النبوى خاصة ، وعلماؤه استطاعوا تمييز صحيحه من زائفه .

واذا كانت رواية الشعر من كتاب الى كتاب دون توثيقه بالرواية الشفوية ظاهرة قصور ، فينبغى أن تصحح الحكم عن حماد الراوية ، فلم يكن فى الميدان وحده ، وكان العارفون بالشعر القديم والرواد كثيرين .

وحماد الراوية لم يترك كتابا مؤلفا له وفقا لرأى ابن النديم ، وانما روى عنه الناس وصنفت لكتب من بعده (١) ، أى من روى عنه فيما بعد تلاميذه . والمفضل الضبى(٢) راوى الكوفة الثقة رويت عنه كتب صنفها، وروى حوالى مائة ثمانية وعشرون قصيدة ، رواها عنه ابن الاعرابى تلميذه وسجلها الانبارى وابن الاعرابى هذا هو ما أملى على الناس ما يحمل على اجمال، لم ير أحد فى الشعر

(١) الفهرست ، ص ١٣٥ .
(٢) الفهرست ، ص ١٠٢ .

أغزر منه ، وكان يذكر عن نفسه أنه ربيب المفضل (١) . ومع ذلك فهناك رواية عن الأخفش يزعم فيها أنها كانت ثمانين ، وأن الأصمعى زاد عليها أربعين ، ثم زاد البقية تلاميذه (٢) . وأمر الزيادة فى النصوص انتشر فى الكتب القديمة وابن الكلبى الذى كذبه الاصبهانى ، ووصفه السمعانى بأنه يروى الغرائب والعجائب والأخبار التى لا أصول لها ، اتهم الهيثم بن عدى (ت ٢٠٦ هـ) الذى كان يهتم بالأخبار التاريخية ويرويها كان هشام بن الكلبى (ت ٢٠٤) وأبيه من قبله (ت ١٤٦ هـ) مصادرهما عن النسب من أهل القبائل والعالمين بأنسابها مثل عقيل ابن أبى طالب الذى أخذ عنه ابن الكلبى نسب قريش (٣) . وكذلك اتهم الواقدى والمدائنى من المؤرخين .

سادسا ــ أما عن المعلقات فهناك رأيين فيما قصد اليه العرب من معناهما ، الأول هو المقلدات والمسمطات(٤) ، والثانى المعلقات فعلا من التعليق(٥) .

أما المعنى الأول فلم خافيا على كل من الشعراء والرواة والنحاة العرب ، ولو كانت الرواية تخصه لكان النصر انتهى ، ولما اتهم حماد وابن الكلبى ومن نقل عنهما من بعد من الكتاب العرب المسلمين .

ونعتقد أن المقصود هو المعنى الثانى . والكاتب يسأل فى سؤال استنكارى بقوله هل يعقل أنهم كانوا يعلقونها فى الكعبة أو بين أستارها أو على جدرانها ؟ وكيف ؟ ..

ونحن أمام حادثة فريدة ترد على الكاتب وأوردتها كل المصادر القديمة ، ومن لحقها ، سواء كتب السيرة أو غيرها . هذه الحادثة انما تعبير عن عادات كانت موجودة فى الجاهلية ، ولكن العادة التى نحن بصدد ذكرها لا تحدث الا فى الأمور الهامة جدا فى نظر الجاهلين .

فبعد البعث بسنوات ، عيل صبر قريش من موقف الرسول ودعوته ، ورأى أن خطورته قد استفحلت عليه بعد أن أصبح يقصد القبائل وسوق عكاظ نشرا

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٠٢ .

(٢) شوقى ضيف : تاريخ الادب العربى ــ العصر الجاهلى ، ص ١٧٧ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٣٩ ــ ١٤٠ .

(٤) الجاحظ : البيان والتبين ، جـ ٢ ، ص ٩ .

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ ٦ ص ١١٩ .

للدعوة الاسلامية ، كما أن حيلهم نفذت معه وفى مقاومة الدعوة الاسلامية ، سواء بالمفاوضة أو التمنى أو استخدام القوة مع المؤمنين ، أو الحصول على موافقة أبو طالب فى التصرف معه ، أو تسليم الرسول لهم للتصرف معه . فاتفقت على عمل جماعى ترتبط به كل البطون المكية وحلفاؤها من غير بنى هاشم وآل عبد المطلب وأبو طالب ، بل يوجهون العمل ضدهم فقد ائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب «الا ينكحوا اليهم ، ولا ينكحوهم، ولا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعوا منهم » وكتبوا ذلك فى صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم (١) . ولما شمل الحصار ، الذى كاد يودى بفتنة بين قريش كلها وبطونها ، اضطروا الى تمزيقها .

ونستنتج من هذه الحادثة أن ما تراه قريش هام ، ويتصل بكل علاقاتها مع العرب اقتصاديا أو ثقافيا كان يعلق فى جوف الكعبة أو على أستارها ، وأن العادة كانت موجودة . وما قصد به المستشرقون من تحقيق أمر الشك فى حماد وابن الكلبى هو محاولة تفهيم لبعض الأعمال المؤكدة والتى تهم الاسلام ، والا لماذا كان التشكيك فى أمر التعليق . والتعليق للصحيفة فى جوف الكعبة ربما حتى لا ينشروها بين العرب جميعا الذين كان يزور بعضهم طوال العام البيت الحرام ويعودون الى قبائلهم ليخبروهم فيحط ذلك من أمر قريش ، ويعرف العرب جميعا أن فرد واحد ومعه جماعة من المستضعفين يناصره قومه حمية العصبية الجاهلية ، وهم وسطاء الناس ، قد استطاع أن يهزم قريش فى أقدس خصائصها وهى الوثنية .

وجاء فى الرواية أنهم اضطروا الى تمزيق الصحيفة ، ولم يتم الوصف بكسر لوح الخشب أو رقاع العظام .. أو ما سبق الاشارة من أدوات الكتابة ، انما الكتابة الطويلة كانت تكتب على وسيلة أيا كانت ، وهذه الوسيلة كانت تمزق . وحتى اذا قلنا أنها كانت تكتب على الجلد ، فلماذا يتحدد الجلد بالنوع السيء وليس بالنوع الطيب خاصة وأن دباغة الجلود كانت من أشهر الصناعات فى مدينة الطائف ، والمعلقات كانت عادة تلقى قبل تعليقها فى سوق عكاظ ، الذى كان قريبا

---

(١) ابن هشام : المصدر السابق ، ج ١، ص ٣٥٠ .

من الطائف ويعطيها الكثير من الأهمية ، وكما سبق القول ــ ما يتفق عليه العرب من قوة القصائد وبلاغتها يأمرون بكتابتها وتعليقها نشرا لها بين الزائرين للبيت الحرام .

واذا كان الشعر أهم وأبرز ما يهم العرب ثقافيا ، وما يسعدهم حياة ، وما يتناسب مع بلاغتهم أي هو ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون ، واليه يصيرون ، واذا كانت المعلقات قمة هذا الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، فهذا يعني أنهم يبذلون له كل غال ، وفى نظرهم رخيص ، خاصة وأن وسيلة الكتابة وهى الجلد صناعة قائمة فى مدنهم بشكل كبير ، فضلا عما سبق القول من أن الكتابة كانت منتشرة ، وأن بعض الشعراء كان لهم رواة لأشعارهم يروون ويكتبون . ومن المحتمل ، أو أكبر الظن أن هذه المعلقات حملت عند اعادة بناء الكعبة ، قبل البعثة ، والتي قام الرسول بدور كبير فى اخماد فتنة كادت تشتعل بين البطون القرشية ، ولم تعلق ثانيا . فلما جاءت البعثة النبوية رأوا حملها خوفا عليها .

سابعا : أما عن أمر الخلاف حول عدد القصائد أو بعض كلماتها ، فهذا أمر طبيعي بين الكتب القديمة بصفة عامة ، وكتب الشعر الجاهلى ومدوناته بصفة خاصة ، وليس هذا ضعفا أو محاولة للتشكيك فجميع الثقافات القديمة بلا استثناء تتصف فى هذا الأمر . ولم ينجح من ذلك الا الحديث النبوى الذى دعم بالاسناد . بل ان كتب التاريخ تختلف فى تفاصيل الحادثة الواحدة ، بل وتقع تحت مؤثرات مختلفة تفرض على الباحث الحديث الى العودة الى جميع المصادر التى ذكرت الحادثة وتفندها لتضعها فى الصورة المنطقية . وحينما أدخل الوضع فى الحديث ، نشأ علم الجرح والتعديل للقضاء على هذه الموضوعات التى يمكن أن تشوه الأمر .

ولقد احتفظ الحديث بنقائه لأن المدونين الأول له كانوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبالنسبة للأشعار والمعلقات فلا يمنع الأمر من أنها كانت محفوظة فى أماكن محدودة ، ولدى أفراد معدودين فى مكة والطائف وأيضا فى بلاط الغساسنة الذى كان يستعمل البردى أيضا . فضلا عن بعض المناطق الصحراوية التى كانت تهتم

بهذا الأمر . بل لنؤكد هذا الأمر فانه لازال لدى بعض مشايخ البدو فى صحراء المملكة العربية السعودية من يحتفظون بمخطوطات قديمة قد تصل الى أكثر من خمسمائة عام . أما الخلاف فى بعض الكلمات فكان هذا من فعل الرواة حسب لهجاتهم المحلية ومما يروى عن هذا الاختلاف عامة أن المفضليات وهى مائة وثمانية وعشرون قصيدة قد تزيد وقد تنقص وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية(١) .

ثامنا : وبدراسة النصوص العربية دراسة دقيقة اتضح أن تدوين الشعر العربى القديم مر بعد ظهور الاسلام فى ثلاث مراحل : الأولى هى مرحلة استمرار الكتابة نحو محدود استمرارا لما كان فى الجاهلية ، وهذه الفترة الأولى من الدعوة الاسلامية والدولة الاسلامية الأولى ، وحتى الراشدين تقريبا . والثانية هى مرحلة جمع الشعر المدون والشعر المتداول شفاهة ، وهذه بدأت تقريبا مع العقود الأولى من عصر بنى أمية ، ففى عهد معاوية بن أبى سفيان بدأ هذا الاتجاه، ونجد عبيد بن شرية يؤلف كتابا فى أخبار اليمن وأشعارها وانسابها ، ويزيد بن مفرغ الحميرى يؤلف سيرة تبع وأشعارها . واعتمد معدو الدواوين والمجموعات الشعرية على هذه المرحلة اعتمادا كبيرا . وقد أخذ الفرزدق اهتمامه بالشعر عن أبيه وجده ، وكذا جرير الذى تلقاه مع روايته من جده . والمعروف أن الرواة المشاهير مثل أبى عمرو بن العلاء ينسبون مروياتهم الى هذا الجيل من الرواة الشعراء . وقد نشطت حركة جمع الشعر فى هذه الفترة .

والمرحلة الثالثة : هى اعداد مجموعات من الشعر فى كتب ألفها اللغويين ، وهذه المرحلة تدخل فى نطاق الثانية ثم تنطلق منها . وشارك فيها المؤرخون والمفسرون مثل الشعبى والزهرى ومحمد بن السائب(٢) .

الأمر الباقى الذى تتفق فيه مع الباحث هو الزيادة فى الرواية التى تذكر أن كتابة المغلقات كانت بماء الذهب ، وهو أمر مستبعد ، لأنه لم يكن يعرف فى الجاهلية ، فضلا عن أنه لم يكن له سابقة فى الجاهلية حتى فى نقوشهم وآثارهم ، والتى تركها سلفهم سواء فى الشمال أو الجنوب .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٠٣ .

(٢) فؤاد سزكين : محاضرات فى تاريخ العلوم العربية ، ص ١٦٣ — ١٦٥ .

أما عن القباطى ، وانكار الباحث لمعرفة العرب عنها ، فاننا نختلف معه أيضا فى هذه النقطة ، فقد كانت هذه القباطى مستخدمة فى مصر وشائعة فى العالم لأنها كانت تدخل التجارة العالمية شأنها شأن أى سلعة متبادلة . والتجارة كانت أول أسباب المعاش للحجازيين ، فأخذوا يضربون فى الأرض يبتغون الرزق ، وهذا الأمر معروف قبل البعثة الاسلامية بكثير ، وكانت مصر احدى الأراضى التى يتجهون اليها . ولعل فى قصة وفد ثقيف الذى ذهب الى المقوقس فى مصر لدليل على ذلك بل ويقال أن ابن جدعان أتى مصر ببضاعة فباعها ورجع الى عكاظ بما جاء به منها

الاستنتاج الذى يمكننا أن نخلص اليه بعد طرح كل هذه القضايا أن هناك مخطوطات ومدونات كانت موجودة قبل الاسلام ، وأنها تعتبر المرحلة الأولى من التراث العربى ومنها الشعر الجاهلى ، وأن اللغة العربية الجاهلية هى لغة وعلم فى وقت واحد أى هى علم العربى بذاته وأرضه ، وعالمه وأشياء هذا العالم ، ثم جاء الاسلام ونزل القرآن الذى كان معجزته بيانه ، وفصاحته الخاصة التى اعتبرها العربى الجاهلى أنها فوق امكانية البشر ، فآمن بها وبما تقوله ، وأصبح القرآن فى الاسلام هو عقيدة العربى المسلم مثلما كانت اللغة بفصاحتها وشعرها هى عقيدة العربى فى الاسلام وبدأت المراحل التالية لتكوين التراث . ولذلك ما ورثناه من مدونات ومخطوطات غربية قبل الاسلام له أهميته فى تكوين التراث فيما بعد .

عصر الرسول والراشدين

ويعتبر عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بداية مخاض التراث العربى الاسلامى ، ونرى فى أسلوب تعليمه سنة لمن بعده ، يتخذونها فى تكوين التراث المخطوط ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يجلس للناس عامة يجيبهم عما كانوا يسألون فيه مما جاء فى القرآن ، وممن هم فى حاجة الى معرفته ، فيلتف الناس حوله حلقات بعد حلقات ، فيتجه عليه السلام الى جانب بعد آخر يحدثه(١). ففى البخارى رضى الله عنه عن أبى واقد الليثى قال : (بينما رسول الله — عليه السلام — جالس فى المسجد ، اذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان الى رسول الله ، فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد أحدهما فرجه فى الحلقة فجلس وجلس الآخر خلفه(٢) . فكانت حلقات النبى ومجلسه فى المسجد النبوى مثلا يحتذى به كبار الصحابة ، ومن بعدهم التابعين . وكان عليه الصلاة والسلام اذا

---

(١) الاصبهانى : الاغانى ، ج ١٧ ، ص ٤٢ .

(٢) امين مدنى : المرجع السابق ، ص ١٧٧ — ١٧٨ .

ما خطب أو تكلم أو قرأ أمرا أو نهى عن أمر ، أمر أصحابه الذين حوله أن يبلغوه من لم يحضر ، ويقول : « الا أبلغوا عنى ، فرب مبلغ أوعى من سامع (١) » .

وليس غريبا بعد ذلك أن نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على تعلم الكتابة والقراءة كأداة لمعرفة الدين ووسيلة لنشره وتبليغه ، فقد كان الدين الجديد فى حاجة الى كتاب يدونون آيات الكتاب الكريم ويكتبون الرسائل التى يبعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم الى شتى بقاع الأرض يدعوا الناس فيها الى الدخول فى دين الله . والى جانب كتاب الوحى ، وكتاب الرسائل كان للرسول كتاب يختصون بكتابة الغنائم ، وآخرون يكتبون أموال الصدقات ، ونوع آخر لكتابة شئون المسلمين : بل وأوصى الذين كانت ملكة الحفظ ضعيفة بالكتابة عنه ، فروى أبو هريرة قال : « كان رجل من الأنصار يجلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمع منه الحديث فيعجبه ولا يحفظه ، فشكى ذلك الى الرسول ، فقال له عليه السلام : (استعن بيمنيك ، وأومأ بيده الى الخط) . وهذا كله يعنى أن التدوين والكتابة بدأت تنتشر لخدمة الدعوة الاسلامية ، ويتوسع المسلمون فى استخدامها حتى صار الصحابة الذين لا يكتبون يحسون بالألم من عدم قدرتهم على الكتابة ، ففى البخارى ، روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (ليس أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثا منى ، الا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فانه كان يكتب ولا أكتب) . وكانت هذه هى المرحلة الثانية لظهور التراث العربى والمرحلة الأولى لظهور التراث العربى الاسلامى ، ودللت على أهمية استخدام الكتابة والتدوين . وان كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد وضع ضوابط محددة لهذا التوسع ، فقد أذن لبعض الصحابة مثل عبد الله بن عمرو بن العاص فى كتابة الحديث (٢) » .

الا أنه نهى عن التوسع فى الكتابة للتركيز فى كتابة القرآن الكريم ، وحتى لا يختلط القرآن ببعض الأحاديث أو الكتابات الفقهية ، وهذا يتضح من قوله : (لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه . وحدثوا عنى فلا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده فى النار) .

---

(١) الغزالى : احياء علوم الدين ، ج ١ ، ص٥٢ .

(٢) الخطيب البغدادى « أبو بكر احمد » : تقييد العلم ، تحقيق يوسف العش ـ دمشق ، المعهد الفرنسى للدراسات العربية ١٩٤٩ ، ص ٦٨ ، ٧٧ ، ٨٤ .

وقد ذهب الخطيب البغدادى فى كتابه « تقييد العلم » الى أن النهى عن الكتابة كان فى الصدر الأول من الاسلام ، وذلك لسببين : أولهما ، الخشية من أن يضاهى بكتاب الله تعالى غيره أو يشتغل عن القرآن بسواه . وثانيهما ، الخوف من الاتكال على الكتابة وترك الحفظ خاصــة فى تلك الفترة الأولى ، والحفظ يصحب الانسان فى كل مكان ، كما يفيد فى التركيز والاستيعاب[1] .

والأمر بقيد العلم دليل على اباحته وخاصة لمن خشى على نفسه دخول الوهم فى حفظه ودقته وفى هذا أيضا تنفيذا لقول الله تعالى : (وتســأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله . ذلكم أقسط لكم عنــد الله وأقوم للشــهادة وأدنى الا ترتابوا[2]) .

ونرى أنه لم تصل الينا الرواية التى بسببها قيــل هذا الحــديث ، ومن المحتمل ــ وهذا اجتهاد شخصى ــ أن بعض المسلمين قد خلط تفســير القرآن بالقرآن نفسه ، خاصة وأنهم كتبوا التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خلال جلسات الحلقات ، ودليلنا على ذلك أمر الانصارى السابق الاشارة اليه .

ولقد كان النزوع الى جمع المعارف وحفظها من الضياع متعدد الجوانب ، وهذا الأمر بدأ فى فترة كان عدد كبير من الصحابة لا يزالون على قيد الحيــاة وخاصة ما يرتبط ارتباطا مباشرا بحياة الرسول أو بفعله أو بسنته[3] .

ومن المرجح أن صحابة الرسول كانوا يروون كتبه (رسائله) ، ومثال ذلك ما رواه الصحابى عمرو بن حزم بن زيد وهى الرسالة التى بين فيها النبى صلى الله عليه وسلم الفرائض والزكاة والديات[4] . وعمر بن عبد العزيز حينما تولى الخلافة وذهب الى المدينة ، أمر بالبحث عن مدونتين قديمتين احداهما (كتاب الصدقات) للنبى صلى الله عليه وسلم . ويعــد زيد بن ثابت من أوائل الفقهاء المشهورين ، وقد جمع كتب فقهية تبدأ بعبارة (قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كذا ...، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام ...) . ويرى الزهرى أنه لولا أن زيد بن ثابت كتب الفرائض لرأيت أنها ستذهب من الناس . ولزيد بن ثابت أيضا (كتاب

---

(١) الخطيب البغدادى : تقييد العلم ، ص ٣١ .
(٢) سورة البقرة ، آية ٢٨ .
(٣) فؤاد سزكين : التراث ، مجلد ١ ، ج ٢، التدوين التاريخى ، ص ٢٠ .
(٤) ابن عبد البر : الاصابة ، ج ٢ ، ص ١٢٦٤ .

فى الديات) ، وقد أمر عمر بن عبد العزيز تاحراق هذا الكتاب (١) .

واذا كان الكثير من المؤلفين يعتبرون أن بداية التدوين والكتابة وتدوين التراث من أيام أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، حيث تم جمع القرآن ، وأيام عثمان بن عفان رضى الله عنه فنحن أمام بعض المصادر التى توضح أنه فى عصر الرسول كانت هناك محاولات لجمعه ، أى فى حياة الرسول نفسه ، وقد قام بها سعد بن عبيد القارى (٢) .

ومن هذا يتضح لنا ما سبق الاشارة اليه من أن المرحلة الأولى من تكوين التراث العربى الاسلامى كانت فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنها صارت سنة لما بعدها .

والاسلام منذ نزول الآية الأولى للقرآن حريصا على توجيه المسلمين نحو الكتابة ليتداركوا أهميته وكلمة « اقرأ ... » أولى آيات النزول انما القراءة تلاوة لا يستوجب مكتوبا ، أو تلاوة شىء مكتوب والأولى خص بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، والثانية تستوجب على المسلمين أن يتعلموا الكتابة ليقرأوها (٣) . أى أن التدوين بدأ فى الاسلام مع بداية الوحى ، والآيات تنزل والرسول حوله الصحابة يدونون . وبذلك يتمتع القرآن بعنصر الصحة الذى لم يتوفر فى الانجيل والتوراة (٤) .

وتطورت مراحل الكتابة وتكوين التراث العربى الاسلامى فى عهد الراشدين، بل كان لهذا العهد أثر كبير على احياء التراث العربى فى العصر الجاهلى ، وسوف تظهر المصادر أيضا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام له دور فى هذا الأثر .

وأبرز عمل ظهر فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه هو جمع القرآن الكريم ، واشترك فى جمعه ستة من الصحابة هم أبو الدرداء عويمر بن يزيد بن

---

(١) سزكين : التراث ، مجلد ١ ، جـ ٢ ، كتاب الفقه ، ص ٦ ، ٧ .

(٢) محمد بن حبيب : المحبر ، ص ٢٨٦ .

وسعد بن عبيد بن النعمان القارى نسبة الى قبيلة قارة من كنانة ، وهذه القبيلة هى التى ينسب اليها أيضا (دار القراء) بالمدينة المنورة ، والتى تفسرها بعض المصادر خطا بانها (دار القراءة) أو انها اول مدرسة فى الاسلام .

امين مدنى ، المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

(٣) سيدة كاشف : مصادر التاريخ ، ص ١٥ .

(٤) بوكاى : القرآن الكريم والتوراة والانجيل ، ص ١٥٢ .

قيس الخزرجى ، وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وسعد بن عبيد القارى ، وعلى بن أبى طالب . وكان زيدا اماما فى الرسم ، وهو من كتاب الوحى وبعد أن تم جمع وكتابة القرآن ، احتفظ الصديق بمجموعة الصحف التى سماها مصحفا ، ثم آلت نسخته الى عمر بن الخطاب ، ثم انتقلت الى حفصة رضى الله عنهم جميعا .

ورغم أن هناك رواية تذكر أن تخلف على بن أبى طالب عن بيعة الصديق ، بسبب اعتكافه على جمع القرآن ، فى صحيفة (١) ، الا أنه قد روى عنه أيضا قوله : (رحم الله أبا بكر ، هو أول من جمع القرآن بين اللوحين) (٢) ، وليس مجالنا تفنيد الرواية وأسبابها .

واستمر تكوين التراث العربى الاسلامى فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فهو من أنصار نشر العلم بين المسلمين ، واعتبره واجب على كل مسلم ، ويقول فى ذلك (من علم فليعلم ، ومن لا يعلم فليسأل العلماء) . وهذا يعنى انتشار مجموعة جديدة تفرغوا للعلم وأطلق عليهم العلماء فى هذا العصر المبكر من الاسلام . بل أنه أول من أرسل الى البدو من يعلمهم ، ولم يتركهم عزل عن العلم ولم يكن هذا الا نوعا من التسجيل للتراث الاسلامى . ومما يؤكد ذلك أن المدونة الثانية التى كان يبحث عنها عمر بن عبد العزيز فى المدينة المنورة هى « كتاب الصدقات » لعمر بن الخطاب . وذكر أحد احفاد عمر بن الخطاب انه وجد صحيفة فى محتويات جده رضى الله عنه عن « الخراج على الماشية » ، وصحيفة أخرى بها تدوين لمسائل فقهية (٣) .

ومن آبرز ما أدركه عمر بن الخطاب رضى الله عنه تدوين الانساب لأهميتها فى تصحيح الكثير من المعارف ، فضلا عن حاجته لتحديد مكانة المسلمين حسب دورهم فى نصرة الدعوة الاسلامية ليمكنه على ضوئها تحديد المكانة المالية فى العطاء . والأنساب كانت موضع تقدير كبير فى المجتمع العربى القديم ، وعمر استخدمها وفق تعاليم الاسلام الجديد ، وفى ضوء الأخوة الاسلامية الجديدة

---

(١) العسكرى : الاوائل ، ص ١١٦ .
(٢) ابن عبد البر : الاصابة ، جـ ٦ ، ص ٤٠٢ ، ٤٠٨ .
(٣) سزكين : التراث ، مجلد ١ ، جـ ٣ ، ص ٤ ، ٥ .

التى تحددها « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » . وقد كلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثلاثة من نسابى قريش هم جبير بن مطعم بن عدى القرشى ، وعقيل بن أبى طالب بن عبد مناف الهاشمى — وهو أخو على بن أبى طالب كرم الله وجهه — وأسن منه — كان الناس يأخذون عنه الانساب فى مسجد المدينة ، ومخرمة بن نوفل بن أهيب الزهرى القرشى الذى ولد قبل الهجرة بستين عاما ، وكان يعد من كبار التابعين ورواة الشعر العربى القديم بين المخضرمين ، وكان ضمن من وضعوا حدود المنطقة الحرام فى مكة . كلفهم عمر بن الخطاب بأن يعدوا له جدولا بالانساب ، فأعدوه (١) .

وسوف يكون لمخرمة بن نوفل أبناء وأحفاد وتلاميذ علماء بالانساب ومؤرخين ، وأسهموا فى التطور المستمر للتدوين التاريخى (٢) ، ومن ثم فى التراث العربى الاسلامى .

والخليفة عمر بن الخطاب بهذا العمل أشار للصحابة المؤلفين والتابعين أيضا بأهمية التاريخ ، وكان دائم السؤال عن أحداثه ، فقد سأل جبير بن مطعم عن تاريخ الملك ابن المنذر الساوى عندما أهداه عمر سيف الملك ، وكان من ضمن محتويات الغنائم التى غنمها المسلمون ، فروى له جبير جيد تاريخه (٣) . ورغم تشكيك البعض لهذه الرواية ، الا أنها تدل على احساس العرب بأهمية البحث التاريخى وتدوينه ، خاصة وأن جبير بن مطعم كان تلميذ أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى معارف الانساب ، ابنه نافع بن جبير هو الذى روى الرواية (٤) . وكلاهما مؤرخا نسابة .

ومما يشير الى انتشار التدوين للتراث الاسلامى فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أن عبد الله بن عمرو بن العاص خرج مع جيش المسلمين الى معركة اليرموك (١٦ هـ) ، ومعه جمل بعيرين من الكتب . هذا فضلا عن الرسائل التى

---

(١) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٣ ، ص ٢٩٥ — ٢٩٩ .

(٢) سزكين : التراث ، جـ ١ ، ص ١٤ ، حاشية ٥٩ .

(٣) الطبرى : الرسل والملوك ، جـ ١ ، ص ٢٤٥٥ .

(٤) سزكين : التراث ، مجلد ١ ، جـ ٢ ، ص ١٤ ، وحاشية ٥٩ .

كان يرسلها عمر الى ولاته مثل أبو موسى الأشعرى ، ومعاوية بن أبى سفيان (١).

وكذلك الحال أيام الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه والذى كان من أهم وأبرز أعماله على الاطلاق جمع القرآن الكريم ونسخه على صورة واحدة بعد أن كلف كبار الصحابة بذلك ، وكان أبرزهم زيد بن ثابت ، فاستعانوا بالكتاب الذى جمع أيام أبى بكر رضى الله عنه ، وكانت تختفظ به حفصة رضى الله عنها .

وما يمكن أن يقال عن الخلفاء الثلاث ينطبق على فترة خلافة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، بل ان الأحداث التى شهدها عهده دفعت الكثير من الصحابة الى الاعتزال والتفرغ للعلم ، وكان على بن أبى طالب مساهما بدور كبير فى تكوين التراث الاسلامى ، سواء قبل الخلافة أو بعدها ، فقد ذكر ابن الحنفية ــ وهو ابن على بن أبى طالب ــ أن أباه أعطاه يوما صحيفة ليذهب بها الى عثمان بن عفان ، وأن هذه الصحيفة تضم ما أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم حول الصدقة .

ومن أمثلة ما كتبه الصحابة كتاب سعد بن عبادة حول التشريع ، وما روته الصحابية سلمى من أن عبد الله بن العباس قد كتب الى زوجها أبى رافع بعض أعمال الرسول من أوراق وكان لزيد بن ثابت ــ وفقا لرواية ابنه ــ كتاب فى الميراث ، وهو الذى وجهه الى معاوية بن أبى سفيان وهناك غيرها من الكتب تحويها المصادر ، ولعل ما يجدر الاشارة اليه « الصادقة » وهى صحيفة لعبد الله ابن عمرو بن العاص تضم ألف حديث سمعها بنفسه (٢) .

ولأهمية الكتب الفقهية فى حياة المسلمين مهما اختلفت وجهات نظرهم السياسية والتى كانت نتيجتها المذاهب غير الأربعة ، فقد كان من المألوف عند الصحابة والتابعين والعلماء تبادل وتوجيه الرسائل بينهم وخاصة بعد فترة الراشدين ، ومن هذه الرسائل والكتب ، ما كتبه نافع بن الأزرق أحد زعماء الخوارج الى عبد الله بن العباس يسأله رأيه فى نصيب الأقارب فى الميراث ، كما يسأله أيضا عن قتل الأطفال ، وكتب أيضا عبد الله بن العباس الى نجدة الحرورى

---

(١) سزكين : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٢) ابن الاثير : أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

(ت ٦٩ هـ) الذى ينسب اليه مذهب « النجدية » الخـارجى ، وذلك ردا على كتابه الذى يسأل فيه عن مرافقة نساء النبى للرسول فى رحلاته وغزواته [١] .

واذا كان عبد الله بن عمرو بن العاص أكثر الصحابة جمعا بالتدوين لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانه أيضا ممن عرف أهمية استخدام ورق البردى فى تسجيلاته وتدويناته ، هذه الوسيلة التى عرفها المسلمون منذ تحرير مصر فى عهد عمر بن الخطاب ، ودخولها الدولة الاسلامية ، ومن ذلك الحين بدأت تنتشر فى الحجاز والشام وغيرهما ، خاصة بعد أن فرق عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقهاء الصحابة الى الامصار والصحراء ليعلموا الناس أمور دينهم . هذا فضلا عما تم فيما بعد فى عصر عثمان بجمع القرآن الكريم فى صورة واحدة ، فأسهم البردى فى اعادة نسخ المصحف وتداوله فى الامصار بهـدف تعميمه ونشره بين المسلمين خاصة وأنه وسيلة سهلة وميسرة فى الكتابة وكان على بن أبى طالب يشجع على كتابة القرآن ويحث الناس على ذلك بالاضافة الى توصيته بنسخ كتب العلم الاسلامى .

وهناك أمر آخر شجع على كتابة وتدوين العلم بعد انتشاره وغزواته فى عصر الراشدين ومن ثم تكوين التراث الاسلامى ، وهو ظهور مدرسة الرأى ، أو بمعنى أدق وضع البذرة التمهيدية لتكوين مدرسة الرأى أو ما نسميه فيما بعد بالاجتهاد. فهناك عدد من الصحابة كانوا يقولون بالرأى اذا لم يكن هناك حكم للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأئمة هذا الامر : عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) ، وزيد ابن ثابت (ت ٤٥ هـ) عالم الناس وحبرها . ومما لا شك فيه أنه قد جاء من بعد هؤلاء الأئمة تلاميذ لهم ومريدين ، كتبوا عنهم وتناولوا منهجهم فى دراساتهم ، وأسهموا اسهاما كبيرا فى العلم والتراث الاسلامى مما وسع فى هذه المدرسة ، فكثرت الكتابة المنهجية على مدرسـة الرأى . ومن هؤلاء التابعـين والتلاميذ والمريدين عبد الله بن مسعود بن علقمة بن قيس (ت ٦٢ هـ) . ومن تلاميذ زيد ابنه خارجة بن زيد ، وقبيصة أحد الفقهاء المشاهير فى المدينة المنورة (ت ٦٢ هـ)، ويروى فى هذا الأمـر أن المعرفة بقوانين الميراث لولا أن زيد ابن ثابت دونهـا وحفظها ،لضاع معظمها .

---

(١) البلاذرى : انساب الاشراف ، جـ ١ ، ص ٥١٧ ، طبعة دار المعارف .
ـ سزكين : المرجع السابق ، ص ٧ .

ولم يقتصر التدوين على الفقه والحديث فحسب بل امتدت الى وثائق عصر النبوة ، هذه الوثائق التى يمكن أن نعتبرها من بواكير التدوين التاريخى ، ولعل أبرزها وثيقتين :

الاولى : قبل الهجرة وهى وثيقة مقاطعة قريش لبنى هاشم .

والثانية : بعد الهجرة وهى ما تخص صلح الحديبية الذى عقد فى العام السادس بعد الهجرة حين خــرج الرسول صلى الله عليه وســلم وأصحابه من المدينة الى مكة لاداء العمرة فأجمعت قريش على منعه ومن معه من الدخول ، ثم دخلوا معها فى مفاوضات ولقاءات انتهت الى ما توصل اليــه الرسول مع سهيل ابن عمرو ممثلا لقريش .

هذا فضلا عن الرسائل التى أرسلها الرسول للملوك والحكام يدعوهم فيها الى الاسلام . وهذه جميعا رغم ظهور بعض الاختلافات فى ألفاظها عند روايتها فى الكتب فيما بعد الا أنها تستمد من مصدر واحد رئيسى ، ولا يمكن أن يكون هذا المصدر الا نص مكتوب ومؤكد بالرواية .

وشهد عصر الراشدين مرحلة متقدمة فى كتابة التاريخ ، وكانت له أسباب ودوافع يمكن تلخيصها فيما يلى :

أولا : أن القرآن الكريم .. كتاب الله المنزل .. قدم للمسلمين مادة تاريخية هامة ، وان لم تكن تفصيلية فانها مجملة تكتفى بالاشارة ، وتسمى « القصص » ، وهذا ما دفع المسلمون الى اعتبار النظرة الى المــاضى أساس فــكرى للعقيدة للاعتبار والفهم .

ثانيا : أوصى الاسلام بأهمية الكتابة وأوضح القرآن بعض وسائلها المعروفة عند نزول البعثة وقد سبق الاشارة اليها فيما سبق .

ثالثا : الرغبة الدينية والرغبة العلمية فى البحث والاطلاع حاجة فــكرية انسانية ، وكانت شديدة لدى الصحابة والتابعين ، فأثروا التراث الاسلامى ، وذلك بين فى أفعالهم .

والمعروف أن كتابة التاريخ الاسلامى بدأ بكتابة حياة الرســول وشمائله ومغازيه وجهاده فى الدعوة الاسلامية . ويعتبر أقدم المصادر التى سجلت ذلك ،

والذي كتب اما قبل زمن الخليفة عمر بن الخطاب أو فى أيامه الاولى ، وبمعنى أدق قبل اتخاذه العام الهجرى ، وذلك لأن تاريخ الحدث نفسه كان قبل التاريخ الهجرى بسنوات ، وان دل هذا الحدث فانه يدل على مدى الاهتمام الكبير الذى كان يوليه الفاروق للتاريخ والجغرافيا .

فمما يروى عنه أنه كتب بعد الفتوحات التى تمت فى عهده الى حكيم معاصر له بعد أن مكن الله للعرب تحرير هـذه البلاد ودخولها فى الدولة الاسلامية ، واستقرار كثير من العرب على أرضها ، فأقاموا فى الأرض وسكنوا المدن . وطلب منه أن يصف له المدن وجوها ومنازلها وأثر المناخ على سكانها ، فأرسل له الحكيم وصفا لكل من الشام ومصر والعراق وخراسان (١) ، كما كلف سعد بن أبى وقاص أن يصف له أرض القادسية وموضعها . وقد استخدم ياقوت الحموى نسخة من هذا الوصف بخط المؤرخ أبو زكريا يحى الساجى (ت ٣٠٧ هـ) (٢) .

وبتحليل تكليفات عمر ومطالبه نجد أن هذه فعلا احدى سمات سياسته

واتبع عثمان بن عفان سياسة عمر ، فألف له زياد بن أبى سفيان (أو ابن أبيه) وصفا للبصرة وكان هذا الوصف متداولا بين الجغرافيين المسلمين ومؤلفى تاريخ المدن .

واستخدم الواقدى كتابا فى التاريخ صنف عصر الراشدين ، وكان الكتاب فى حوزة حفيد مؤلفه المسمى أبو عمر بن حريث العذرى ، وفيه بعض الحوادث الهامة المتعلقة بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم . حيث ، أو تحدث الكتـاب أيضا عن وفد أو جماعة قدمت الى الرسول ، وجاء فيه : « قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فى صفر سنة تسعة وفدنا اثنى عشر رجلا .. » (٣) . ونظرا لأن ابن حريث العذرى لم يذكر اسم المؤلف فلا نستطيع أن نعرف مدى قرابته له . غير أن أهميته ترجع الى الاستخدام المبكر الواضح للترتيب الزمنى للهجرة بالنسبة للفترة التالية للهجرة (٤) .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ — ١٣٠ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٨ .
(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ١ ، ص ٣٣١ .
(٤) سزكين : التراث ، مجلد ١ ، جـ ٢ ، ص ٢١ .

وهناك قطعة من مؤلف للصحابى العلاء بن الحضرمى كان لا يزال موجودا فى القرن الثالث الهجرى وهو يعطينا مثلا آخر على أن بعض الصحابة قد اعتادوا أن يسجلوا ذكرياتهم الهامة عن الرسول (١) .

وكان كتاب الصحابى المشهور سعد بن عبادة (ت ١٥ هـ) عن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحكامه لا يزال معروفا حتى القرن الثالث الهجرى وسار شرحبيل بن سعيد بن سعد ومن قبله سعيد بن عمر سنة الجد سعد بن عبادة ، والأسرة فى التأليف (٢) .

وأما أبو الجلد جيلان بن أبى فروة الذى كان عبد الله بن عباس يلجأ اليه فيما يعرض له من مشـــكلات لغوية فكان يوصف بأنه « صاحب كتب جماعـــة للاخبار » وكان أبو الجلد هذا يرجع الى كتب أخرى فيقول عن نفسه « قرأت فى الحكمة » و « قرأت فى مسألة داود » (٣) .

مما سبق يتضح لنا أن التراث العربى الاســـلامى تكونت مرحلته الأولى بشكل كبير فترة النبوة وعصر الراشدين ، ولم ينته العصر الأخير الا وكان انتاجا طيبا متنوعا ومتخصصا فى العلوم الاسلامية من تفسير وحديث وفقه وتاريخ ، بل ان واحدا من متأخرى الصحابة مثل عبد الله بن عباس كان يحتفظ بكتب تحوى بعض الشعر الجاهلى وغيره ليفسر به الكلمات وبعض المعانى ، فضلا عن أنه كان نسابة معروفا وعنده بعض كتب الانساب . والأهم من ذلك أن هذه الكتب كانت تعتبر المصادر الرئيسية لكثير من الأحداث المتقدمة للمؤلفين والمصنفين فيما بعد خلال القرون الثلاث التوالى للهجرة ، حيث صار التراث العربى الاسلامى شامخا كبيرا وكثيرا متنوعا .

والأمر الجدير بالانتباه هو قضية الشعر الجاهلى والتاريخ الجاهلى وتدوينه فمن المعروف أن المسلمين الأول والصحابة والتابعين صرفوا جل جهودهم فى جمع الحديث والتاريخ والانساب ، وكان يهمهم كل ما يتعلق بدراسة العلوم الاسلامية لذلك بحثوا عن المعارف والمأثورات التى تتعلق بالعرب فى الجاهلية وصـــدر

---

(١) ابن حجر : الاصابة ، جـ ٢ ، ص ٣٨٦ .
(٢) سزكين : المرجع السابق ، ص ٢٢ .
(٣) أبى نعيم : حلية الاولياء ، جـ ٦ ، ص ٥٥ — ٥٦ .

الاسلام ، وكانوا يستغلون واجبهم الدينى بنشر الاسلام بين القبائل ويحصلون عنـــد الخزرج اليهم على المعلومات والمعارف ، وتسجيل ما يلقيـــه عليهم بعض الحكماء والشيوخ والمخضرمين من رجال هذه القبائل ، فبذلت من عندهم حركة الجمع والتدوين ، وانتشرت هذه الحركة بتقدم الوقت خاصة حين دخلت شعوب عربية الى الاسلام ، وكان الأمر يستدعى الرجـــوع الى القبائل العربية التى مازالت ضاربة فى الصحراء للعودة الى اللغة العربية الفصـــحى ، بل الى تصحيح بعض الأشعار والأخبار منهم ، فرحلوا الى مواطن القبائل فى الصحراء لجمع اللغة والشعر والأمثال عن فصحاء العرب الاقحاح ، بل واشتد التنافس واحتـــد بين العلماء حتى صاروا يتفاخرون بينهم فى هذا الأمر ، بل ان علماء اللغة بالبصرة كانوا يفخرون على علماء الكوفة بقولهم « نحن نأخذ اللغة حرشة الضباب ، وآكلة اليرابيع (أى البدو القح) ، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشحاريز وباعة الكواميخ (أى الحضر) (١) . ويقول ياقوت عن الكسائى « خرج ورجع وقد أنفد خمسة عشرة قنينة حبرا فى الكتابة عن العرب ، سوى ما حفظ » (٢) . وقال أبو عبيدة عن أبى عمرو العلاء « كانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له قريبا من السقف عن أعراب قد أدركوا الجاهلية » (٣) .

وكان صاحب الفضـــل فى توجيه الداعين والعلماء الى الصحراء للبـــدو لتعليمهم هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، واتبع سنته بصورة أوسع الخليفـــة عمر بن عبد العزيز (٤) .

على أن أقدم خبر عن اتجاه العلماء من الاسلام الى جمع الشعر القـــديم والأخبار القديمة حفاظا على أهمية بعضها من النسيان يرجع الى توجيهات الخليفة عمر بن الخطاب ، فيروى أنه كتب الى المغيرة بن شعبة (ت ٥٠ هـ) طالبا أن يسأل الشعراء عما نظمـــوه بعد ظهور الاســـلام ، وفى عهـــده أيضـــا تم جمع شـــعر الأنصار (٥) وقد سبق الاشارة الى أمر جمعه للجنة الانساب ، وجمع التاريخ ، والتاريخ الهجرى .

---

(١) الزبدى : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٩٤ .
(٢) معجم الادباء ، ج ١٣ ، ص ١٦٩ .
(٣) الجاحظ : البيان والتبين ، ج ١ ، ص ٣٢١ .
(٤) عبد الله بن الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٦٧ .
(٥) سزكين : التراث العربى الاسلامى .

وقد انطلقت فيما بعد عملية التدوين والانتاج فى العلوم الاسلامية واللغوية وغيرها فى القرن الأول ، ولم تكن ظاهرة بوضوح وهاج ، الا أنها كانت جذور لما ظهر فى نهاية القرن الأول الهجرى ثم جذور لانطلاقة القرن الثانى الهجرى ، حيث بدأت أسماء العلماء تظهر ويظهر معهم مؤلفاتهم ومدوناتهم ومصنفاتهم ، على يدهم أحيانا وعلى تلاميذهم أحيانا أخرى .

والأمثلة كثيرة على غزارة توفر الكتابات فى العلوم الاسلامية فى هذه الفترة فقد روى سعيد بن جبير « ربما أتيت ابن عباس فكتبت فى صحيفتى حتى أملأها وكتبت فى نعلى حتى أملأها ، وكتبت فى كفى » (١) .

وقص أحد متأخرى التابعين ، أن القدامى منهم قد كتبوا عند الصحابى البراء بن عازب (ت ٧١ هـ) ووصفهم بقوله « رأيتهم يكتبون على أكفهم بالقصاء عند البراء .

وقبل أن ننتقل الى تراث القرن الثانى والثالث الهجرى ، نرى لزاما علينا أن نوضح عدة ملاحظات جاءت فى كتب حديثة :

* الملاحظة الأولى : وهم البعض أن التدوين فى العلوم الاسلامية ، التى قام عليها التراث العربى الاسلامى — لم يبدأ الا فى القرن الثانى الهجرى ، هذا الوهم نجم عنه بعد المسافة والزمن بين البداية التدوينية ، وبين فترة حدودها ووضعت فيها أسس التدوين فى التراث العربى الاسلامى ، علميا كان أم دينيا أو نظريا ، وأن العلوم الاسلامية كانت تقوم على المشافهة فقط . والسبب فى هذا الوهم هو الخلط ما بين ثلاث عمليات متتالية كانت المعلومات والمعارف تمر بها قبل أن يتداولها الناس عن التسجيل ، ويتشكل عنها التراث تدريجيا (٢) ، والتحليل العلمى يكشف عن هذه العمليات فيما يلى :

---

(١) سزكين : التراث العربى .

(٢) سزكين : المرجع السابق .

العملية الأولى : عملية استماع الشهادة من الشهود والمعاضرين للحدث أو السامعين له ، وهى عملية شفهية خالصة كانت تتم بشكل مباشر بين الشاهد الذى هو المصدر الأول والأساسى للمعلومات وبين جامع تلك المعلومات من الأفواه . لتسجيلها ، فقد يكون هناك من حضر فعلا غزوة من غزوات الرسول (صلى) فرأى تفصيلات الغزوة ، والثانى يسمعها منه ليسجلها ويسجل عنها من أحداث . وقد يكون هناك من سمع حديث للرسول وآخر يسجل عنه ولكنه لم يحضر سماعه ، والمسجل هنا مجرد غائب عن الحدث وان كان معاصرا له ، وغيرها من الأمثلة مثل قصة المغيرة مع أبى بكر حول تقسيم السدس للجدة ، وطلب أبو بكر شاهد على ذلك فأحضر المغيرة ، محمد بن مسلمة فشهد بذلك . وقصة أبى موسى الأشعرى مع عمر بن الخطاب فى السلام ، واذا سلم ثلاث فلم يجب فليرجع تعوله بالبينة ، وأحضر شاهد شهد على ذلك .

العملية الثانية : عملية حفظ المعلومات ، ولم تكن تتم عن طريق الذاكرة ، ولا بها وحدها أبدا ولكن تتم فى الكثرة الساحقة من الأحوال بالتسجيل والتدوين الكتابى الشخصى . وهذه العملية كانت تتم منذ عهد الرسالة ، اذ يدون المستمع ما يهمه من المعلومات نفسر ، عملية التدوين هنا هى معونة الذاكرة على دقة النقل وصحته ، وحفظ السمع خوفا من التضعيف أو التحريف أو خيانة الذاكرة .

وقد سبق الاشارة الى أمثلة من ذلك مثل قصة الصحابى الذى شكى للرسول من ضعف ذاكرته فأومأ اليه باستخدام يده ، أى بالكتابة والتدوين . وكذا قرار عمر بن الخطاب بتشكيل لجنة من ثلاث متخصصين وثقة فى الانساب وهم : أبو عدى جبير بن مطعم ، ومخرمة بن نوفل ، وعقيل بن أبى طالب — وثلاثتهم يعرفون الكتابة — وذلك لوضع ثبت بأنساب العرب يقوم على أساسه الديوان ، وبذلك (دون للناس فى الاسلام الدواوين ... وكتب الناس على قبائلهم) (١) ، وصار هذا التدوين والامثلة سنة يحتذى به فيما بعد .

وروى عن أبى ليلى (ت ٨٢ هـ) أنه سأل الحسن بى أبى طالب عن رأى والده فى الخيار أى أولى الفضل فأمر الحسن باحضار صندوق وأخرج منه

---

(١) الطبرى : الرسل والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢١٠ .

صحيفة تضم آراء الامام على ذلك (١) .

العملية الثالثة : عملية نقل المعلومات الى الآخـرين ، وهى بدورها عملية شفهية . ان رغبة العلماء فى التوثيق ومنع الدس والتحريف والزيف كانت تدفعهم الى أن يعتبروا « المعلومات » جديرة بالثقة ما لم تأت بالنقـل المباشر والسـماع الشخصى عن أصحابها العارفين بها والحافظين لها ، وهذا ما كان يؤخر الصحف المكتوبة الى مستوى الاهتمام الثانوى ، ويدفع من جديد بالرواية الشفهية الى مستوى الاهتمام الأولى (٢) .

ولذلك يجب أن تتنبه وندرك أن العملية الوسطى كانت هامة لأنها ترتبط الى حد كبير بالصدق وصحة النصوص وعدم التحوير فيها ، وكل من يتجاوزها انما يهمل العملية المركزية التدوينية التى تسجل ظهور العلم المكتوب فى الاسلام والتدوين المبكر حدا منذ الأيام الأولى . فضلا عن أن العملية الثالثة قد ذابت بالتدريج بعد أن تأكد العلماء جميعا وبلا استثناء من أهمية التدوين وخرجت عمليات التدوين باشكال مختلفة ــ سبق الاشـارة اليها ــ كالسماع والوجادة والنقل .. الخ ..

* والملاحظة الثانية : وهى جديرة بالاهتمام أيضا ، وهى أن الكتب التى دونت فى هذا العصر المبكر ، لم تكن الا من بضع ورقات فى أى من الموضوعات السابق الاشارة اليها ، ولم تتعد فصل أو جزء من الكتاب الحـديث ، ومعظمها دفعتها الأحداث والظروف التى كانت تمر بها مكة بعد هجرة الرسول منها والمدينة بعد اقامة الرسول فيها ــ عهد الاستقرار السياسى للدولة الاسلامية من تسجيل أفعال وأحوال ومعاهدات وكتب الرسول (ص) ، ومن المدينة تخرج معظم علماء ذلك العصر فى التفسير والفقه والحديث والتاريخ ، وجميعهم من الصحابة المعاصرين للرسـول .

ونستطرد فى ذكر انتاج القرن الأول الهجرى من التراث . وسنأخـذ من التدوين التاريخى مثالا . ففى منتصف القرن الأول الهجرى ظهرت المؤلفات فى شكل معين وان كان البعض قد ظن أنها فعلا بداية التدوين ، فقـد وصل الينا

---

(١) أحمد بن حنبل : العلل ، ص ٢١٦ .

(٢) شاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص ٧٧ .

كتابان يتناولان تاريخ الحميريين ولكنهما ــ بسبب نقص الوعى التاريخى وضيق الأفق ــ لا يقدمان الا اشارات ترجع الى فترة ظهور الاسلام . والأول منسوب الى عبيد بن شرية الجرهمى ويسمى « أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » والثانى لوهب بن منيه وكتابه يسمى « كتاب الملوك » وفى الأخير يشير المؤلف الى أن الخليفة على بن أبى طالب قد حثه على تعلم تاريخ الحميريين . وكلاهما مثال للتأليف فى أيام العرب ، ومثال للحكايات القصصية عن القرون الخالية ، وشاهد على اهتمام المسلمين المبكر بالتاريخ السابق . وبجانب هذين المثالين عن عرب الجنوب ، وصلت الينا أيضا فى هذه الفترة أسماء رجال كانوا نسابين وعلماء فى الشعر والأخبار وأيام العرب (١) وقد أطلق عليهم اسم « علماء العرب » والذى اقتبس منهم الجاحظ فيما بعد ، بل أشاد ببعضهم مثل مخرمة بن نوفل ، وأبى الجهم بن حذيفة ، وحويطب بن عبد العزى ، وعقيل بن أبى طالب وجميعهم ألفوا أيضا فى الانساب ، وقد ذكر الجاحظ أربعة عشر عالما صنفوا كتبا فى الانساب(٢) معظمهم عاش قبيل الاسلام أو وقت ظهوره وأقدم هؤلاء هو سطيح الذئبى (ت ٥٢ ق.هـ) وكان عرافا حكيما ، وفى كل مرة توجد أسباب أخرى تدفعنا الى افتراض وجود كتب انساب فى ذلك الوقت ، وانه لم يكن يعتمد على الذاكرة فقط فى حفظ المعارف مثلما هو سائد (٣) .

ومما يؤسف له أنه لم يذكر اسماء الكتب المتداولة فى العصر الجاهلى ، ولكن نجد من موضوعاتها ما نقل عنها فيما بعد ، وكثيرا ما نجد فى مصادرنا أن هذا العالم أو ذاك ممن كان يقرأ الكتب القديمة أو يجمعها . وكان أحد هذه الكتب يضم أخبارا عن الكعبة أفاد منها المؤرخ الموسوعى وهب بن منبه (ت ١١٠ هـ) ، وتوضح لنا الأخبار المتعددة عند الأزرقى أن المكيين فى الجاهلية كانوا يعرفون لنقوش الكعبة أهميتها فى تاريخهم وأنهم استطاعوا فكها بمعونة يمنيين أو يهود أو رهبان نصارى (٤) .

ولم يخب اهتمام العرب بالتاريخ مع الاسلام الذى أوجد اتجاهات جديدة

(١) الطبرى : الرسل والملوك جـ ٢ ، ص ٢٧٤

(٢) الحيوان : جـ ٣ ، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ .

(٣) روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ، ص ٣٤ .

(٤) فؤاد سزكين ، مجلد ١ ، جـ ٢ ، ص ٢٧ .

بالتاريخ خاصة بعد أن توفرت المادة التاريخية فى حياة الرسول والاسلام ، وأيضا القصص التاريخى الذى جاء فى القرآن الكريم ، والذى دفع مفسرى القرآن الى الاهتمام بالمعلومات التى تخص هذا القصص ؛ وتدوينها فى شكل تاريخى ، فضلا عن أن القرآن قد ذكر معلومات تختلف عما هو موجود فى التوراة والانجيل المحرفين . ومما لا شك فيه أن تفسير القصص القرآنى يحتاج الى دقة متناهية ، وذلك لصحة ما جاء فيه ، وليكون التفسير فى مواجهة الزيف الذى أتى به اليهود والنصارى . وكل هـذا يستلزم قراءة الكتب وتدوين المعلومات السليمة التى توضح الصورة الصحيحة للمسلمين بل والعالمين أجمع .

ورغم كل ذلك فان التراث العربى الاسلامى فقد كتب كثيره لم تصل الينا الا عرضا فى مؤلفات أخرى مثل « أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » وكتاب « الأمثال » ومؤلفهما عبيد بن شرية الجرهمى ؛ و « كتاب الأمثال » تأليف صحار (١) ، وكتاب « المثالب » لزياد بن أبيه (ت ٥٣ هـ) . والأمل معقود على طبع ما لم يطبع من الكتب الاساسية التى وصلت الينا مثل كتابى ابن اسحق « أخبار كليب وجساس » وكتاب « حرب البسوس بين بكر وتغلب » وكتاب النسب لابن الكلبى (٢) .

ومما يروى عن الانتاج فى التراث فى الفترة التى نتحدث فيها أن أبو الجلد جبير بن (أبى) فروة — الذى كان عبد الله بن عباس يلجأ اليه فيما يعرض له من مشكلات لغوية — كان يوصف بأنه « صاحب كتب ، جماعة لأخبار الملاحم » (٣) وكان أبو الجلد يقول « قرأت فى الحكمة » و « قرأت فى مسألة داود » . وكان الوليد بن زيادة الجرهمى الذى عاش فى العصر الاموى عالما بأنساب العرب وأخبارهم وملوكهم ، وكان يمتاز بأنه « قد طالع فى كتبهم ونظر فى كتب هود وصالح وحنظلة » وكان بعض علماء الأنساب يستخدمون كتبا قديمة فى الانساب دونها العرب عن الحميريين ، وكانت هذه الكتب تسمى عادة باسم « الزبر » (٤) .

---

(١) وهو صحار بن العباس (أو عياش) بن شراحيل العبدى ، من بنى عبد القيس ، وكان صحابيا من أنصار عثمان بن عفان ، اشترك فى فتح مصر ، وشهد موقعة صفين فى صفوف معاوية بن أبى سفيان ، فؤاد شركين مجلد ١ ، جـ ٢ ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(٢) سزكين : المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٧ ، ص ١٦١ .

(٤) الهمدانى : الاكليل ، جـ ١ ، ص ٥ ، ٥١ .

ومن الكتب أيضا « كتاب نسب الانصار » هذا الكتاب الذى اعتاد كل من ابن سعد وعبد الله ابن محمد بن عمارة الانصارى النظر فيه ليتحققا من البيانات الخاصة بالأنصار ، وغالبا ما نجد عبارة « نظرنا فى كتاب الانصار فلم نجد نسبه فيه عليهما ، وأفاد ابن سعد من كتاب مجهول المؤلف بعنوان « كتاب نسب النبيط» فى الانساب » (١) ، وهناك « كتاب أشعار الأنصار » المؤلف فى عهد عمر بن الخطاب (٢) .

ومن مصادر الواقدى كتاب بخط مؤلفه الصحابى سهل بن أبى حثمة الانصارى ، وكان الكتاب فى حوزة حفيده أو حفيد حفيده محمد بن يحيى بن سهل . وسهل من متأخرى الصحابة ، وقد أخذ عنه فى « كتاب المغازى » نص الكتاب كله ، ولدينا قطع من هذا الكتاب فى مصادر أخرى مثل الطبرى بل ان أبناء سهل من بعده أسهموا فى رواية كتب المغازى ومنهم ابنه محمد ، وابن أخيه محمد بن سليمان ، وأبا بكر بن سليمان ، والأخير فى رأى الزهرى عالم قريش(٣)

وكذلك استخدم الواقدى كتابا من عصر الصحابة كان فى حوزة حفيد مؤلفه ، واسم الحفيد أبو عمرو بن حريث العزى . وكذا استخدم مؤلف عن حياة الرسول لصحابى اسمه « حميد » فضلا عن قطعة من مؤلف للصحابى العلاء ابن الحضرمى (٤) .

وكان كتاب الصحابى المشهور سعد بن عبادة (ت ١٥ هـ) عن سننى الرسول فى أحكامه موجود فى القرن الثانى بخط مؤلفه لدى حفيده « سعيد بن عمرو(٥)». كما ظل معروفا حتى القرن الثالث الهجرى (٦) .

وشهدت هذه الفترة ولادة أنواع من التأليف التاريخى وغير التاريخى ، فيروى الزهرى أن عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) قد أمر بحرق كتاب فى المغازى وجده بيد أحد أبنائه ، فقد كان أبنه يميل الى مطالعته أكثر من مطالعة

---

(١) الاصابة : جـ ١ ، ص ١٠٢ .
(٢) الاصبهانى : الاغانى ، جـ ٤ ، ص ١٤٠ — ١٤١ .
(٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ١ ، ص ٢٥٨ ، جـ ٣ ، ص ٢٩٠ .
(٤) ابن حجر : الاصابة ، جـ ١ ، ص ٧٣٤ ، جـ ٢ ، ص ١١٨٤ .
(٥) ابن حجر : الاصابة ، جـ ٢ ، ص ١٢٢٣ .
(٦) الترمذى : السنن ، جـ ١ ، ص ٢٥١ .

القرآن والسنن ، وكان نعيم بن عبد الرحمن الذهلى ممن يكتب فى الفتـــوح والمغازى ، واستعان بكتبه من بعده مثل الواقدى . وذكر الواقدى أيضا فى كتابه فتوح الشام أسماء لعلماء مشهورين كمصادر له ، وقال « كل حدث عن فتوح الشام ، وفى ترجمة الشعبى أن ابن عمر رآه فى المسجد « وهو يحدث بالمغازى » ، ومما يدل على أن المقصود بذلك كتاب الشعبى عبارة وردت فى موضع آخر وهى « وهو يقرأ المغازى » . ومن هذه الأمثلة أن كتب المغازى والفتوح ولدت فى هذه الفترة بل وكانت منتشرة : ثم زادت وتوسعت وتنوعت فيما بعد (٢) » .

وظهرت أيضا كتابات فى تاريخ الخلفـــاء ، ولم يصل الينا منهـــا الا بعض العناوين ، وأقدم كتاب نعرفه منها هو « كتاب الشورى ومقتل حسين » للشعبى حيث وصل الينا منه اقتباس هام فى شرح نهج البلاغة لأبى الحديد ثم جاء كتاب « أسنان الخلفاء » فيبدو أنه كان رسالة تاريخية مرتبة زمنيا حسب السنوات(٣).

وبدأت الاتجاهات فى هذه الفترة الى ترجمة الثقافات الأجنبية وخاصة فى الجوانب العملية ، أى بدأ الانتاج العلمى فى التراث العربى الاسلامى . ولم يصلنا للأسف عناوين من هذه المؤلفات زمن الراشدين ، بالرغم من انتشار فروعا منه فى أيامهم ، وهو الطب ، وكان أبناء الحارث بن كلدة طبيب العرب القديم يعيشون هذه الفترة ، ولكن يبدوا أنه لم يروا فى التأليف فى هذا الفرع الكثير ، وان كنا نرى أن هؤلاء الأطباء الصغار والتالين كانوا يستعينوا ببعض كتب هذه الفترة وما قبلها فى التطبيب ومداواة الناس خاصة وأن بعض هذه المعلومات كانت تنقل من الخارج ، من بلاد الفرس مثلا . فالحارث بن كلدة ممن ذهب وطب فى فارس وحصل على معلومات جديدة منها . وكل ما وصلنا أن رائد الترجمـــة كان خالد ابن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الأمـــوى ، الذى كان محبا لمجـــال العـــلوم وأبحاثها . فجمع من الترجمتين الذين كانوا فى خدمة والده وجـــده ويتحدثون بلغات أخرى اليه ، وعهد اليهم بترجمة أعمال يونانية ومصرية وسريانية وفارسية الى العربية ، وكانوا يقيمون فى الشـــام ومصر ، فحقق بذلك سلسلة الترجمـــة والحركة العلمية ، وظل مصرا على الترجمة الى العربية ليستفيد منها أبناء دولته

---

(١) سزكين : المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٢) الطبرى : الرسل والملوك ، جـ ٢ ، ص ٤٢٨ .

والمسلمين عامة ، فصار الأمر ميدانا علميا كبيرا يخدم العقيدة والدين ، اتجه اليه المسلمين والعرب[1] . بل وكان أول من أقام خزانة وأودع فيها ما نقله من العلوم، وما ألفه ، وأضاف اليها الأمويون الكتب التى نقلت لهم فكانت أساس بيوت الحكمة التى انشئت فيما بعد .

التراث فى القرن الثانى الهجرى

على أن الانطلاقة الكبرى فى تدوين المعلومات الاسلامية وتكوين التراث العربى الاسلامى بصورة أكبر خاصة فى الفقه والحديث . انما يرجع الفضل فيها الى أواخر القرن الأول الهجرى وبداية القرن الثانى ، وهى فترة حكم الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فبعد أن سمح بكتابة كتب الخراج عن كتب أخرى فقهية وأمر بكتابتها لتكوين بين يدى أهل العلم والدولة ، خاصة بعد فقد الكثير من الصحابة والتابعين والرواة الحفاظ فى حروب الجهاد ، وبذلك أزال الحرج عن كثير من الكتاب ، وبدأوا يسجلون ما يسمعون من الرواة وأصحاب العلم فى المسجد النبوى وغيره خاصة وأن مشاغل الفتوح الفتوحات وما نجم عنها دفع بالذاكرة الى مستوى أقل مما كانت عليه ، فضلا عن دخول الاسلام أقوام أخرى من البلاد المحررة ، ورغبتهم الشديدة فى تعلم اللغة العربية للاستعانة بها فى أمر دينهم ودنياهم .

ومما ساعد على هذه الانطلاقة الفتوحات الاسلامية لبلاد كثيرة فى الشرق والغرب ، هذه البلاد كانت لها وسائل من المواد الكتابية ــ التى يكتب ويسجل عليها . فمصر كان بها البردى الذى كان يصدر الى أجزاء كثيرة من العالم ، بل ان الخليفة عبد الملك بن مروان منع تصديره الى الدولة البيزنطية كوسيلة ضغط ، لما كانت له سوق كبيرة فى جبيل الواقعة شمال طرابلس الشام ، أى انتشر البردى فى الشام كمادة للكتابة عليها وظلت حتى الآن بعض الوثائق مكتوبة على ورق البردى ، وأبرز أهميات هذه المادة أن التزوير فيها يكتشف سريعا ، ولذلك فان وثائقه وكتاباته كانت أكثر صحة . واكتشفت وثائق مكتوبة على البردى سنوات ٥٤ هـ ، ٥٥ هـ ، وكذا منذ عهد عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ هـ ، وهكذا كانت دواوين وكتب الشام فى قراطيس ، وأن أقدم مخطوط كتب عليه قطعة كتاب وهب بن منبه المسمى « المغازى » وهى محفوظة حاليا مكتبة جامعة هايدلبرج

(1) هونكه : شمس العرب ، ص ٣٧٨ ــ ٣٧٩ .

فى ألمانيا الغربية ، وثم نسخ هذه النسخة سنة ٢٢٨ هـ(١) . واستعمل المسلمون الرقوق ، وشاع استعمالها فى المراسلات الخاصة والعامة حتى اخترع الورق زمن هارون الرشيد الذى أمر الناس ألا يكتب النـاس الا فى الكاغد لأن الجـلود تقبل المحو والاعادة .

ويؤكد ابن خلدون (٢) استعمال الجلود والرقوق فى أول عهود الاسلام فى الرسائل السلطانية وفى المؤلفات العلمية كما اسـتعملوا فى بداية القرن الثـانى الهجرى أيضا الورق الصيني ، وكان ينقل من الصين عن طريق التجـار العرب ومما لا شك فيه أن هناك بعض كتب التراث دونت عليه ؛ ويحيى بن يعمر أحـد تلاميذ أبى الأسود الدؤلى والذى توفى سنة ١٢٩ يؤكـد ذلك حيث يذكر أن المسلمين عرفوا الورق الصينى وأنه جلب اليهم ولكن استعماله كان ضيقا ، حتى أقيم أول مصنع للورق فى العالم الاسلامى فى سمرقند سنة ١٣٣ هـ . وكذلك أنتجت مصر نوعا من مادة الكتابة أشبه بمـادة المهرق أو الحرير الأبيض الذى يسقى بالصمغ ويصقل ، والذى كان يستعمله الروم ، ولكن المصريين فى أبو صير سمنود استعانوا بالكتان بدلا من الحرير . وظهر أيضا الورق الخراسانى فى هذه الفترة على مثال الورق الصينى .

وقد أسهم الخلفاء فى كتابة وتدوين وتكوين التراث ، والأمثلة عديدة نذكر منها المتقدمين ، فالوليد بن يزيد جمع على يد حماد ديوان يختص بنسب العرب . وهشام بن عبد الملك أمر البعض بكتابة أخبار الزهرى نقلا عنه ، وكتابة تاريخ الفرس .

وممن ألفوا كتبا فى هذه الفترة عروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ) الذى ألف فى المغازى واستعان به الطبرى فى كتابه التاريخى فيما بعد وابن اسحق من قبله الذى كان ينقل رواياته عن يزيد بن رومان مولى آل الزبير عن عروة . ونقل عنه يزيد ابن مالك ، عن الزهرى ؛ وعن عاصم بن عمر بن قتادة ، وعن عبد الله بن أبى بكر

---

(١) ونقل عنها البلاذرى فى فتوح البلدان ، جـ ٣ ، ص ٥٧٠ .
ـ ماكينس ، رس س : مقال الكتب والمكتبات العربية فى العهد الاموى .
(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٨٣ .
(٣) ابن النديم : الفهرست ، ص ٢١ .
ـ القلقشندى : جـ ٢ ، ص ٤٨٦ .

ابن محمد بن عمرو بن حزم ، وعن محمد بن كعب القرظى وعن غيرهم من العلماء ، وكل اجتمع حديثه فى الحديث عن غزوة الخندق ، وقال « وبعضهم يحدث مالا يحدث بعض (١) » ، وجميع من ذكر مما لا شك فيه أنهم كانوا من المؤلفين فى المغازى .

ومن معاصرى عروة من اضطلعوا بالتأليف فى المغازى وامتدوا الى موضوعات جديدة ظهرت فى كتب التراث وصارت مثلا فيما بعد سعد بن المسيب (ت ٩٤ هـ) والقاسم بن محمد بن أبى بكر (١٠٧ هـ) ، وأبا اسحق الهمدانى عمرو بن عبد الله (ت ١٢٧ هـ) . فقد شغلوا بموضوع « المبتدأ » (أى بتاريخ الخلق) وموضوع « الفتوح » ، وممن كتب فى الفتوح أيضا من جيل الرواد الشعبى عامر بن شراجيل (ت ١٠٣ هـ) وكانت له مكانة مرموقة . ويزيد بن أبى حبيب (ت ١٢٨ هـ) الذى كتب فى تاريخ مصر خاصة(٢) . ولكن ليس لدينا فى الوقت الحاضر — للأسف — معلومات دقيقة حول التابعى خراش بن اسماعيل الشيبانى الذى روى محمد بن السائب الكلبى كتابه فى « أخبار ربيعة وأنسابها » أو حول هانى بن المنذر الكلاعى الذى نسب اليه كتاب بعنوان «نسب حمير» استخدمه ابن يونس (ت٣٤٧ هـ) (٣).

على أننا حين نتكلم عن هؤلاء العلماء فى كتابة التاريخ ليس معنى ذلك أن مؤلفاتهم اقتصرت على ذلك فهم من رواد تسجيل الحديث النبوى والفقه مثل عروة بن الزبير والزهرى (ت ٥٠ ، أو ٥٦ ، أو ٥٧ ، أو ٥٨ هـ) ، ويزيد بن رومان مولى آل الزبير وعبد الله بن أبى بكر وأبوه وغيرهم .

وفى هذه الفترة — ان لم يكن الفترة السابقة — بدأت أبسط الدراسات اللغوية المتعلقة بالقرآن الكريم فور تدوين المصحف العثمانى . فهناك روايات تقول أن أبا الأسود الدؤلى (ت ٦٩ هـ) أول من قام بوضع علامات تدل على الحركات والتنوين وتم هذا بتكليف من زياد بن أبيه ، وأخرى تقول أن الذى قام به (نصر بن عاصم ت ٨٩ هـ) . وأما تحزيب القرآن أى تقسيمه الى أحزاب فيعد على الجملة من مآثر الحجاج بن يوسف وقد أدخل النحوى نصر بن عاصم

---

(١) الطبرى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٦٥ .
(٢) سزكين : المرجع السابق ، ص ٢٤ .
(٣) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٠٨ .
— ابن ماكولا : الاكمال ، جـ ٤ ، ص ٢٧٩ .

تسميات الأخماس والأعشار ، وأقدم كتاب فى تقسيم آيات القرآن هو كتاب « عواشر القرآن » لقتادة (ت ١١٨ هـ[1]) . وأقدم كتاب فى القطع والوصل هو كتاب عبد الله بن عامر « المقطوع والموصول » والف شيبه بن نصاح المدنى (ت ١٣٠ هـ) كتاب « الوقوف » وكتاب « الوقف والابتداء » . وأقدم كتب عد آيات القرآن كتاب « العدد » للحسن البصرى (ت ١١٠ هـ) ، وبنفس الاسم لكل من : عاصم الجحدرى (ت ١٢٨ هـ) وأبى عمر ويحيى بن الحارث الذمارى (ت ١٤٥ هـ) وألف الذمارى أى فى رسم المصحف ، أى فى هجاء القرآن [2] .

ومن الدراسات القرآنية التى ظهرت فى هذه الفترة تفسير القرآن الكريم ، ومن هذه الدراسات المتقدمة « التفسير » لمجاهد (ت ١٠٤ هـ) ، و « التفسير » لعطاء الخراسانى (ت ١٣٣ هـ) و « الناسخ والمنسوخ » وكتاب « التنزيل للزهرى » ؛ وكتاب مجاهد كان موضع التقدير لدى المفسرين اللاحقين . وهذه التفاسير كانت اعتمدت عليها مصادر أخرى منها وصلت لنا من خلال الكتابات اللاحقة مثل كتب « التفسير » لكل من محمد بن السائب الكلبى (ت ١٤٦ هـ) وسفيان الثورى ومقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) وغيرهم . ولعل أكثر أئمة المفسرين هو عبد الله بن عباس الذى حفظ له تلميذه كريب بن أبى مسلم (ت ٩٧هـ) حمل بعير من مؤلفاته ، وكانت لدى موسى بن عقبة أكثر من ذلك[3] بل وعاش فى هذه الفترة من تلاميذ ابن عباس ممن ألفوا فى التفسير مثل سعيد ابن جبير (ت ٩٥ هـ) والضحاك بن مزاحم (ت ١٥٠ هـ) ، وعطا بن رباح (ت ١١٤ هـ) .

وظهرت فى هذه الفترة أيضا دراسات جمع الحديث ؛ ولقد مر تطور كتب الحديث بالمراحل التالية :

(أ) كتابة الحديث فى عصر الصحابة وأوائل التابعين ، وتكتب فى كراريس أطلق عليها « صحيفة » أو جزء .

---

(١) الزبيدى : طبقات اللغويين ، ص ١٣ وما بعدها .
ـ ابى داود : كتاب المصاحف ، ص ١١٩ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ٥٣ ـ ٥٥ .
(٣) سزكين : التراث مجلد ١ ، ج ١ ، ص ٦٠.

(ب) تدوين الحديث : ورتبت الأحاديث فيها وفق مضمونها فى أبواب منذ سنة ١٢٥ هـ .

وفى نهاية القرن الثانى اتبعت طريقة جديدة لترتيب الأحاديث وفق أسماء الصحابة فى كتب المسانيد (١) ومن مؤلفات جمع الحديث وتصنيفه فى هذه الفترة كتب يحى بن كثير (ت ١٢٩ هـ) ، ويعمر بن راشد (ت ١٥٥ هـ) وهمام بن منبه (ت ١٣٠ هـ) غير ما سبق الاشارة اليهم .

وتعتبر الفترة التى ندرس تراثها هى بداية كتب الفقه المصنفة فى أبواب ، وان ألفت الكتب المصنفة فى الحديث فى الربع الثانى من القرن الثانى للهجرة وهنالك نص لابن قيم الجوزية يقول ان فتاوى الزهرى كانت فى ثلاث أسفار ، وأن فتاوى الحسن البصرى كانت فى سبعة أسفار . وأقدم كتاب نعرفه فى الفقه لمكحول بن شهاب (ت ١١٦ هـ) . ومن الكتب التى وصلتنا من هذه الفترة للكتاب المنسوب لسليم بن قيس الهلالى الذى كان يعيش زمن الحجاج ، و « كتاب المناسك » لقتادة بن دعامة (ت ١١٨ هـ) ، وكتاب « مناسك الحج وآدابه » لزيد بن على (ت ١٢٢ هـ) (٢) هذا خلاف صحف الفقهاء الذين عاشوا فى القرن الأول .

ولقد أدرك الذهبى عبارة توضح مدى التطور والتنوع فى التأليف الذى ظهر فى القرن الثانى للهجرة فهو يقول « فى سنة ٤٣ (ومائة) شرع علماء الاسلام فى هذا العصر فى تدوين الحديث والفقه والتفسير ، فصنف ابن جريج فى مكة ، ومالك (ابن أنس) الموطأ بالمدينة ، والأوزاعى بالشام ، وابن أبى عروبة وحماد ابن سلمة وغيرهما بالبصرة ، ومعمر باليمن ، وسفيان بالكوفة . وصنف ابن اسحق المغازى ، وصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأى .. وكثر تدوين العلم وتبويبه . ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم ، أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرئية » (٣) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .
(٢) سزكين : التراث ، مجلد ١ ، جـ ٣ ، ص ١٠ .
(٣) الذهبى : تذكرة الحفاظ ، جـ ١ ، ص ٢٢٩ .
ـ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ٣٥١ .

والباحث المدقق فى عبارة الذهبى عليه أن يلاحظ ما يلى :

أولا — أنه يقصد تدوين الحديث والفقه والتفسير والتاريخ ، بصورة مصنفة وفقا للموضوعات الجديدة التى توصل اليها العلماء المسلمون . والتصنيف بدأ من هذا القرن (الثانى) .

ثانيا — بالرجوع الى ما سبق الاشارة اليه من تاريخ وفاة العلماء نجد أنهم جميعا توفوا فى القرن الثانى وان كان ما سبق ذكره عن النصف الأول من القرن الثانى الا أن النصف الثانى كان أكثر تصنيفا وتحديدا وغزارة فى الانتاج .

بل وفات الذهبى أن يذكر أيضا فى هذه العبارة الكتب العلمية والمترجمة عن أصول غير عربية ودور علماء المسلمين فى التقدم العلمى الذى خطا خطوات واسعة بتشجيع من خلفاء الدولة العباسية بداية من المنصور الى المأمون . وكل له دوره الكبير فى تشجيع علماء المسلمين .

ثالثا — أن هناك تدوين سبق هذا القرن ولكنه كان فى صحف غير مرتبة ، وأن فكرة التبويب والتصنيف ظهرت فى هذا القرن ، وهذا أمر طبيعى ومراحل متتالية للتطور فعادة يبدأ التدوين ويأتى التبويب فى مرحلة تالية بصورة أكثر دقة وتصنيفا .

رابعا — أن أئمة بداية هذا القرن أو ما قبله بقليل كانوا يعتمدون فى حفظهم ورواياتهم على مدونات أى صحف وأكد أنها صحيحة ، أى أن الرواية أو الحفظ على سند صحيح ومكتوب ، ويروى سفيان بن عيينه أن زهير بن معاوية الجعفى (ت ١٧٣ هـ) قال له أخرج كتبك ، فقلت « أنا أحفظ من كتبى » وأن سفيان هذا (ت ١٠٧ — ٢٩٦ هـ) أهدى كتاب على بن زيد بن عبد الله بن جدعان (ت ١٢٧ هـ) الى أحد الأئمة بعد أن حفظه تماما [١] وأن الامام مالك يوصف بأنه « صاحب كتاب وصاحب حفظ » على عكس الكتب الذين لا يحفظون كتبهم .

خامسا — أن التأليف والبحث ودراسة العلم انتشر فى سائر بلدان الخلافة الاسلامية المشرقية منها أو المغربية فضلا عن الحجاز والجزيرة العربية وعاصمة الدولة .

---

(١) ابن حجر : التهذيب ، جـ ٧ ، ص ٣٢٣ .

سادسا ــ أن كثرة التدوين فى البحوث العلمية الاسلامية والدنيوية الانسانية فرضت نفسها على الحياة الأسلامية منذ هذا القرن والأمثلة سبق الاشارة اليها .

سابعا ــ أن الأسانيد فى كتب مصطلح الحديث أو غيره لا تشير بحال من الأحوال الى مرويات شفوية بل تذكر مؤلفى الكتب ورواتها الثقات بأسمائهم ، أن مؤلفى الكتب يعتبرون من الأسانيد .

وتمضى حركة التأليف فى نشاط منطلق فى هذا القرن ، ويتطور العلم . مما يجعلنا ويجعل الدارسين مشدوهين أمام المستوى الذى بدأ العلم يظهر عليه ، وهذا المستوى نتيجة أن العلم استمر فى الدراسة والجدية فى التأليف ، وبدأ بعض المؤلفين يؤلفون بمئات الكتب فى سائر أنواع العلم ، وبدأت الدراسة العملية فى علومها تتقدم بسرعة مذهلة لم تكن متوقعة .

ففى القراءات حاول العلماء الجمع بين قراءات مختلفة ، فنشأ نظام القراءات السبع الصحيحة من جمع قراءات كاملة ، ويعتبر أبو بكر بن مجاهد بمؤلفه « السبعة » مؤسس هذا النظام . وقد اقتصر أبو بكر بن مجاهد فى كتاب السبعة على القراءات التالية [1] : وهم عبد الله بن عامر (ت ١١٨ هـ) ، وابن كثير المكى (ت ١٣٠ هـ) ، وعاصم وعاصم الكوفى (ت ١٢٧ هـ) ، وأبو عمرو بن العلاء البصرى (ت ١٤٥ هـ) ، وحمزة الكوفى (ت ١٥٦ هـ) ، ونافع المدنى (١٦٩ هـ) ، والكسائى الكوفى (ت ٨١٩ هـ) ، ثم أضيف اليهم ثلاث آخرون وظهرت « القراءات العشر » وأضيف بعدهم أربعة آخرون وبهذا ظهر نظام القراءات الأربع العشرة » .

ولكل من هؤلاء مؤلفات وآثار علمية فى القراءات والحديث والفقه ، منها ما حقق ومنها ما زال مخطوطا ، ومنها ما ورد فى كتب الآخرين . فمثلا حمزة الكوفى له كتابين : « كتاب القراءة » و « كتاب الفرائض » ونافع المدنى له كتاب « القراءة » مازال مخطوطا ومحفوظا بالمكتبة الظاهرية بدمشق .

---

(١) سزكين : مجلد ١ ، ج ١ ، ص ٣٠ ــ ٣١ .
وتوجد أكثر من نسخة هذا المجلد محفوظة بمكتبة تشيستر تربيتى فى دبلن وعنوانها « اختلاف قراء الامصار » . وقد حقق الدكتور شوقى ضيف هذا الكتاب بعنوان « كتاب السبعة » بالقاهرة عن دار المعارف .

أما فى علم الحديث ، فازداد الاعتماد على كتب السابقين وأضيف اليها وعلى سبيل المثال ما ذكره يحيى بن سعيد (ت ١٩٨ هـ) بأن سعيد بن عروبة (ت ١٥٦هـ) لم يسمع التفسير عن قتادة ، وروايته اذا عن كتاب ، وذكر بن جريج (ت١٥٠هـ) بأنه لم يسمع من الزهرى ، فقد اعطاه كتابا نسخه فأجازه الزهرى روايته (١) ، وقد وصى أحمد بن حنبل بكتب وكيع (٩١٦ هـ) : « عليكم بمصنفات وكيع » (٢) . أى أن أسانيد الكتب هى أساسا كتب سابقة ، ويعتبر البخارى (محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغير البخارى الجعفى ت ١٩٤ هـ) من أبرز الذين عملوا فى الحديث فى القرن الثانى للهجرة وتقوم شهرته على كتابه « الجامع الصحيح » الذى يأخذ المكانة الأولى بين كتب السنة المخصصة لأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم . وسنته ، وقدشرح فيما بعد من مؤلفين اسلاميين عدة .

وبدأ الحديث فى هذا القرن يأخذ الترتيب المنهجى ، وتحمل الكتب التى تتناوله « مصنف » أو « سنن » و « موطأ » و « جامع » ، ومن المرجح أنهذه الكتب تضم مجموع الأحاديث التى لم تتناولها كتب الفقه أو جزء كبير منها (٣) .

وذهب الفقه مجالا أوسع وتنوعا أرحب فى التراث ، وكان ذلك نتيجة ظهور « المذاهب » الأربعة : الحنفى ، والمالكى ، والشافعى ، والحنبلى .

والحنفى نسبة الى أبى حنيفة النعمان بن ثابت ، وهو مؤسس المذهب ، ولكن لم يتأكد بعد عن نسبة مؤلفات له ، ولكن الذين اعتنقوا مذهبه كثيرين ، وقد صنفوا ودرسوا عنه ودونوا ذلك فى كتب وصلت بعضها الينا ، وبعضها لم يصل ، ولكنه أبرز آثاره « الفقه الأكبر » الذى رواه أحد تلاميذه وكان للمذهب معتنقين فى كثير من الامصار وخاصة الشرقية ومنهم أبو يوسف صاحب كتاب « الخراج » . وكتاب « أدب القاضى » وكتاب « الطائف » ومن تلاميذه أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيبانى (ت ١٨٩ هـ) ، وله كتاب « المبسوط » أو كتاب « الأصل فى الفروع » وما زال مخطوطا وغيرها مثل كتب « الزيادات » و « الجامع الكبير » وهو كتاب فقهى فى الفروع ما زال منه بعض الورق .

(١) الذهبى : تذكرة الحفاظ ، ص ١٧٠ .
(٢) ابن حجر : التهذيب ، ج ١١ ، ص ١٢٦ .
(٣) سزكين : المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

وما زالت مخطوطة ولكن هناك نسخة منه طبعت بالقاهرة سنة ١٣٥٦ هـ ، ونشر فى نفس العام بحيدر آباد نسخة منه (١) . ومن تلميذهما وعلى عقيدتهما الجوزجانى أبو سليمان موسى بن سليمان (ت ٢٠٠ هـ) وله كتاب « النوادر » وهـو فى الفقه ، وكان اللؤلوى أبو على الحسن بن زياد (ت ٢٠٤ هـ) من تلاميذ أبو حنيفة من المتحمسين للدفاع عن مـذهبه فى « الرأى » وله كتاب « مسند أبو حنيفة » واستمر التأليف فى هـذا الفقه طالمـا كان للتراث الاسلامى انتـاج .

والفقه المالكى نسبة للامام أبو عبد الله ، مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر ، وكان من شيوخه « ربيعة بن فروخ (ت ١٣٦ هـ) » والذى كان يعـلم الفقـه على أساس الرأى ، وأهم تعاليم مالك التى تظهـر فى موطئه الاعتراف « بالعمل » أى بما هو معمول به فى المدينة ، وبجانب ما يأتى « الحديث » مصدرا للاستدلال الفقهى ، ومن أبرز آثاره فى التراث كتاب « الموطأ » وهو كتاب حديث وكتاب فقه ، ويقال ان أول نسخة منه كانت تضم ٩٠٠٠ حديث وأنه اختصره عدة مرات وكتاب « مسائل وأجوبتها » رواية عبد الله بن الحكم (ت ٢١٤ هـ) وما زال مخطوطا بمكتبة الاسكندرية ومن تلاميذه أبو القاسم العتقى (ت١٩١هـ) ومن آثاره فى التراث « المدونة » الذى رواه تلميذه أسد بن الفرات (ت٢١٣ هـ) وأبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم الفهرى القرشى (ت ١٩٧ هـ) وهو من مصر واطلق عليه الامام مالك فقيه مصر ومن كتبه « الجامع فى الحديث » المكتوب على بردية عثر عليها فى ادفو ، وكتاب « التنسير » و«الموطأ الكبير» ، وممن درس عليه أبو محمد عبد الله بن الحكم المؤرخ المصرى والفقيه (ت ٢١٤ هـ) وله كتاب « المختصر الكبير فى الفقه » الذى يعتبر مصدرا أساسيا عند مالكية العراق ، و « سيرة عمر بن عبد العزيز » التى وصلت الينا بتهذيب ابنه أبو عبد الله محمد (ت ٢٦٨ هـ) ومن أعظم فقهاء المدرسة المالكية أبو مروان عبد الملك بن حبيب ابن سليمان السلمى القرطبى (ت ٢٣٨ هـ) وهو ضمن مؤرخى الأندلس وله فى الفقه المالكى كتب كثيرة ووصل الينا منها قسم صغير من كتاب « الواضحة فى

---

(١) سزكين : تاريخ التراث ، مجلد ١ ، جـ ٣ ، ص ٥٩ .

السنن والفقه » وكتاب « الغاية والنهاية » ، وأيضا عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي ، الملقب بسحنون (1) لشدته فى المسائل وهو أندلسى (ت ١٨٣ هـ) وأهم كتبه « المدونة الكبرى » والذى ما زال مخطوطا .

والفقه الشافعى نسبة الى أبو عبد الله ، محمد بن ادريس بن العباس الشافعى ، أصله من قريش ، ويمت بصلة القربى الى النبى صلى الله عليه وسلم وسافر الى الامام مالك وأعجب به وأبقاه معه حتى توفى ، وهاجر الشافعى الى مصر وجعلها مقامه حتى توفى (ت ٢٠٤ هـ) ، وعد الشافعى مؤسسا لمذهب جديد وكان يجمع بين مذاهب « الرأى » عند أبى حنيفة ، ومذهب أهل الحديث عند مالك ويعد الشافعى مؤسس علم « أصول الفقه » وأعطى للرأى مجاله فى حدود معينة يتمسك بمبدأ القياس ، وتبلغ مؤلفاته بين ١١٣ ـ ١٤٠ كتابا ذكرها ابن النديم ١٠٩ كتابا وأهم كتبه ما جمعه عنه بعد وفاته تلاميذه وهو كتاب « الأم » ومن كتبه « السنن المأثورة » برواية اسماعيل بن يحيى المزنى (ت ٢٦٤ هـ) الذى ما زال مخطوطا ، وكتاب « الرسالة » فى أصول الفقه وغيرها ومن تلاميذه الذى وصفه الشافعى أنه « لسانه » أبو يعقوب يوسف بن يحيى القرشى البويطى (ت ٤٣١ هـ) . والذى أصبح أول خليفة للشافعى بعد موته ، وجمع جزء كبير من كتبه ، وله كتب لم يصلنا منها شيء ، وأيضا أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى بن اسماعيل المزنى (ت ٢٦٤ هـ) وان كانت له وجهات نظر تختلف مع أستاذه وله كتاب « المختصر » ولم تصلنا منه الا أوراق ما زالت مخطوطة ، ويرى النووى أن هذا الكتاب أحد الكتب الخمسة الأصول لمذهب الشافعى . واستمر التصنيف فى الفقه الشافعى لعلماء الشافعية فيما بعد .

والمذهب الحنبلى نسبة للامام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل من شيبان ، له رحلات علمية طويلة وكان يدين بثقافته الى شيوخه فى كل من الحجاز وبغداد (ت ٢٤١ هـ) . وهو مؤسس المذهب الرابع فى الفقه السنى ، وهومذهب يفضله أهل الحديث ، ويستنبط الأحكام من القرآن والسنة ، ولا يعتمد على الرأى الا فى حالات الضرورة ، ورأيه مدون فى مؤلفه « كتاب السنة » وأبرز

---

(1) المرجع السابق ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، ١٤٢ ، ١٤٨ .
سحنون : اسم طائر شديد .

آثاره من المصنفات « المسند » الذى يضم حوالى ٢٨٠٠ ـ ٩٢٠٠٠ حديثا ، وكتاب « السنة » وكتاب « الصلاة » وكتاب « الورع والايمـان » ، وكتاب « الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله » وكتب أخـرى متعددة . ومعظم مؤلفات تلاميـذه فى القرن الثـالث الهجرى (١) .

ومذهب الأوزاعى ظهر فى القرن الثـانى للهجرة وينتسـب الى أبا عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعى ، أخذ العلم من أمصار عديدة ، وأجل وأكثر شيوخه أثرا فيه مكحول الدمشقى ، وظل أهل الشام يعملون بمذهبه حتى اضمحل أمام المذهب الشافعى فى القرن الثالث الهجرى . وهنـالك كتب ما زالت مخطوطة ومنها ما طبع ، وكان أبرز تلاميذه الهقل بن زياد الفقيه ، وكان الهقل تلميذا له ولم يكن بالشام أوثق منه بالحديث ، ولا أعلم منـه بمذهب الأوزاعى وفتياه وكذا أبو العباس الوليد بن مسلم (ت ١٩٤ هـ) وله تصانيف فى الحديث بلغت السبعين كتابا(٢) .

هذا فضلا عما صدر فى هذا القرن من مؤلفات فقهاء آخرون فى السـنة آسسوا مدارس فقهية ولكنها لم تعمر طويلا مثل سفيان الثورى (ت ١٦١ هـ) ، والليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ) وغيرهم .

ويضاف الى تراث هذا القرن فقه فرق الشيعة المختلفة من الامامية ، وزيديه ، واسماعيلية ، وقرامطة ، وفقه الأباضية من الخوارج .

فاذا انتقلنا الى التاريخ ، فنجد أن رجال التاريخ فى القرن الثـانى للهجرة واعتبارا من النصف الأخير من القرن الأول كانت تعتمد على كتب قديمة وخاصة ما يتصل بالقصص القرآنى مثل كتب عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ومن اليهود الذين أسلموا ففى كتب المغازى عددا كبيرا من الآراء التى رويت علمهم ، بل وكان كعب نفسه صاحب كتب عرفها العلماء الأوائل(٣) ، ويبـدو أنه كان ، لتنوع معارفه ، حجة ومصدرا للمسلمين الأوائل الراغبين فى مزيد من المعرفة(٤) ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٥ وما بعدها .
(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٣١٠ .
ـ الذهبى : العبر ، جـ ١ ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .
(٣) الهمدانى : الاكليل جـ ١ ، ص ٢٣ .
(٤) سزكين : تاريخ التراث مجلد ١ ، جـ ٢ .

وكان أحد هذه الكتب يضم أخبارا عن الكعبة ، أفاد منها الجيل الثانى من المؤرخين الموسوعيين مثل وهب بن منبه (ت ١١٠ هـ) وهو الذى قدم الينا « كتاب الملوك » لتدوين تاريخ دولة عربية ، وكان روى أن وهبا كان يضم فى كتابه كتب أسلافه .

وظهر بذرة تاريخ العالم أو ما سمى فيما بعد بالتاريخ العالمى ، وهو استعراض لتاريخ خلق العالم وحول الأنبياء والعالم القديم وأهل الكتاب والفرس وعرب الجاهلية ، يتلوه تاريخ صدر الاسلام(١) ويتضمن سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وما فى ذلك من فتوحات ، وهناك كتاب مبكر فى « المغازى » بصورة جديدة يتألف من أجزاء ثلاثة هى المبتدأ ، والمبعث ، والمغازى ، ثم كتبا حول الحوادث السياسية المختلفة فى الدولة الأموية . ثم تأليف التاريخ العام ويعنى عرض كل الحوادث عرضا شاملا ، وأبرز كتب الفترة « كتاب التاريخ » ، و « كتاب سيرة معاوية وبنى أمية » لعوانة بن الحكم (ت ١٤٧ هـ) ، وأيضا « خبر المختار وابن زيادة » ، و « مقتل الحسين » وكتاب « صفين » لأبى مخنف الذى كان يهتم بالخوارج والثورات الشيعية وكذا « كتاب الفتوح الكبير والردة» لسيف بن عمر توفى فى عصر الرشيد(٢) .

أى ان القرن الثانى من بدايته الى نهايته شهد غزارة وتنوعا فى الكتابة التاريخية ، التى دخلت فى مرحلة أكثر تطورا ، بعد أن وضع لها الكتاب السابقين بعض الأسس الهامة . فضلا عن الاتجاه الجديد الذى ظهر فى الكتابة العلمية فى كتب التراث وهو التفسير والتحليل والنقد والتعليل ، أى بدأت تظهر بما يعرف بالمنهج العلمى والفلسفة العلمية للعلوم ، وان كان ذلك بشكل أولى وبسيط . بالاضافة الى أمر هام وهو قيام عملية الترجمة من اللغات الأخرى الى اللغة العربية . ويمكننا أن نستخلص من الاتجاه الجديد أنه تأثر بأسلوب الرواية فى علم الحديث ، وتفاعل فكرى مع الأحداث . لذلك خرجت كميات هائلة من المؤلفات والمصنفات ، تتناول كثير منها موضوعات جديدة لم يسبق دراستها ، وتعتبر مادة أساسية فى مراحل وتطوير التأليف التراثى ، ومن ثم تطور التراث العربى الاسلامى وتنوعه .

(١) روزنتال : علم التاريخ ، ص ١٨٣ — ١٨٤ .
(٢) سزكين : المرجع السابق ، ص ١٢٠ ، ١٣٤ .

ومما يؤسف له أن بعض المصنفين والمؤلفين كان يجنح الى ناحية المذهب السياسى الذى كان مقتنعا به ، وخاصة بعد ظهور الشعوبية أيضا ، ولكن ذلك أدي الى تعدد المؤلفات حتى صار للبعض عشرات الكتب المؤلفة ، بل ان أبو عبيدة عمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ) وهو من أئمة العلم والأدب واللغة له نحو مائتى (٢٠٠) مؤلف ، وكان أباضيا وشعوبيا .

وبدأ فى نهاية القرن ظهور ما يمكن أن نقول عليه تجاوزا الموسـوعات ، فكانت كتب محمد بن عمر الواقدى (ت ٢٠٧ هـ) على سبيل المثال من الموسوعات التاريخية ، وتجمعت عدة عوامل لتجعله مؤلفا موسوعيا ، فقد كان شغوفا بجمع المعارف المنتشرة فى عصره ، فنسخ جميع الكتب التى أمكنه الحصـول عليها ، ويروى أنه خلف ــ بعد وفاته ــ ستمائة قمطر كتب من نسخ غلامين مملوكين كانا يكتبان الليل والنهار . ولم يبخل فى شراء الكتب حتى انه اشترى كتبا بألفى دينار . وظل متبعا أسلوب الحديث فى جمع الروايات من الرواة ، واهتم بالأبعاد الأخرى التى لها صلة بمادته مثل البعد الجغرافى ، فضلا عن أنه كان مهتما بالاطلاع على كتابات من تقدمه ، ويركز على النصوص الأصلية .

وما يمكن أن يقال عن الواقدى يعمم على جزء كبير من العلماء المعاصرين له واللاحقين أيضا ، فكانوا يبذلون كل غالى ورخيص فى سـبيل حصـولهم على المعلومات الدقيقة التى يسطرونها فى مؤلفاتهم ومصنفاتهم ، وينقدونها نقدا علميا ، بل كثيرا ما كانوا يعدلون من نظرياتها ويسهمون فى تطورها ، ويقدمون كل ذلك خدمة للاسلام والعلم والانسانية .

وانتهى القرن الثانى للهجرة مقدما تطورات هامة فى تكوين التراث العربى الاسـلامى ، ومنها (٢) :

١ ــ وضع معالم الأبواب الأساسية للعلوم الاسـلامية والتاريخ الاسـلامى والعلوم الأخرى أى لمواد وكتب التراث العربى الاسلامى .

٢ ــ الاهتمام الدقيق بتحديد مواد ومحتويات الكتب ، بعد دراستها وتطويرها.

٣ ــ الاهتمام بالبعد الجغرافى للحادثة التاريخية ، والأبعاد المتخصصة للنتائج العلمية ، وهذا الاهتمام القائم على المعاينة والدقة والتجربة .

(١) حسين سليمان : المدخل الى علم التاريخ ، ص ١٥٢ .

٤ ـ ظهور الترجمات من اللغات الأجنبية كالفارسية والسريانية واليونانية الى العربيــة .

٥ ـ ظهور الأفكار الرئيسية وبعض المؤلفات فى الطبقات كنوع جديد من أنواع التأليف العلمى الدقيق .

ويعتبر ظهور الطبقات وتصنيف الكتب فيها تكملة غنية للعلوم الاسـلامية حيث تتضمن ترجمات للصحابة والعلماء من الرجال والنساء الذين اشتركوا فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم العامة والخاصة ، أو الذين رووا الحديث ، وكذلك العلماء أصحاب الدراسة فى علم معين ، أو أصحاب مذهب واحـد ... أو غيرهم .

على أى فانه يمكننا أن نوافق ارجاعه الى عدة عوامل أخرى ، موافقين فى القرن الثـانى وبداية القرن الثـالث الهجـرى ظهرت بعض الكتب تحت لفظ (النوادر) ؛ وألف فيها الكثير من العلماء حتى أن ابن النديم قد ذكر فى مكان واحد اثنان وعشرين كتابا بعنوان (النوادر) . ويدل العنوان على جمع حوادث وأفكار فى التنوع والطرافة ، وان دل ذلك فانه يدل على فصل الموضوعات بعضها عن بعض ، والتنوع فى التأليف .

وينشط التأليف بوجه عام بوفرة مع بداية القرن الثالث الهجرى ، مما أدهش الباحثين المحدثين ، وتضيف بعضهم هذا الأمر بأنه كان « قدرا عظيما من المـاء محجوزا ثم انطلق فجأة » وظهرت الدراسات فى محاولة لحصر العوامل التى أدت الى ذلك ، فنسبها البعض الن حافر تولد من ارتفاع الثقافة المادية ، ومن استحداث الورق والذى بنى له أول مصنع ببغداد سنة ١٧٨(١) . ويشبه آخر هذا الاختراع، باختراع الطباعة فى عصر النهضة ، حيث أن كليهما وسياة من الوسائل لتخفيض تكاليف الانتاج(٢) .

أى فاننا يمكننا أن نوافق ارجاعه الى عدة عوامل أخرى ، موافقين فى ذلك ذلك على جزء من آراء أحد الباحثين المحدثين العرب (٣) .

---

(١) جب : المرجع السابق ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ .
(٢) مارجليوث : مقال المؤرخين العرب ـ العدد ٧٣ من دائرة معارف الشعب ، ص ٥٢٣ .
(٣) ليلى الصباغ : فى منهجية التاريخ ص ٣٨ .

١ ـــ دراسة المحدثين والعلماء وسعيهم لتنقية الحديث ومواد العلوم الاسلامية منها والعملية ، وابراز الصحيح .

٢ ـــ أبحاث فقهاء اللغة العربية للوصول الى الكلمات العربية الأصيلة ، ولفظها الصحيح الذى يؤدى الى المعنى المطلوب والدقيق ، وخاصة فى العلوم الجديدة ، وهذا ما يؤديه مجامع اللغة العربية الحالية .

٣ ـــ الفتوحات العربية وما نجم عنها من احتكاك بشعوب مختلفة لها حضارتها .

٤ ـــ حاجة المسلمين للمعرفة وهى رغبة دينية وثقافية . وهذا بدوره أدى الى ظهور فئة من البحاثة ذوو الحماسة الدراسة العلمية البحتة واستقصاء المعلومات الصحيحة الدقيقة .

٥ ـــ انتشار حركة الترجمة عن اللغات الأجنبية .

٦ ـــ تكامل اطر الدولة العربية الاسلامية ، واستقرار دواوينها .

٧ ـــ التنافس والصراع السياسى والأدبى بين العرب والموالى ونمو الشعوبية ، فضلا عن التنافس بين الدويلات الاسلامية فى محاولة اجتذاب العلماء ومساعدتهم ماديا وأدبيا .

٨ ـــ ظهور تقنيات الكتابة ، وتوافر وسائل التدوين كالورق .

التراث فى القرن الثانى الهجرى

على أن المؤرخين من نهاية القرن الثانى للهجرة وبعده ، وخاصة الكبار منهم أمثال الطبرى والمسعودى والمقريزى وابن خلدون وغيرهم ــ رغم أخطاء بعضهم ــ متشابهون تقريبا فى طريقة تفكيرهم وفى منهجهم العلمى . فهم ينقلون من كتب من ألف قبلهم ، ويروون عن أناس وضعوا فيهم ثقتهم ، ويسجلون مشاهداتهم ، ويرعون فى ذلك كله أمانة النقل والرواية ، وصدق التسجيل . وهذه شروط أساسية فى البحث العلمى[1] .

ونخلص من ذلك كله ان الحقائق التى تطالعنا ونحن ندرس تطور التراث العربى الاسلامى هى أن المجتمع الاسلامى دخل مرحلة الوعى العلمى ، مؤلفين وقراء ، رواة ودارسين وباحثى ثقافة بالاضافة الى أن جل العلماء كانوا من الفقهاء والمحدثين ، وهذا يؤكد أن سبب الوعى كان أعمق ، فالنظرة الدينية ترى أن العلم

---

(١) د. حسن الساعاتى : المنهج العلمى فى مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٠٨ من أعمال مهرجان ابن خلدون .

صورة التجلى للفعل الالهى فى توجيه البشر ، ولذلك كانت الدراسات تتمه لدراسة التفسير القرآنى والحديث النبوى (١) .

* * *

ومن العلوم التى أخذت دورها أيضا العلوم العملية الانسانية البحتة ، وظهر فى العلماء علماء ترجموا وألفوا ، اقتبسوا ثم صححوا وأضافوا اليها من أبناء الدولة الاسلامية سواء كانوا مسلمين أو أهل كتاب مثل جرجيس بن جبريل بن بختشيوع النسطورى ، وحفيده من بعده ، وأبى يحيى البطريق وابنه يحيى ، ويعقوب بن طاق ، ومحمد بن ابراهيم الفزارى وكان أبوه فلكيا كتب ونظم فى الفلك . ومعظم هؤلاء كتب فى الطب وترجمات أطباء اليونان والأخيرين كانا من علماء الفلك الذين نقلوه عن الهند لمعرفتهم باللغة السنسكريتية ، ولعل على الطبرى ألمع هؤلاء العلماء المسلمين وكان أبوه فلكى فارسى وهو الربان سهل الطبرى(٢). ولكل منهم عشرات الكتب التى أوردها ابن النديم .

فمثلا : الرياضيات : ظهرت فى أواخر القرن الثانى فى التراث العربى ولكنها برزت فى القرن الثالث الهجرى تراجمة وأوائل فى التصنيف مثل أبى كامل شجاع ابن أسلم الحاسب المصرى ومن جاء بعدهم أضافوا الى ما سبق أن ترجموه أعمال أخرى ظلت حتى الآن يستخدمها العلماء . ويعتبر محمد بن موسى الخوارزمى ممن برز فى هذا المجال بل وأول من ابتكر الفكر الرياضى بايجاد نظام التحليل لكل معادلات الدرجة الأولى والثانية ذوات المجهول الواحد بطرق جبرية وهندسية . كما ابتكر حساب « اللوغاريتمات » وله أكثر من خمسة وعشرون كتابا فى هذا المجال ومنهم « كتاب الحساب والهندسة والموسيقى والفلك » ، و « كتاب الجبر والمقابلة » وغيرهما (٣) . وكذا فى علوم الكيمياء والنبات الذى كان يدرس فى صدر الاسلام مع اللغة العربية وآدابها .

والحقيقة أن للخلفاء المسلمين الفضل الكبير فى الانتاج الغزير للتراث الاسلامى فى شتى المجالات العلمية والعملية ، فقد قاموا بتشجيعهم والانفاق على العلوم ، وانشاء دور الحكمة وغيرها . ومن الأمثلة على ذلك أن المهدى العباسى اول من سن المكافأة للعلماء على مؤلفاتهم وأكثر منها مما جعل العلماء يشدون اليه

(١) جب المرجع السابق ، ص ٥٣ .
(٢) عمر رضا كحاله : العلوم البحتة فى العصور الاسلامية ، ص ٤ وما بعدها دمشق ١٩٧٢/١٣٩٢
(٣) على الدفاع : الموجز فى التراث ص ٩٤ .

الرحال مؤلفين ومترجمين من كل بلد . وكان المنصور قد سبقه فى الاهتمام بترجمة كتب الفلك والطب والهندسة . وتوسع هارون الرشيد فأضاف الأدب والفن وزاد من أمر الترجمة ، بل وأسس دار تسمى بيت الحكمة ببغداد ، جمع فيها الكتب المؤلفة والمترجمة وأغدق على أصحاب المؤلفات فشجع أصحاب العلم الى السير قدما ، ويقال أنه وصل الأصمعى يوما بمائة ألف درهم ، وكان الأصمعى محظوظا أيضا لدى البرامكة . وكان المأمون سحابة منهله على العلماء والمتكلمين واعطى النضر بن شميل — وهو لا يزال أمير بمرو — خمسين ألف درهم ، وعندما أصبح خليفة توسع فى هذا الأمر ، والحق ببيت الحكمة عددا كبيرا من أشهر علماء عصره ، وأصبحت مركزا للترجمة والنسخ والتأليف والمطالعة ، وكان يجتمع فيها المؤلفون للاطلاع على المصادر التى يريدون مراجعتها ، والمترجمون يجتمعون للقيام بالترجمة السليمة ثم بين أيديهم جميعا الكتاب الخدمة ليكتبوا ما يملى عليهم والنساخ للنسخ فى أماكن خاصة بهم ، ومما يروى أن المأمون طلب من الفراء أن يصنف كتابا تجمع به أصول النحو ، وما سمع من العرب ، وأمر أن تفرد له حجرة ، ووكل بها جوارى وخدم للقيام بما يحتاج اليه ، وصير له الوراقين يكتبون ، فصنف ابن الفراء كتاب « الحدود » .

واقتدى العلماء سنة خلفائهم فى نشر الكتاب ، فيروى انه لما فرغ الفراء من املاء كتاب « المعانى » خزنه الوراقون عن الناس ليكسبوا به ، ولم يخرجوه الا لمن أراد نسخ كل خمس ورقات منهم بدرهم ، فشكا الناس الى الفراء ، فدعى الفراء الوراقين وطالبهم بتخفيض الأسعار ، ولكنهم اعترضوا وتمسكوا بموقفهم ورأى الفراء أن يقوم بعمل لصالح الناس ، فاملى كتاب « الحمد » فى مائة ورقة وهو أتم شرحا وأبسطها ، فعاد الوراقون ينسخون الكتاب القديم كل عشر ورقات بدرهم (١) .

الانتشار فى الامصار الاسلامية

ثم انطلق التراث العربى الاسلامى فى غزارة الانتاج فى سائر أمصار وأراضى العالم الاسلامى اعتبارا من القرن الثالث الهجرى ، وكان للاندلس ومصر وبلاد المشرق دور كبير فى ذلك حتى أنهم أصبحوا أصحاب اشعاعات فى انتاج التراث

---

(١) البغدادى : تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ١٤٨ .
— ياقوت : معجم الادباء ، ج ١٦ ، ص ١٠٦ .

العربى الاسلامى بصورة أكثر تخصصا ، وأكثر تنوعا وتصنيفا ، وظهرت مؤلفات لم يتوقعها أحد — ومصنفات فى جزئيات من فروع العلم الكبير كان لها الفضل فى التقدم الانسانى حتى الآن ، بل انهم اهتموا بما يعرف بكتب معاجم الكتب المؤلفة فى كل علم ، والذى بدأه فى مرحلته الأولى واصل بن عطاء (ت ١٣١ هـ) فى كتابه الهام « طبقات أهل العلم والجهل » ثم برز فيه ابن النديم (ت٣٧٧ هـ) فيما بعد فى كتابه « الفهرست » وان كان الأول بصورة بدائية وبهدف أمور أخرى ، بل وظهرت « الموسوعات الكبرى فى كل تخصص من التخصصات العلمية ولعل أبرز دليل على ذلك الطبرى فى كتابه « التفسير » ، و « التاريخ » .

والحقيقة التى يجب أن ندركها ونحن فى مناقشة التراث العربى الاسلامى ، أنه اذا كان القرن الثانى للهجرة بداية الانطلاق ، فان هذا كان يقوم على قاعدة هامة، وهى جهاز تربوى متغلغل فى كل ناحية من نواحى المجتمع الاسلامى ، ابتداءا من الكتاتيب التى تعلم الأطفال والصبيان الى المدارس العليا التى يتعلم فيها الكبار وأبرزها المسجد (١) ، وكان تعليم البنات من أنشطة هذا الجهاز الكبير (٢) ولم ينته العصر الأموى الا وقد مالت النفوس الى التعليم الذى ساد فيما بعد الدولة الاسلامية ، بل وأصبح مهنة وصناعة لها أصولها ومناهجها وآدابها (٣) ، بل ودخلها أهل الذمة سعيا وراء التأقلم مع الدولة الاسلامية ، والحصول على وسائل الحياة من وظائف ومهن نسخ وترجمة الكتب وصار بعضهم يحتكر بعض الأعمال فى دواوين الدولة (٤) . وظهرت المعاهد التعليمية المختلفة فى المنشآت التى ظهرت لتحافظ على الكتب أو تعمل لافادة العلماء ، بل وفى مراحل وأماكن الجهاد فظهرت المدارس هذه والمعاهد فى المساجد ، ودور الحكمة ، ودور العلم ، وفى المدارس ودور القرآن ودور الحديث ، وفى الأربطة والزوايا وفى خزائن الكتب ، وفى دكاكين الوراقين ، وفى المجالس العلمية فى دور العلماء ، وفى المارستانات ،

---

(١) محمد فؤاد الاهوانى : التربية فى الاسلام ، ص ٥ .

(٢) محمد حميد الله : أقدم تاليف فى الحديث النبوى ، مجلة المجمع العلمى بدمشق ، مجلد ٢٨ ، ص ٩٨ — ٩٩ .

— حسين أمين : المسجد المعهد الاول للتعليم ، مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية العدد ٢٢ ، ص ١٠ .

(٣) محمد بن سحنون : أدب المعلمين ، ص ٦٢ .

(٤) حبيب الزيات : صحف الكتابة وصناعة الورق ، مجلة الشرق ، مجلد ٤٨ ، ص ٨ ، ١٢ .

وحتى المكفوفين والعجزة فان التعليم عنى بهم وكانت له معهم رعاية خاصة (١) وانتشرت المدارس حتى انتقلت الى أوربا ، وأخذتهـا نموذجا لجامعاتهـا مثل جامعـة سالرنو (٢) ، وفى الاقاليم صارت تؤلف مصـنفات فى مدارس الاقليم لحصر المدارس مثل كتاب « الدارس فى تاريخ المدارس » (٣) .

المؤسسات والمهن المساهمة

ومن مخترعات هذه الفترة اعتبارا من أيام هارون الرشيد دور الحكمة التى كانت تحافظ وتحوى الكتب ، وتساعد العلماء على الاطلاع أى أشبه بالمكتبات المركزية فى العصر الحاضر ، وكذا خزائن الحكمة وهى أشـبه بالمكتبات الفرعية مثل خزانة الحكمة للفتح بن خاقان (٢٣٢ ــ ٢٤٧ هـ) وغيره ودور العلم وهذه ينشئها القوم ذو اليسار من أجل العلم والكتب ، ثم ظهرت دور القرآن ودور الحديث فيما بعد والتى تختص بدراسات وكتب كل منها (٤) .

ومن المهن التى ظهرت نتيجة غزارة التراث العربى الاسلامى مهنة الوراقة ، ومهنة النساخين الذى صار لكل منهم شأن فى انتاج التراث العربى الاسلامى ، فظهر من أصحاب كل منها علماء ومصنفين مثل ابن النديم الوراق ، وأبو على محمد بن الحسن الهيثم ، المهندس البصرى وكان يمتهن النسخ ، ومن النساخين الفقيه أحمد بن على الحطيئة الفاسى (٥) . والأديبة عائشة بنت الفقيـه عمـارة ابن يحيى بن عمارة ، وهى أديبة فصيحة . وغيرهم كثيرين مثل ياقوت الحموى التاجر النساخ .

بل وظل امتلاك الكتب وخزائنها من عوامل فخر الأمراء وحـكام الدول الاسلامية فى انحاء العالم الاسلامى وتحوى أعـداد خرافية عن محتوياتها من الكتب ، بل من عوامل فخر أصحاب اليسر والقضاة والولاة . فأنشأ بنو أميـة بقرطبة خزانة بقصر الخلافة ، وكانت فى الأندلس مكتبة تحوى ٦٠٠ر٠٠٠ كتاب فهارسها أربعة وأربعين مجلدا . وفى القـاهرة كانت مكتبة العزيز تحتوى على ١ر٦٠٠ر٠٠٠ مجلد ، وضمت ٦٥٠٠ مخطوطة فى الرياضيات و ١٨ر٠٠٠ مخطوط

(١) سـعيد الديوجى : التربيـة والتعليم فى الاسلام ، ص ٥٩ .
(٢) كتاب تراث الاسلام ، مقال الفلسفة تاليف الفردجيوم وترجمة توفيق الطويل ، ص ٢٣٢ .
(٣) النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، وهو يختص بمدارس دمشق فقط .
(٤) صلاح الدين المنجد : دور القرآن بدمشق، ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٥) الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ ٧ ، ص١٢١ .

فى الفلسفة ، ومن أمثلة محتويات المكتبة كتاب « العين » للخليل بن أحمد وعدده نيفا وثلاثين نسخة منهم واحدة بخط الخليل . وكانت عدد المكتبات بالقصر أربعون مكتبة (١) .
ومكتبة الملك المؤيد الرسولى ضمت ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ كتاب مجلد . وكان للصاحب بن عباد مكتبة يحملها أربعمائة جمل ، وضمت ٢٠٦٠٠٠ر٢٠٦ مخطوط (٢) وكانت مكتبة الوزير المهلبى تحوى ١١٧٠٠٠ر١١٧ مجلد وكتاب وهذه أمثلة سريعة فهناك أحد القضاة كانت مكتبته تحوى ١٠٥٠٠٠٠ر١ كتاب ومجلد .
وإذا زعمنا أن الأرقام مبالغ فيها ، الا أنها تدلل على أمر ما وصل اليه إنتاج التراث العربى الاسلامى والذى صار له (الكتيب) فى جميع الامصار الإسلامية متاجر وحانات الوراقين ، بل صارت له فى هذه الامصار مزادات ودلالين وموزعين أشبه تماما بمعارض الكتب فى الوقت الحاضر ومما يروى فى هذا الأمر أن أحد الدلالين من بغداد كان يزور العواصم الأخرى للحصول على الكتب والنادرة منها ونزل مصر فسمع بأخبار طبيبها الشهير ابراهيم بن الصوفان ، فأراد أن يشترى بعض الكتب الطبية منه ، وعن طريق أحد الأصدقاء استطاع أن يوطد صلته بالطبيب بعد سهرات طويلة ومناقشات مستمرة ، وقدم الدلال للطبيب عرضا مغريا لشراء عشرة آلاف مجلد من كتبه ، ووافق الطبيب ولكن أخبار الصفقة وصلت الى آذان الوزير الأفضل الذى كان من عشاق العلم المقدرين له ، فاستدعى الطبيب ، وطلب منه ضرورة المحافظة على كتبه لبلده ، ودفع الوزير من ماله الخاص المبلغ الذى كان التاجر العراقى سيشترى به ولذلك يكتب ابن أصيبعة بعد مائة عام ، تعليقا (وجدت هناك عددا من الكتب الطبية والأبحاث القيمة التى تحمل اسم ابراهيم علاوة على اسم الأفضل (٣) .
وحتى هذه المهنة ــ الدلالة ــ لم تخل من العلماء أيضا ، وعلى سبيل المثال المؤرخ الخطيرى (أبو العالى سعد بن على) ــ الدلال ت ٥٦٨ هـ وهو ممن ذيل على كتاب الطبرى ومن الوراقين أبو الفج صدقة الحداد (ت ٥٧٠هـ) (٤)

(١) القريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٢٠ .
(٢) هونيكة : شمس العرب ، ص ٣٨٧ .
(٣) هونيكة : المرجع السابق ، ص ٣٩٢ .
(٤) شاكر مصطفى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٨٠ .

ونختم هذا الباب بالاشارة الى مهنة هامة برع فيها العـــرب ، وتطورت وتقدمت تقدما كبيرا وهى مهنة التجليد ، هذه المهنة التى لازمت مصانع الورق وتأثر عمالها بفن التجليد الصينى ، فى البداية ، ثم البلاد المحررة القبطية مثل مصر قبل الاسلام ، والفارسية والبيزنطية وغيرها . واعتبر عمل المجـلد الاسلامى فيما بعد من فنون الكتاب الاسلامى ومتمما لعمل الخطاط والرسام والمحقق فى التحقيق والتأليف واخراج الكتاب بالصورة الجميلة . بل وامتدت صناعة التجليد الى صيانة أصول الكتب والتحقيقات الاولى لحفظها لتكون فى متناول يد الباحثين وكذا حفظ أوراقها من التلف . وصار التجليد له دوره فى ابراز الكتاب والتأثير فى سعره ، كما سبق الاشارة الى قصة صاحب المكتبة الخاصة التى اشترى بها كتابا يتناسب مع حجم مكتبته . وصـــار المجلد رمزا لغلافات الكتب العربيـــة الاسلامية (١) .

ولم يعرف العرب فى الجاهلية فن التجليد لعدم وجود الكتاب على هيئة Codxform أو الحلية Bound Book . وأول ما عرفه المسلمون عند جمع القرآن الكريم فى صحائف على شكل حيث قاموا بتجليد المصاحف (٢) .

فاستعمال الرق من الملف الى المصحف ، كان طبيعيا أن تحتاج الى غـــلاف يحفظها .

وامتدت التجليدات الاسلامية ، كان بقدائيا يتمثل فى تجميع أوراق المخطوط بين لوحين من الخشب بينهما كعب ، أى شد جسم الكتاب ، ويضاف الى هـــذا كسوة من الرق أو الجلد أو القماش أو صفائح المعدن ، ويتم الشد فيما بعـــد باستخدام خيط متين .

ويرى البعض أن الطريقة التى تجلد بها كتبنا والتى حلت محـــل الادراج المطوية منشؤها فى القارة السوداء (٣) .

وأقـــدم جلود الكتب المعروفـــة فى العصـــور الاسلامية الأولى صنعت فى مصر ، ومنها تعلم المسلمون بعد الفتح العربى الاسلامى لها (٢٠ — ٢١) أساليب التجليد ، ثم نقلوها الى سائر العالم الاسلامى (٤) .

---

(١) مقال : الفنون القديمة والتصوير والعمارة تاليف ارنولد برجز كريستى ، ترجمة زكى محمد حسن فى كتاب تراث الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٨٨ وما بعدها ـ نشر لجنة الجامعيين محمد ماهر حمـادة : المرجع السابق ، ص ١٨٦ — ١٨٧ .

(٢) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات فى الكتب والمكتبات قسم التجليد فى مصر الاسلامية ص ٩ .

(٣) ادام متز : الحضارة ، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ .

(٤) عبد اللطيف ابراهيم ، المرجع والصفحة السابقة .

وكانت الخطوة الثانية استخدام ألواح الخشب بصفائح البردى . وكان البردى يستخدم عادة فى تغليف كتب صغيرة الحجم . وقد عثر على كتاب مقدس عثر عليه بالفيوم معلف بالبردى .

وتطورت صناعة التجليد وانتشرت فى العالم الاسلامى كله على يد المسلمين فى القرون الاولى بعد الهجرة . حتى صارت فيما بعد فنا دقيقا ناضجا ، واتخذت شكلا اسلاميا واضحا منذ القرن السابع الهجرى .

ومن خلال هذا التطور ، وفى احدى مراحله غطيت دفتا الكتاب بغطاء من جلد مع زخارف وتزيينات خارجية وداخلية من حرير أو قماش . وهناك مثل فريد للغطاء الخشبى فى دار الكتب المصرية ، وهو عبارة عن قسم من مصحف مخطوط أبعاده ٣٤×٢٣ سم بخط الامام جعفر الصادق سنة ١٠٠ هـ ، ويحتوى النصف الاوول من هذا المصحف وعدد أوراقه ٢٠٩ ورقه من جلد الغزال .

ولم يترك الامر ابن النديم فى ذكر عدد من أسماء المجلدين منهم ابن أبى الحريش الذى كان تجلد فى خزانة الحكمة للمأمون ، وشفه المقراض العجيفى ، وكذلك أبو عيسى بن شيران ، ودميانة الاعسر بن الحجام ، والحسين بن الصفار (١) .

وأسهم فن التجليد وتطوره فى شكل الكتاب ، فأصبح عموديا مع تطور التصميم العام فى زخرفة جلدة الغلاف ومكانتها .

وصارت هذه الصناعة أو الفن فى تطور دائم على يد المسلمين ، يبدعون ويبتكرون ما يحتاجه القراء من المجلد ، فظهر « اللسان » الذى ظهر لحماية الاطراف الامامية من الكتاب ، وتحديد الصفحة التى توقف عندها القارىء ليستأنف قراته فيما بعد دون مشقه .

وبلغ قيمة التجليد الحسن للكتاب دينارين (٢) .

ولما ظهر الثراء فى أنحاء العالم الاسلامى ، وتطور أمر الحصول على الكتاب الى الافتخار بوجوده بأعداد أو بأشكال مختلفة عند ذوى اليسار والثراء ورجال الدولة وأمثالهم ، وكثرت المكتبات الخاصة فى المنازل بجانب المكتبات العامة ومكتبات المساجد والدور التى تخدم أهداف دينية وثقافية اسلامية . ظهرت الحاجة الى اظهار التجليد بصورة تنم عن الثراء ، وتعمل على تلبية الحاجات

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٤ .

(٢) آدم متز : الحضارة ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ .

الجديدة من الكتب . فكانت بعض الكتب تجلد بالخشب المزخرف المطعم بالعاج والعظم والصدف ، ثم استخدم الورق المضغوط أو المقوى عوضا عن الخشب فى كتب أخرى لتقوية الكتاب . وأقبل الناس بسائر طبقاتهم الاجتماعية على التجليد . وتقدم المسلمون عبر أقطار العالم الاسلامى فى صناعة التجليد حيث عرفوا طريقة الدق أو الضغط كما استخدموا التخريم والدهان والتلبيس بالقماش. وكانوا أحيانا يقطعون الجلد بالرسم الذى يريدونه ، ثم يلصقونه على الارضية الملونة ، وهى عملية تحتاج الى غاية المهارة والدقة ، وكثيرا ما اتبعت فى زخرفة جلدة الكتاب من الداخل (١) .

ونما مع فن التجليد وصاحبه وخدمه فن الزخرفة بالذهب أو ما يطلق عليه « التذهيب » هذا الفن الذي يعتبر تأثيرا اسلاميا عربيا مباشرا . وأسهم ذلك كثيرا فى تجليد الكتب بالجلد المزخرف بالرسوم المضغوطة أو البارزة (٢) ، واستعملت أختام مختلفة الأشكال والحجوم . وكانت عناية المجلدين وأعوانهم بباطن الجلود وألسنتها ، كعنايتهم بالجزء الخارجى منها ولذلك ظل التجليد والتذهيب فنا مزدهرا .

المجلدين وأعوانهم بباطن الجلود وألسنتها ، كعنايتهم بالجزء الخارجى منها ولذلك ظل التجليد والتذهيب فنا مزدهرا .

ومن المذهبين الذين ذكرهم ابن النديم ، وخاصة للمصاحف : اليقطينى ، وابراهيم الصغير ،و وأبو موسى بن عمار ، وإبن السفطى ، ومحمد بن محمد أبو عبد الله الخزيسى ، وابنه (٣) .

وفن التجليد لدى المسلمين مر فى التزيين بمراحل ثلاث الاولى — الطبيعية ، وهى التى تزين غطاء الكتاب بمناظر طبيعية ، الثانية — الهندسية ، وهى تزيين غطاء الكتاب بمناظر مأخوذة عن العمارة والاعمدة .

---

(١) عبد اللطيف ابراهيم : المرجع السابق ، ص ١٢ ، ١٣ .
(٢) زكى حسن ، الكتاب فى الفنون الاسلامية ، ص ٣٦٢ — ٣٦٣ .
(٣) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٤ .

وغـيرها أو على ما شـابه من الاشـكال الهندسـية مثل المربعات المتداخلة التى تشكل محاورها نجمة .

الثالثة ــ الاضافات الجديدة التى أضافها المجلدون المسلمون لحفظ الكتب المحققة وأوراقها من الداخل .

ولقد أسهم كثيرا الخلفاء وخاصة فى الأندلس ، والولاة والحكام وخاصة بمصر فى تطور هذا الفن ، فقيل أن أهل قرطبة أهدوا الخليفة عبد المؤمن بن على مصحف عثمان فجمع الصناع المتفننون فى سائر المغرب والأندلس والمهندسين ، والصواعين والنظاميين والنقاشين ، والزواقين والمرصعين ، والنجارين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين . فصنع له أغشية بعضها من السندس وبعضـها من الذهب والفضة وحلاه بأنواع الياقوت وأصناف الأحجار الغريبة الأنواع .

وأخيرا فان تقدم هذا الفن بلغ أقصى مداه فى مصر خاصـة . وما فى دار الكتب شاهدا على ذلك ومعظم ما بها جلد بأمر السلاطين والأمراء والمماليك الذين وفروا للفانين وقتذاك ما يحتاجونه من مواد وأعطوهم الأجور العالية .

* * *

وبعد . فنرجو أن يكون قد وفقنا الله فى اضافة شىء الى دراسة التراث العربى الاسلامى ،بما يعود فيه النفع على الباحثين وطلاب العلم وطلاب الدراسة والقراءة .

خـاتمـة

ان التراث العربى الاسلامى ليس مجموعة كتب صفراء عفى عليها الزمن ، وأصبحت أشبه بالمبانى أو الأشياء التى ينظر اليها على سبيل العلم بالشىء ، أو الاستمتاع بالماضى . بل هو فكر وخبرة .

هو فكر علماء سهروا وفكروا وانتبهوا الى آراء بناءة مستمدة من العقيدة وأساسها يرى ما تراه العقيدة من وضع الانسان فى طريقه الصحيح بالمنهج السليم الاسلامى .

وخبرة علماء عمليين استطاعوا أن يصلوا الى الأسلوب العلمى فى البحث وأن يقوموا بتجارب عملية وآلات متطورة لم تصل اليها الحضارات النظرية السابقة مثل الحضارة اليونانية التى يفتخر بها الغرب ، أو الحضارة الهنـدية والصينية وغيرهم ، فان كانوا قد اخذوا بعض ما وقف عندها الحضارات الأخرى ، فانهم عدلوها وأضافوا لها وتفوقوا عليها لصالح الانسانية ، بل انها ما زالت مصدر الهام للحضارة الأوربية العملية فى كافة العلوم سواء فى الطب والرياضة والعلوم والذرة والآلات الحاسبة كما سبق الاشارة فى البحث . واذا كان هذا شأن علماء الغرب ، فمن الواجب بل والمفوض أن نكون نحن ـــ أصحاب الحضارة ـــ أكثر كشـفا .

وللأسف أن هناك بعض أبناء الوطن العربى الاسلامى يزرى بالتراث ادراكا بدوره لصالح الاستشراقيين أو جهلا لواجبه وعلمه بالتراث.وتراثنا اليوم جريحا بسبب هؤلاء . ان الرفض المطلق للماضى لا يمكن أن يبرره منحى أو اتجاه فكرى ، فان هذا التراث لا يقف ضد منطق الزمن والتاريخ والانسان .

ان الانسان فى أى عصر أو زمان وريث لكل ما قدمه أسلافه ، يستفيد من خـير ما فيه لتطوير اضره وبناء مستقبله ، فليس من طبيعـة الأشياء أن يطغى

المـاضى على الحاضر ، أو يلغى الحاضر الماضى ، لأنهما متكاملان متداخـلان يصنعان المستقبل .

والتراث ليس حكرا على الماضين ، ولأصحابه مثل ابن خلدون والمقريزى وغـيرهم ، بل انه ملك ثبناء الحاضر أيضا وذخيرة لأبناء المستقبل المفـكرين والمستفيدين . اليست علوم ابن طفيـل ، والخوارزمى وابن سـينا وغيرهم هى مدخل العلوم فى العصر الحديث ، وأليست هؤلاء العلوم العربية الاسـلامية مدخل لعلوم القرن العشرين ، ولا نكون مبالغين أن تكون لها مساهمة كبيرة فى علوم القرن الواحد والعشرين .

والسؤال الآن ، كيف نعامل تراثنا العربى الاسلامى الآن ؟ واجابة السؤال هو علينا أن نراجع ما قدمه اسلافنا فى شتى العلوم والمعارف البشرية ، وأن نزيل عن التراث ما طمسه وتتمسك بأحسن مما فيه تحقيقا ودراسة وبحثا وتطويرا وأن نفهمه فهما واقعيا برؤية متميزة خاصة ، فلا يكون التاريخ سجلا لأفراد دون شعوب ، ولا العلم وقفا على عصر دون عصر .

والكشف عن جوهر التراث يظهر الجوانب المشرقة فيه ليستفيد منهـا الحاضر ، سائرة الى المستقبل بابداع وسعة أفق .



اولا : المصــــادر العربية

- القرآن الكريم
- احمد بن حنبل : العلل
- الازرقى : (ابو الوليد محمد بن عبد الله) :
  اخبار مكة وما جاء بها من آثار (تاريخ مكة)
- الاصبهانى : (ابو الفرج الاصبهانى) :
  الأغانى : طبعة القاهرة ١٩٢٧ ــ ١٩٣٦ م
  طبعة القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م
- البخــــارى :
  صـــــحيح البخارى
- بطرس البستانى : محيط المحيط بيروت ١٩٧٠
- أبو بكر السجستانى : (عبد الله بن داود)
  كتاب المصاحف ، القاهرة ١٩٣٦ م
- البلاذرى : (احمد بن يحى بن جابر) :
  فتوح البلدان ، القاهرة / ١٩٥٦ م
- التنوخى : (أبو على الحسن بن أبى القاسم)
  الفرج بعد الشدة ، القاهرة / ١٩٥٥ م
- الجاحظ : (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب)
  ــ الحيوان ، القاهرة ١٩٦٦ م
  ــ البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٦٩ هـ
- ابن جلجل : (ابو داود سليمان بن حسان الاندلسى) :
  طبقات الاطباء والحكماء ، نشر فؤاد السيد ١٤٠٥ هـ / ١٩٤٢ م
- ابن جماعة : تذكرة الســامع والمتكلم
- (ابن حبيب أبو جعفر) (محمد) : المحبر ، حيدر آبار ــ ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م
- ابن حجر العسقلانى : (شهاب الدين أحمد بن على)
  ــ تهذيب التهذيب ــ حيدر آبار ١٣٢٥ / ١٣٢٧ هـ
  ــ الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، حيدر آبار ــ ١٣٥٠ هـ
  ــ لســـــان الميزان
  ــ الاصابة فى تمييز الصحابة ، القاهرة ــ ١٣٨٣ هـ / ١٩٧٠ م

● الخطيب البغدادى : (أبو بكر أحمد بن على) :
— تقييد العلم ، تحقيق يوسف العش ،دمشق ، العهد الفرنسى ١٩٤٩
— تاريخ بغداد ، القاهرة ـ ١٣٤٩ هـ / ١٩٣١ م

● ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد) :
المقدمة ، تحقيق على عبد الواحد وافى القاهرة ١٩٦٠

● ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى) :
وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محى عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ م

● الخوارزمى : (أبى عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف) :
مفاتيح العلوم ، بيروت ، دار الكتب العلمية

● الدينودى : (عبد الله بن مسلم) :
الاخبار الطوال ، القاهرة ١٣٣٠ هـ

● الذهبى : (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله) :
— سير أعلام النبلاء ، القاهرة ، ١٩٥٦ م
— العبر فيمن غبر ، الكويت ، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣ م
— تذكرة الحفاظ حيدر آبار ، ١٣٥٤ هـ

● الزبيدى : (أبو بكر محمد بن الحسن) :
— طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤ م

● ابن سحنون (محمد) : آداب العلمين ، الجزائر ـ ١٩٦٩ م

● السخاوى : (محمد شمس الدين بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان)
— الضوء اللامع فى اعيان القرن التاسع ، القاهرة ـ ١٣٥٤ هـ
— الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ

● ابن سعد : (أبو عبد الله محمد) : كتاب الطبقات الكبير ، القاهرة ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨م

● أبو سعد السمعانى : (ابو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور) :
التحبير فى المعجم الكبير

● ابن سيد الناس : ( ) :
عيون الاثر : القدسى ، ١٣٥٦ هـ

● ابن سلام الجمحى (محمد) : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر ، الطبعة الثانية

● السيوطى : (عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين) :
المزهـــر

● الشيزرى (عبد الرحمن بن نصر) :
نهاية الرتبة فى طلب الحسبـــه ، تحقيق الســـيد البـاز العرينى ، القاهرة ١٩٤٦

● الصفرى : (صلاح الدين خليل بن أيبك)
الوافى بالوفيـات

● الطبرى : (أبو جعفر محمد بر جرير) :
تاريخ الامم والملوك دار المعارف القاهرة ــ ١٩٦٧ م

● أبى الطيب اللغوى : (عبد الواحد بن على الحليمة) :
مراتب النحويين تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٥ م

● ابن عبد البر : (أبو عمر ، يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى) :
ــ الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ، القاهرة

● ابن عبد ربه : (أبو عمرو احمد بن محمد) :
العقد الفريد الطبعة الثالثة ، القاهرة ــ ١٩٦٩ م

● العسكرى : (أبو هلال السين بن على) :
الاوائل

● ابن قتيبه : (أبو محمد عبد الله بن مسلم) :
الامانة والسياسة ، القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م

● القفطى : (جمال الدين على بن يوسف بن ابراهيم) :
ــ انباه الرواه على انباء النجاة ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار الكتب ، ١٩٥٠ م
ــ اخبار العلماء باخبار الحكماء ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار الكتب ١٣٦٩ هـ

● القلقشندى : (أبو العباس أحمد بن على) :
ــ صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ١٩١٤ ــ ١٩١٩ م

● ابن كثير : (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر الدمشقى) :
ــ البداية والنهاية ، القاهرة ، ١٩٣٢ م

● محمد بن علوى المكى الحسنى :
المنهل اللطيف فى أصول الحديث

● المسعودى : (على بن الحسن بن على) :
مروج الذهب ومعادن الجوهرة تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨

● المقريزى : (تقى الدين احمد بن على) :

البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب ، تحقيق د . عبد المجيد عابدين ، القاهرة – ١٩٧١ م

● المقرى : (احمد بن محمد بن يحى بن عبد الرحمن) :

نفح الطيب فى غصـــن الاندلس الرطيب ، تحقيق احســـان عباسى بيروت ١٩٦٨ م

● المنذرى : (التكملة لوفيات النقله ، نشر مكتبة الاداب من ١ – ٤ عيسى الحلبى وجامعة بغداد ، من ١٩٧٤ – ١٩٧٦ م

● ابن النديم : (محمد بن اسحق) :

الفهرست ، بدون تاريخ – دار المعرفة – لبنان بيروت

● أبو نعيم : (أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهانى) :

حلية الاولياء ، مصر ١٩٣٢

● النعيمى : (عبد القادر بن محمد) :

الدارس فى تاريخ المدارس ، دمشق ١٩٤٨

● ابن هشام (أبو محمد ، عبد الملك بن هشام) :

سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ – ١٩٥٥ م

● الهمدانى (أبو محمد ، الحسن بن أحمد بن يعقوب) وهو المعروف بابن الحائك الاكليـــل

● ياقوت الحموى : (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى) :

— معجم الادباء ، تحقيق أحمد فريد الرفاعى ، القاهرة ، ١٩٣٦ م

— معجم البلدان ، القاهرة ، ١٩٠٦ م

المراجـــــع

- احمد حسين شرف الدين : تاملات فى التراث الاسلامى
- أمين مدنى : التاريخ العربى ومصــادره (٢) ، من ســلسلة العرب فى احقاب التاريخ ، القاهرة
- برو كلمان (كارل) : تاريخ آداب اللغة العربية
- بوكاى (موريس) : القرآن الكريم والتوراه والانجيل والعلم ، دراسة فى الكتب المقدسة فى ضوء المعارف ، دار المعارف ، القاهرة ـ ١٩٧٩ م
- د . توفيق الطويل : العرب والعلم ، القاهرة ، ١٩٦٨ م
- جب : دراسات فى حضارة الاسلام بيروت ، ١٩٦٤
- جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، تعليق د . حسين مؤنس ، القاهرة
- د . جمال الدين الشيال : التاريخ الاسلامى وآثره فى الفكر التاريخى الأوربى فى عصر النهضة ، بيروت
- حاجى خليفة : كشف الظنون فى أسماء من الكتب والفنون ، استانبول ، وكالة العارف ، ١٩٤١ / ١٩٤٣ م
- الحبشى (عبد الله) : الكتاب فى الحضارة الاسلامية ، الكويت ، ١٩٨٢
- حسين محمد سـليمان : المدخـل الى علم التاريخ ، الدمام / المملكة العربيـة السعودية ـ ١٣٠٤ هـ
  ـــ الدولة الاسلامية فى العصر العباسى ـ الجانب الحضارى ، مخطوط رسالة دمشق (الحضارة) ، لم تطبع بعد
- الحاوجى : مدخل لدراسة المراجع ، القاهرة
- روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة صالح العلى ، الطبعة الثانية بيروت
- زكى نجيب محمود : قيم من التراث ، دار الشروق ، القاهرة ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م
- زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ((أثر الحضارة العربية فى اوربا)) نقله الى الالمانية فاروق بيضـون وكمال دسـوقى ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م
- سعيد الديوه جى : التربية والتعليم فى الاسلام ، بيروت
- سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة التاسعة

- شاخت وبوزورت : تراث الاسلام ، تعريب حسين مؤنس ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٣٩٨ هـ
- د . شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ، الكويت ، جـ ١ ، جـ ٢
- شوقى ضيف : تاريخ الادب العربى (العصر الجاهلى) ـ الطبعة التاسعة ، القاهرة ، دار المعارف
- د . الشيشانى (عبد الوهاب عبد العزيز) : حقوق الانسان وحرياته الأساسية فى النظام الاسلامى والنظم المعاصرة ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م
- طه الولى : عبد الرحمن الاوزاعى ، بيروت ، ١٩٦٨
- عباس محمود العقاد : التفكير فريضة اسلامية ، طبعة أولى ، بدون تاريخ
- عبد السلام هارون : التراث العربى
  - ـــ تحقيق النصوص ونشرها ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٨
  - ـــ نوادر المخطوطات ، مجلد
- عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر فى القرن الثلاث الأول للهجرة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ م
- د . عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر حتى سقوط الخلافة العباسية القاهرة
- عبد السلام هارون : التراث العربى ـ القاهرة
- عمر رضا كحالة : العلوم البحته فى العصور الاسلامية ، دمشق ، ١٩٧٢
- عبد الهادى الفضلى : تحقيق التراث ، جده ، ١٩٨٢
- فؤاد شركين : تاريخ التراث العربى ، نقله من الالمانية محمود فهمى حجازى ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ (المجلد الأول باجزائه)
- قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى ، بيروت
- كرد على : خطط الشام ، دمشق ، ١٩٢٦ م
  - ـــ الاسلام والحضارة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٠ م
- (آرنولد بيرجز) : كتاب تراث الاسلام ، مقال الفنون الفرعية والتصوير والعمارة ، ترجمة زكى محمد حسن ، لجنة الجامعيين ، القاهرة
- مالك بن نبى : انتاج المستشرقين وآثره فى الفكر الاسلامى / القاهرة ، ١٩٧٠
- قتر (آدام) : الحضارة الاسلامية
- محمد عزه دروزه : عروبة مصر قبل الاسلام وبعده ، المكتبة العصرية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٣ م

- محمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الاسلام ، القاهرة
- محمد فؤاد عبـد الباقى : المعجم المفهرس لالفاظ القـرآن الكريم ، القـاهرة طبعة دار الشـعب
- محمد ماهر حماده : الكتاب العربى مخطوطا ومطبوعا ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م
- مراد كامل : اللغة العربية كائن حى ـ دار الهلال ـ القاهرة
- د . مصطفى جواد : أصول تحقيق التراث
- مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ، الطبعة السابعة ، بيروت ١٤٠٠ هـ
- منيرة ناجى سالم : تاج الاسلام أبو سعد السمعانى ـ بغداد ـ ١٩٧٤ / ١٩٧٥
- ناجى معروف : عروبة العلماء المنسوبين الى البلاد الاعجمية ، نشر وزارة الاعلام العراقية ـ بغداد ـ ابتداء من عام ١٩٧٦ م
- ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ، الطبعة السادسة
- نجيب العقيقى : المستشرقون ، القاهرة ، ١٩٦٤ / ١٩٦٥ م
- يوسف سركيس الدمشقى المصرى : معجم المطبوعات العربية

ثالثا : الدوريات العربية

١ ــ عالم الكتب

٢ ــ مجلة مجمع اللغة العربية ــ القاهرة

٣ ــ مجلة مجمع اللغة العربية ــ الاردن

٤ ــ مجلة المجمع العلمى ــ دمشق

٥ ــ مجلة كلية الآداب : جامعة الاسكندرية

٦ ــ مجلة العرب : المملكة العربية السعودية

٧ ــ مجلة الدارة : المملكة العربية السعودية

٨ ــ مجلة المشرق : بيروت

٩ ــ مجلة الوعى الاسلامى : الكويت

الفهرس

الصفحة

المقدمة ٧

الباب الأول

التعريف بالتراث العربي الإسلامي . . ١١ — ٥٦

التراث ١٤

التراث العربي ١٧

التراث العربي الإسلامي ٢٠

قضية التراث ٢٢

سقطات بعض العلماء ٢٥

الرد على ابن خلدون ٢٧

عروسة المربي والمشيخة ٣٨

مكانة الدراسات الحديثة ٤١

الباب الثاني

أهمية التراث ... ... ٥٧ — ٨٦

أهمية التراث ٥٩

الافتراءات .. وحادثة مكتبة الاسكندرية ٦٩

نكبات التراث ٧٠

الدوريات العربية ٨٠

الدوريات الأجنبية ٨٣

الصفحة

الباب الثالث

منهج التراث العربي الإسلامى ... ٨٧ — ١٢٢

مصادر التراث ٨٩

مراحل تكوين المنهج ٩٤

الاسلون العلمى للمنهج ١١٢

الباب الرابع

الفهرسة فى التراث العربى الإسلامى ١٢١ — ١٥٠

تطور الفهرسة... ... ... ١٢٣

منهج ابن النديم ١٢٦

مقارنة بين مناهج التصنيف ١٣٨

فهرست حاجى خليفة ١٤١

فهرست سزكين ١٤٢

كتب الطبقات الفهرسية ١٤٤

آثار الفهرسة ١٤٦

الباب الخامس

التحقيق والاحياء ١٥١ — ٢٠٠

مراحل التحقيق والاحياء ١٥٥

وسائل الإسهام فى التحقيق ١٦٠

معانى الفاظ التحقيق ١٦٤

دور الورق ١٦٧

دور الخزائن ١٧٠

دور النسخ ١٧٢

التحقيق فى الشرق ١٧٧

الحقيق فى الأندلس ١٨١

الصفحة

نكبات الكتب ١٨٢

الملخصات والشروح ١٨٦

الوراقة والنسخ ١٨٧

صناعة التجليد ١٩٣

الباب السادس

مراحل تكوين التراعي ٢٠١ — ٢٧٣

الكتابة فى العصر الجاهلى ٢٠٣

الكتابة فى الاسلام ٢١٦

عصر الرسول والراشدين ٢٣١

التراث فى القرن الثانى االهجرى ٢٥٠

التراث بعد القرن الثانى الهجرى ٢٦٤

الانتشار فى الأمصار الاسلاميه ٢٦٦

المؤسسات والمهن المساهمة ٢٦٨

كلمة خاتمة ٢٧٥

المصادر والمراجع العربيه ٢٧٧

الدوريات ٢٨٤

رقم الايداع ١٩٨٧/٢٨٨

مطابع دار الشعب بالقاهرة

هذا الكتاب

● يعتبر هـذا الكتـاب دراسـة شـاملة تاريخية ومقـارنة لموضـوع التراث العـربى الاسلامى ، وهى دراسة تقدم تغطية شـاملة لكافة عناصر الموضوع بدءا من تعريف التراث تعريفا علميـا وموضـوعيا ومرورا بتحـديد قيمة التراث وأهميته ومناهجه وعلم التحقيق المرتبط به وما يتصل بهذا كله من موضوعات بالغة الأهمية ٠

● ومن هنا تكمن أهمية هذه الدراسـة الرائدة التى يقدمها لنا الدكتور حسين سليمان حيث يصحبنا معه فى رحلة ممتعة نخوض فيها محيط التراث العربى والاسـلامى الواسـع والذى يعتبر ثمرة النتاج الفكرى والحضـارى للأمة العربية والاسلامية ٠

● واذا كانت هذه الدراسة النادرة تطرح العديد من قضـايا التراث بموضوعية ، فان الأمر الذى لا يقبل الجدل أن أى تحرك فى أتجاه احياء التراث العربى الاسلامى هو أعظم وسيلة تعيد تلاحم الأمة العربية والاسلامية بجذورها ومقدساتها وهذه هى المقدمة الأساسية لعودة المجد الحضـارى لأمتنا من جديد ٠

دار الشـعب

الثمن ٣٠٠ قرش

١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م